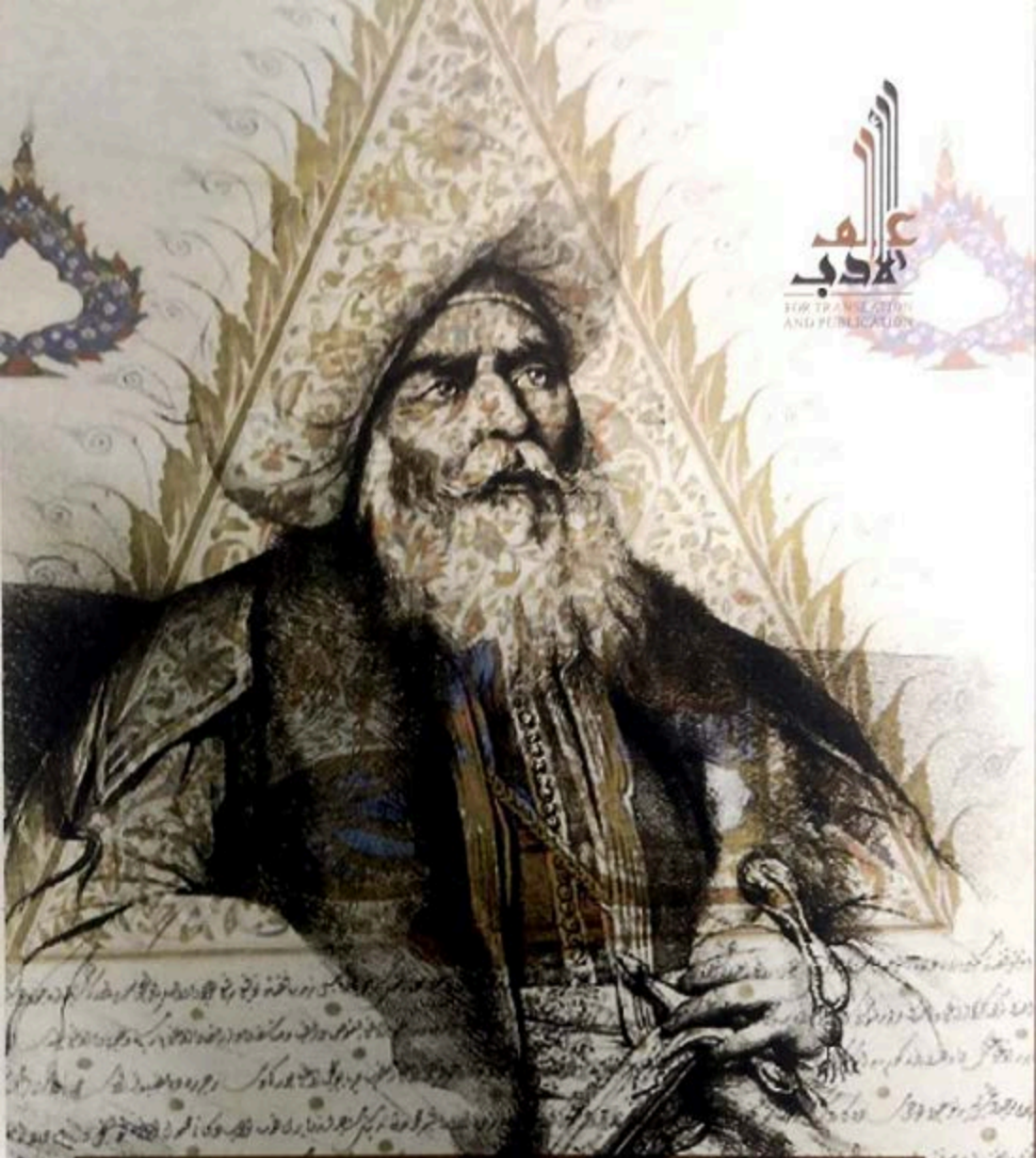

رؤية الوثائق العثمانية

ولاية محمد علي باشا على مصر عام 1805م

آتيلا چتين

ترجمة: د. محمد عبد العاطي محمد

رؤية الوثائق العثمانية
ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م

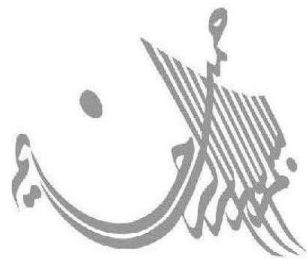

رؤية الوثائق العثمانية

ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م

تأليف

أ. د/ آتيلا چتين

ترجمة

د. محمَّد عبد العاطي محمَّد

مدرس التاريخ والحضارة العثمانية

بكلية الآداب - جامعة سوهاج

١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م

الكتاب: رؤية الوثائق العثمانية
ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م.
تأليف: أ.د آنيلا جتين.
ترجمة: د. محمد عبد العاطي محمد
عدد الصفحات: ٢٤٠ صفحة.
سنة الطباعة: ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١ م
بلد الطباعة: بيروت
الطبعة: الأولى.

جميع حقوق الملكية الفكرية محفوظة

عالم الأدب للترجمة والنشر
مؤسسة عربية تعتني بنشر النصوص للترجمة والعربية في مجالات الثقافة العامة والأدب والعلوم الإنسانية

البريد الإلكتروني: info@aalamaladab.com
الموقع: www.aalamaladab.com

Exclusive rights by ©

الفهرسة أثناء النشر – إعداد دار عالم الأدب
جتين/ آنيلا
رؤية الوثائق العثمانية ولاية محمد علي باشا على مصر عام 1805 م . تأليف: أ د آنيلا جتين.
240 صفحة.
14.5x21.5 سم
١. رؤية الوثائق العثمانية
ISBN: 978-977-85926-6-5
رقم الإيداع: 2021/14275

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو أي جزء منه أوتسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الحاسب أو نسخه على أسطوانات ليزرية إلا بموافقة خطية من الناشر.

لطلبات الشراء البريدية
الرجاء الاتصال على:
٠٠٢٠١٠٠٠٧٥٤٠٦٦
info@kutubkom.com
كتبكم KOTABKOM

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه الطاهرين،

وبعد ...

فإن العمل على نشر العلم بين الناس هو أشرف الأعمال، وزكاة العلم نشره، لذلك قررت رفع هذا الكتاب الموسوم بـ "رؤية الوثائق العثمانية ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م" في صيغة PdF على النت بعد انتهاء العقد الموقع مع دار النشر، والكتاب الآن ليس لأحد عليه حقوق ملكية، إنما من حق المترجم فقط التعرف عليه، وخدمة للقراء الأعزاء فعلت ذلك، وأرجو من الجميع إبداء الملاحظات عن الكتاب، والدعاء لي بزيادة العلم والبركة في العمر، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم.

كما أتقدم بالشكر إلى المهندس/ خالد العسيلي على مساعدته في رفع الكتاب وإتاحته للجميع.

سوهاج المحروسة

مصر

د. محمد عبد الفاطي محمد

٢٠٢٢/١/٧

اللهم يسر وأعن

مكتبة الدكتور محمد عبد العاطي محمد

تنويهٌ للمُترجم

١- اعتمدَ المترجمُ علىٰ نسخةٍ PDF من الكتابِ لتعذّر الحصولِ علىٰ نسخةٍ ورقيّة؛ حيث صدرَ الكتابُ المطبوعُ طبعةً خاصّة علىٰ نفقة المؤلّف عام ١٩٩٨م في إستانبول، ويحملُ الترقيم الدولي: ISBN: 975-96454-0-8 تحت عنوان:

Kavalalı Mehmed Ali paşa'nın Mısır Valiliği - Osmanlı belgelerine göre-

(ولاية قوله لي محمّد علي باشا لمصر في ضوء الوثائق العثمانية). ويتكوّن الكتابُ من ١١٣ صفحة من القطع المتوسّط، وبه مجموعةٌ من الصّور.

٢- لكي لا يلتبس الأمر علىٰ القارئ قام المترجم بتعديل العنوان إلىٰ: «**رؤية الوثائق العثمانية ولاية محمد علي باشا علىٰ مصر عام ١٨٠٥م**»، حيث إن الكتاب يتناول الفترة من عام ١٨٠١-١٨٠٥م، وبهذا لا يشمل عصر محمد علي بأكمله، فكان هذا التعديل اجتهاد من المترجم.

مقدمة الترجمة

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَىٰ أَشْرَفِ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ وَخَاتَمِ الأَنْبِياءِ وَالمُرْسَلِينَ سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ وَعَلَىٰ آلِهِ الطَاهِرين.

وبعد، ، ،

فتعد الوثائق والمصادر الأرشيفية مصدرًا مهمًا وأساسيًا للمعلومات التي ترتكز عليها الدراسات الحديثة والبحوث العلمية المختلفة؛ فهي تمثل المصادر الأولىٰ في كتابة تاريخ الدولة العثمانية الحديث عامة، وتاريخ الولايات التي كانت خاضعة لها، ومنها ولاية مصر خاصة.

ويعد الأرشيف العثماني، وأرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول خاصة من أهم الأرشيفات في العالم في مادته الغنية الخاصة بتاريخ بلادنا العربية، وعلىٰ رأسها ولاية مصر، فهو مصدر أصيل من مصادر التاريخ العربي الحديث ينبغىٰ الإفادة منه.

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة والمصادر الأصيلة أن ولاية مصر كانت لها مكانة مميزة وموقع مهم لدىٰ الدولة العثمانية؛ حيث كانت مصر ذات مركز إداري وعسكري واقتصادي واستراتيجي مهم للدولة العثمانية في المشرق العربي؛ لذلك كانت مؤسسات الدولة المركزية ترعىٰ شئون ولاية مصر وتتابع أمورها عن كثب.

وكانت القضايا الخاصة بولاية مصر تُناقش داخل الديوان الهمايوني، وتُسجل في دفاتر المهمة العامة حتىٰ عام ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م، ويمكن من خلال تتبع الأحكام الخاصة بولاية مصر في دفاتر المهمة العامة في الفترة من ١٥٥٣-١٧٠٧م معرفة وضع مصر الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري، واستخراج مادة تاريخية مهمة يمكن من خلالها كتابة تاريخ مصر في العصر العثماني من جديد. لكن بعد هذا التاريخ (١٧٠٧م) اختفت الأحكام المتعلقة بولاية مصر أو ندر وجودها في دفاتر المهمة العامة؛ إذ أصبحت تُسجل في دفاتر مستقلة أُطلق عليها فيما بعد «دفاتر مهمة مصر».

وتعد دفاتر مهمة مصر-التىٰ بلغت خمسة عشر دفترًا من عام ١١١٩-١٣٣٣هـ/ ١٧٠٧-١٩١٥م- مرجعًا وثائقيًا مهمًا يمكن من خلاله إعادة كتابة تاريخ مصر في العصر العثماني بصورة أكثر دقة وإنصاف؛ حيث يندر وجود هذا الكم الهائل من الوثائق في مكان واحد.

وفي أثناء دراسة الدكتوراه الخاصة بي في موضوع بعنوان: «مصر في العصر العثماني ١٢١٨-١٢١٩هـ/ ١٨٠٣-١٨٠٤م من خلال دفتر مهمة مصر رقم «١١»، تناولت الدفتر الحادي عشر من دفاتر مهمة مصر بالدراسة والترجمة والتحقيق؛ إذ يتناول هذا الدفتر الفترة التىٰ أعقبت خروج الفرنسيين من مصر، وفترة ما قبل تولي محمد علىٰ باشا حكم الولاية، كما قمت بعمل دراسة تاريخية عن الفترة من عام ١٨٠١-١٨٠٥م، التىٰ يُطلق عليها المؤرخون «عصر الفوضىٰ»، واعتمدت فيها بشكل رئيس علىٰ وثائق الأرشيف العثماني، والمصادر العثمانية المختلفة، والدراسات التركية الحديثة التىٰ اعتمدت علىٰ الوثائق.

وكان من بين هذه الدراسات الحديثة: كتاب المؤرخ القدير «آتيلا جتين» بعنوان: ولاية محمد علىٰ باشا لمصر في ضوء الوثائق العثمانية. وقد ترجمته لأهميته، ولتناوله فترة حرجة من تاريخ مصر في العصر العثماني.

وتأتي أهمية هذا الكتاب من ناحيتين، الأولىٰ: الفترة التىٰ يتناولها الكتاب، من عام ١٨٠١م إلىٰ ١٨٠٥م، وهىٰ فترة صراع واضطراب بين عدة قوات تريد كل واحدة منها الاستحواذ علىٰ حكم ولاية مصر بعد أن كانت متفقة في الدفاع عنها، وإخراج الفرنسيين المحتلين منها. الثانية: اعتماد الكتاب علىٰ وثائق الأرشيف العثماني (بلغت عدد الوثائق التىٰ اعتمد عليها الكتاب حوالي: ١٧٠ وثيقة بخلاف دفاتر مهمة مصر)، والمصادر

العثمانية المعاصرة كتاريخ واصف. ومما شجعني علىٰ ترجمة هذا الكتاب إلىٰ العربية، أن المعلومات الواردة به ليست جديدة عليَّ -إذ درستها في رسالة الدكتوراه- إضافة إلىٰ صغر حجم الكتاب (١١٣ صفحة).

أما عن الكتاب فينقسم إلىٰ: توطئة وببليوجرافيا ومدخل وثلاثة أقسام وخاتمة. المدخل تناول فيه المؤلف وضع ولاية مصر بعد خروج الفرنسيين منها، والصراع بين المماليك والعثمانيين والأرناءوط علىٰ حكم الولاية. والقسم الأول جاء بعنوان: ولاية خسرو باشا وصراعه مع طاهر باشا، وتناول فيه الصراع بين عساكر الولاية والمماليك، ونجاح محمد علىٰ في السيطرة علىٰ الوضع لصالحه، ومقتل طاهر باشا. أما القسم الثاني فجاء بعنوان: اتحاد الباشىٰ بوزوق مع المماليك، وتناول فيه تعيين علي باشا الطرابلسي، وعلاقته بالمماليك وعساكر الباشىٰ بوزوق، ومقتل علي باشا، ثم النزاع بين الباشىٰ بوزوق والمماليك. وجاء القسم الثالث بعنوان: العلاقة بين خورشيد باشا ومحمد علىٰ والنزاع بينهما، تحدث فيه عن علاقات الصداقة بينهما، ثم النزاع علىٰ حكم مصر، وأخيرًا موقف الباب العالي من هذا النزاع وتعيين محمد علي واليًا علىٰ مصر. ثم الخاتمة وتشتمل علىٰ أهم النتائج التىٰ توصل إليها المؤلف.

يحاول المؤلف في كتابه إثبات أن محمد علي القائد الأرناءوطي الذي جاء مصر ضمن القوات التىٰ جُمعت من

«قوله»؛ لإرسالها إلىٰ مصر لمحاربة الفرنسيين عام ١٧٩٩م؛ قد نجح بذكائه ودهائه في فهم الوضع في ولاية مصر، وأنه يجب التحكم في عساكر الأرناءوط والباشىٰ بوزوق؛ للسيطرة علىٰ الولاية. وبعد خروج الصدر الأعظم والقبطان باشا من مصر بقي محمد علي قائدًا علىٰ تلك العساكر من أجل تحقيق الأمن في الولاية، فشارك في الصراعات التىٰ وقعت في الولاية بين المماليك والعثمانيين، وأفاد -بخبرته وحنكته- من ضعف المماليك، ونجح في استخدام عساكره ضدهم. وكانت سياسته تتمثل في ضرب عناصر الصراع بعضها بعضا، دون أن يُظهر نفسه في الصورة، ثم التقرب من الشعب الذي ذاق ويلات هذا الصراع، واستمالته إلىٰ جانبه، ثم تمكنه من عزل خسرو باشا، وطرده من مصر، وعزل خورشيد باشا، وإجبار الباب العالي علىٰ تعيينه واليًا علىٰ مصر نزولًا علىٰ رغبة الشعب. كما بيّن المؤلف ضعف الحكومة العثمانية، وعدم إحاطتها بالوضع في مصر في ذلك الوقت.

أما عن المؤلف فهو الأستاذ الدكتور آتيلا جتين، ولد عام ١٩٤٢م في «بايقوز» Beykoz بإستانبول، وأنهىٰ دراسته في قسم التاريخ بجامعة إستانبول عام ١٩٦٦م، ثم عمل فترة طويلة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول، حتىٰ عُين مساعد مدير الأرشيف في الفترة من ١٩٧٠-١٩٨١م؛ وهذا مكنه من الاطلاع علىٰ الوثائق المختلفة. وعمل كذلك في الأرشفة في فرنسا، وفىٰ

الجرائد المختلفة، وعُين في عام ١٩٨٧م عضو هيئة تدريس في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة إستانبول، وعُين أستاذًا مساعدًا في تخصص التاريخ الحديث عام ١٩٨٨م، ثم عُين أستاذًا في جامعة سقاريا عام ١٩٩٦م. وتُوفي يوم الخميس ٤ يونيه عام ٢٠١٥م في «قوجه إيلي»، وعمره ٧٤ عاما.

وترك المؤرخ آتيلا جتين حوالي عشرين كتابًا عن الأرشفة، والتاريخ العثماني، وتاريخ المعارف، والولايات العربية في العصر العثماني، وتاريخ قوجه إيلي وسقاريا، وله أكثر من ٣٠٠ مقال منشور. أما عن أشهر مؤلفاته:

- ملاحظات حول الأرشيف، أنقرة عام ١٩٧٦م.

- ملاحظاتي عن الدولة والمملكة في عصر السلطان عبد الحميد الثاني، إستانبول ١٩٧٦م.

- دليل أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول ١٩٧٩م.

- وثائق عن الأرشيف عصر المشروطية الثانية، إستانبول ١٩٨٥م.

- خير الدين باشا التونسي (حياته، وخدماته، وآثاره)، أنقرة ١٩٨٨م.

- ولاية محمد علي باشا لمصر، إستانبول ١٩٩٨م.

- صفحات من تاريخ قوجه إيلي، إزميت ٢٠٠٠م.

- حياة الأميرة نازلي هانم بنت الأمير مصطفىٰ فاضل باشا المصري، إزميت ٢٠١٣م.

أما عن الترجمة فقد وضعت نص الوثيقة المترجم بين علامتين تنصيص (« ») بخط مائل، للتفريق بينه وبين النص الأصلي، وإن كانت هناك ركاكة في أسلوب الوثائق فهذه طبيعتها؛ فتركتها كما هي؛ حتىٰ لا يخرج النص عن معناه الأصلي. كما وضعت في نهاية ترجمتي قائمة للتعريف ببعض المصطلحات والألقاب الواردة في الكتاب؛ ليسهل الرجوع إليها.

وأخيرًا، أرجو من الله ﷻ أن أكون قد وفقت في نقل هذا الكتاب إلىٰ اللغة العربية؛ إسهامًا مني في كتابة تاريخ مصر في العصر العثماني من جديد بالاعتماد علىٰ الوثائق والمصادر الأصيلة، كما أرجو أن يبارك الله في عمري؛ لأتمكن من نقل أكبر قدر ممكن من أمهات الكتب والمصادر الأرشيفية.

واللهَ أسأل الإخلاص والتوفيق والسداد.

د. محمد عبد العاطي محمد

مدرس التاريخ والحضارة العثمانية بكلية الآداب

جامعة سوهاج (مصر)

١٤ ربيع الأول ١٤٤٢هـ - ٢٩ أكتوبر ٢٠٢٠م

النص المترجم

إهـداء

أهدي كتابي إلىٰ والدتي المُخلصة: فرخنده چتين.

آتيلا چتين

المحتويات

الموضوع	الصفحة
توطئة	٢١
ببليوجرافيا	٢٥
مدخل	٣١
القسمُ الأوّل: ولايةُ خسْرو باشا، وصراعُه مع طاهر باشا	٤٣
١- الوضعُ الدّاخلي في مصر بعدَ الاحتلال الفرنسي	٤٥
٢- ولايةُ خسْرو باشا، والصّراعُ بين عساكرِ الولاية وبيْنَ المماليك، ونجاحُ سرچشمه محمد علي	٥٧
٣- النزاعُ بين عساكرِ الباشىٰ بوزوق، وبين الوالي خسْرو باشا	٧٩
٤- الصّراعُ بين عساكر الباشىٰ بوزوق وبين الينكچرية، ومقتلُ طاهر باشا	٩٣
القسمُ الثّاني: اتّحادُ الباشى بوزوق مع المماليك	١٠٩
١- ولايةُ علي باشا الطرابلسي، وعلاقةُ الباشىٰ بوزوق والمماليك معه	١١١
٢- قتلُ الوالي علي باشا، والنّزاعُ بين الباشىٰ بوزوق والمماليك	١٤٧

الموضوع	الصفحة

القسمُ الثّالث: العلاقةُ بين خورشيد باشا وسرچشمه محمّد علي، والنّزاعُ بينهما ١٧٩
١- علاقاتُ الصّداقة بين خورشيد باشا ومحمّد علي ١٧٩
٢- النّزاعُ والصّراعُ بين خورشيد باشا ومحمّد علي علىٰ ولايةِ مصر ٢٠٥
٣- موقفُ الباب العالي من النّزاع بين خورشيد باشا ومحمّد علي، وتعيينُ محمّد علي واليًا علىٰ مصر ٢١٧
القسمُ الرّابع: الخاتمة ٢٣١

تـوطـئـة

يُعدّ محمّد علي باشا أحدَ الشّخصيات المُلفتة للنّظر كثيرًا في التّاريخ العثماني في العصرِ الحديث، وفي الوقتِ نفسه، كان محمّد علي باشا رجلَ دولةٍ من الطّراز الرفيع، في تاريخِ مصر في القرن التّاسع عشر الميلادي؛ فقدْ تولّىٰ ولايةَ مصر لمدّة أربعٍ وأربعين سنة؛ من سنة ١٨٠٥م إلىٰ سنة ١٨٤٨م، وحقّق كثيرًا من الإصلاحات، وظلّت أسرتُه -التي شكّلها في مصر- تحكُم حتّىٰ عام ١٩٥٣م، ودخلَ محمّد علي مصرَ ضمنَ القواتِ العسكريّة العثمانيّة، التي جاءت للمساعدةِ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ لمصر عام ١٧٩٨م، واستطاعَ في فترةٍ قصيرة -خمسة إلىٰ ستّة أعوام- بعقلِه وحنكتِه وموهبتِه أنْ يحصل علىٰ ولايةِ مصر، وبعدَ خروج الفرنسيّين من مصر، ظلّ محمّد علي يراقبُ الوضعَ السياسيّ، والعسكريّ، والاقتصاديّ، والاجتماعيّ في مصر، ويرصدُ موقفَ الشّعب والعلماء، والتّنافسَ بين القوات العسكريّة المختلفة،

والصّراعاتِ، وإخفاقاتِ الولاةِ العثمانيّين، وهذه الشخصيّةُ الذكيّة التي تعرف كيف تصطاد الفرص؛ تمكّنت من الهيمنة علىٰ السّلطة السياسيةِ في مصر، بعدَ الدّخول في مجموعةٍ من الصّراعات.

وهناك عدّةُ آثارٍ باللّغة التركية عن محمّد علي باشا، لكنْ لا يوجد أثرٌ واحدٌ عن صراعِه علىٰ الولاية، وبالرّغم من ذلك يمكنُ أنْ نعدّ أنّ فترةَ صراع محمّد علي باشا علىٰ الولاية؛ كانت صفحةَ البدايةِ بالنسبة للمسألة المصرية، التي اكتسبتْ ثقلًا عالميًّا ودوليًّا في السنواتِ التي تلت ذلك، وهذه الفترةُ -أي: صراع محمّد علي باشا علىٰ ولايةِ مصر- كانت فترةَ ظهورِه علىٰ الساحة التاريخية، وبتعبيرٍ آخر: سيطرته علىٰ الوضْعِ في مصر، في السنوات فيما بين ١٧٩٨-١٨٠٥م.

وكانت المؤامراتُ التي دبّرها محمّد علي، والصّراعاتُ التي دخل فيها مع خسْرو باشا، وطاهر باشا، وعلي باشا الطرابلسي، وخورشيد باشا -آخرِ الولاة العثمانيّين في مصر-، ومع المماليك، والأدوار التي لعبَها مِن وراء الستار؛ قد شكّلت الخطوطَ الرئيسة لدىٰ الباب العالي في اتخاذ موقفٍ تجاهَ هذا الموضوع، فبعدَ الاحتلال الفرنسيّ لمصر، وضعفِ الإدارة المركزية للدّولة؛ أصبح الوضعُ في مصر فوضويًّا، فهناك تشابهٌ بين ظهور بعض الأعيان، والإقطاعيّين في الأناضول والروم إيلي، وبينَ ظهور محمّد علي واستيلائه علىٰ السلطة السياسية في مصر، وفي تلك الأثناء، من المُمكن أنْ نرىٰ في الوثائقِ آراءَ السّلطان

سليم الثالث، سلطان العصر، ونرىٰ تحذيراتِ رجالِ الدّولة، وقلقَهم بشأن مصر.

وفي الحقيقة، الذي شجّعني لنشْر هذا العمل الذي قُمنا به منذُ فترةٍ طويلة؛ عاملان: **العاملُ الأوّل**: ندرةُ الأبحاث في بلادنا عنْ ولاية مصر(*)، التي أشغلتِ الدّولةَ العثمانيّة والبابَ العالي كثيرًا، طيلةَ القرن التّاسع عشر الميلادي، ثمّ أصبحتْ ولايةً صاحبةَ امتيازٍ بعد ذلك، فلا توجد -حتّىٰ الآن- دراسةٌ عنها سوىٰ دراسةِ الأستاذ الدكتور المرحوم: **شناسي آلتونداغ، باسْم: (عصيان قوله لي محمّد علي باشا، والمسألة المصرية ١٨٣١-١٨٤١م)**. كما أنّ الأبحاثَ الخاصّةَ بمصرَ في وطننا غيرُ كافية، أمّا **العاملُ الثّاني**: بسبب أنّ هذه الدراسةَ اعتمدتْ بشكلٍ رئيس علىٰ وثائق الأرشيفِ العثماني، ولا توجد دراسةٌ عنْ هذا الموضوع (تعتمدُ علىٰ الوثائق)، وجدتُ نفسي متحفّزًا لنشْر هذه الدّراسة، فلم أكنْ أرضىٰ بأنْ تبقىٰ دونَ نشْر، وبالرّغم من وجودِ معلوماتٍ كثيرة جدًّا عن محمّد علي في المصادرِ الغربية؛ إلّا أنّ تناولَ هذا الموضوع من خلالِ وثائق الأرشيفِ العثماني قد يُقدّم رؤيةً جديدة ومختلفة، وخاصّةً يعرض انعكاسَ وجهةِ النّظر الرّسمية للدّولة العثمانية ولرجالِها، ومع وجودِ بعض السّنواتِ

(*) هذا باعتبار أن الكتاب منشور عام ١٩٩٨م ولم تكن هناك دراسات كثيرة حول مصر والمسألة المصرية، أما الآن فهناك دراسات كثيرة وأبحاث أكاديمية عن مصر والمسألة المصرية. المترجم.

الفارغة من الوثائقِ الموجودة في أرشيفِ رئاسة الوزراء؛ إلّا أنّ هناك استمرارًا في أعمالِ التّصنيف داخلَ الأرشيف، ومِن المُمكن في أيّ وقتٍ استخراجُ وثائق جديدة، واستخدمتُ في الدّراسة المصادرَ المتعلّقة بهذه الفترةِ، مثل: تاريخ واصف، وتاريخ جودت باشا، والمخطوطات من مكتبة ابنِ الأمين؛ بالإضافةِ إلىٰ ذلك، أفدتُ من بعض الآثار الغربية المهمّة، التي كُتبت عن محمّد علي باشا.

وعلىٰ الرّغم من قوّةِ شخصية محمّد علي باشا -مع أنّ هذا لم ينعكسْ كثيرًا في وثائق الأرشيف العثماني-؛ إلّا أنّه كان من الصّعب عليه أنْ ينجح دونَ دعمٍ قويٍّ له في مصر، وكانَ هذا الدّعم علىٰ أقوىٰ احتمالٍ يتمثل فىٰ فرنسا، وبالرّغم من انسحابِ فرنسا من مصرَ؛ إلّا أنّها كانت تدعمُ محمّد علي باشا لتحقيقِ مصالحها، ولعرقلةِ نفوذِ إنجلترا في مصر، وللوقوفِ ضدّ الدولة العثمانيّة وإنجلترا، وللإجابة علىٰ هذا؛ نأملُ أنْ نجد ذلك في الأرشيفاتِ الفرنسية، وفي تقارير القنصليّات الفرنسية الموجودةِ في مصر.

الأستاذ الدكتور

آتيلا چتين

البـبـلـيـوجـرافـيـا

١- المصادر: وثائقُ أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول:

أ- تصنيف علي أميري، دفاتر سليم الثالث:

24094-22662-20203-9664-1889-207

ب- تصنيف خطّ همايون (=H.H.):

1921	1892	19I8/A	1961	1969	1988	1988/A	2605
2650	3323	3447	3447/A	3447/D	3447/E	3447/G	3447/H
3447/İ	3447/L	3447/M	3449/B	3449/C	3449/D	3449/E	3449/G
3449/K	3449/L	3450	3450/A	3450/B	3450/D	3450/G	3453453/A
3453/D	3453/G	3554/A	3455/	3456	3457	3459	3460
34653467	3468	3471	3473	3474	3474/G	3474/I	3474/J
3474/K	3474/ U3474/A1	3474/B1	3475	3478	3478/A	3478/B	3478/D
3478/E	3478/M	3478/O	3480	3483	3486	3491	3493

3494	3495	3504	3505	3509	3509/ E3512	3525	3526
3532	3534	3537	3540	3541	3548	3553	3555
3556	3556/A	35663566/A	3566/B	3566/D	3570	3579	3579/A
3591	3592	3593	3598	3603	36103611	3614	3616
3618	3619	3620	3622	3623	3623/A	3623/C	3623/D
3625	36293629/E	3638	3639/C	3639/D	3640	3642	3642/A
3646	3646/A	3649	3649/A	3649/B	3652	3654	3657
3659	3660	3661	3726	3798	3798/A	3804	3850
3853/B	4267	44244781	5106	6425	6446	6493	6537/B
6537/C	6652	6662	6845	11802	11805	118701886	11891
11914	11925	11983	11984	15386			

ت- تصنيف معلّم جودت:

- داخلية:

1447-1993-1997-2467-2535-3846-6642-7664-10350-12521-14988-17108.

- مالية: 2365-26431-31170

ث- دفاتر مهمّة مصر: دفتر رقم ١٠، ١١، ١٢(*).

(*) لم نصادف وثيقةً عن العصر الذي نتناوله في دفاتر المهمّة، أو المهمّة المكتومة، أمّا دفاتر مهمّة مصر المكتومة فتبدأ من عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٠م. (وهيٰ خارج نطاق البحث).

٢- المراجع:

1- *Ahmet Rasim,* Resimli Ve Haritalı Osmanlı Tarihi, İstanbul 1329–1327 C.I-IV.

2- *Akçura, Yusuf,* Osmanlı Devletinin Dağılma Devri, İstanbul 1940.

3- *Altundağ, Şinasi,* Kavalalı Mehmed Ali Paşa İsyanı. Mısır Meselesi (1831-1841) I. kısım, Ankara 1945.

4- *Brehier, Louis,* L'Egypte de 1798â 1900. Paris 1900.

5- *Cahi Sait,* Tarih (yazma), Edebiyat Fakültesi Tarih Semineri Kitaplığı.

6- *Cevdet, Tarih,* İstanbul 1309 C. 1-12.

7- *Eren, Cevat,* Selim III un Biyografisi. İstanbul 1964.

8- *G. Douin,* L'Egypte de 1802 a 1804, Correspandances des Consuls de France en Egypte, 1925 Cairo.

9- *G. Douin,* Mohammed Aly Pacha du Carire (1805-1807), Correspandances des Consuls de France en Egypte, 1926 Cairo.

10- *Hanotaux, Gahriel, de l'academie Française,* Histoire de la Nation Egyptienne, Paris 1934, T.I-VII.

11- *İbnülemin Mahmut Kemal kütübhanesi,* T.Y.2730 (Hüsrev paşa-dan Hurşit Paşa'ya kadar vekayi).

12- *Kâmil Paşa,* Tarih-i Siyasi-i Devlet-i Aliyye-i Osmaniye, İstanbul 1327, C I-III.

13- *Karal, Enver Ziya,* Fransa-Mısır ve Osmanlı İmparatorluğu (1797-1802), İstanbul 1938.

14- *Karal, Enver Ziya,* Selim Ill.u n Hattı Humayunları, Ankara 1942; OsmanlI Tarihi, C. V. Ankara 1956.

15- *Mengin, Felix,* Historie Sommaire de l'Egypte Sous le Gouvernement de M. Aly, Paris 1839, T. I-II.

16- *Mustafa Nuri,* Netayicul Vukuat, İstanbul 1236-1327, C. I-İV.

17- *Muhammed es-Seyyid Mahnıud XVI.* Asırda Mısır Eyaleti, İstanbul 1990.

18- *Mauriez, Paul,* Histoire de la M. Ali, vice-roi d'Egypte, Paris 1855, T. I-V.

19- *Ra u f Ahmet, Ragıp Raif,* Babıali Hariciye Nezareti Mısır meselesi, İstanbul 1334.

20- *Soysal, İsmail,* Fransız İhtilali ve Turk-Fransız Diplomasi Munasebetleri 1798-1802 Ankara 1954.

21- *Turc,* N., Chronique d'Egypte 1798-1804. Arabic text ande French translation, by. G. Wiet, Cairo 1950.

22- *Ahduıralımarı Cabarti (Ceherli),* Acâib a l-A th â r fi'l T arâcim va'l-Ahbâr, Bulak 1879, 4 cilt; a. mlL, (Fransızca çevirisi, Merveilles Biographiques et Historiques Kahire 1888-1894, 9 cilt).

١- المقالاتُ والمؤْسوعات:

1- *Ahmet Rifat,* Lûgat-ı Tarihiye Ve Coğrafiye, İstanbul 1299-1300, C.I-VII.

2- *Ahmet Rifat,* Verdülhadayık, İstanbul, by.

3- *Ali Cevat,* Memâlik-i Osmaniyenin T a rih Ve Coğrafya Lügati, İstanbul 1313-1317, C. I-IV.

4- *Ali Fuat,* "Mısır Valisi Mehmed Ali Paşa" TTEM. sayı 19 (96), İstanbul 1928.

5- E.F., *"Mehmed Ali Paşa,* İle ri Gazetesi, yıl 1337/1335-1919, sayı 687-688-689 ...

6- *İslâm Ansiklopedisi,* İstanbul, 1943-1988.

٤- مراجعُ متنوّعة:

a) Altundağ, Şinasi, *"Mehmed Ali Paşa"*

b) C.H. Becker, *"Kahire*

c) C.H. Becker, *"Dimyat"*

d) G.W., "Kıptîler"

e) İnalcık, Halil, *"Hüsrev Paşa*

f) N.A. Koenig, *"Ali Bey"*

g) Kramers, *"Mısır"*

h) M. Sobemheim, *"Memlûkler*

7- *Mehmed Süreyya,* Sicili Osmanî, İstanbul 1308-1311 C. I- IV.

8- Pakalın, *Mehmed Zeki,* Osmanlı T a rih Terimleri ve Deyimleri Şzlüğü, İstanbul 1946, C. I-III.

9- Şemsettin Sami, Kâmusül-âlâm, İstanbul 1306-1316, C. I- vI.

10- Unat, Faik Reşit, Hicrî Tarihleri Milâdî Tarihe çevirme Klavuzu, Ankara 1959.

11- ER.R. Toledano, *"Muhammed Ali Pasha"* E1‘ (Fr.) Leiden 1991, VII, 424-432.

مـدْخـل

بعدَ أنِ التحقتْ مصر -التي ظلّت فترةً طويلة تحتَ حُكم المماليك- إلىٰ حدودِ الدّولة العثمانية؛ لم يحدثْ فيها تغييرٌ جذريّ من النّاحية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، وهذه الولايةُ التي كانت تتمتّع بنظام السّاليانه في الإدارةِ العثمانية، وتعدّ من الولاياتِ الممتازة، كانت تُدارُ في عصري سليم الأول، وسليمان القانوني، علىٰ هذا النّحو: الوالي المُرسَل من قِبَل العاصمةِ برتبةِ وزير، والدّيوان الصّغير المقصود به ديوان الوالي، والدّيوان الكبير الذي يحضرُه زعماءُ الولاية، وموظّفو الدّولة لمباشرةِ الأعمال المهمّة، وأوجاق السّناجق السّبعة الذي له أعمالٌ مُختلفة، وأخيرًا المماليك الذين يقبضون علىٰ مقاليدِ الإدارة؛ والذين يشكّلون العنصرَ الرئيس في الإدارةِ العثمانية في مصر، وبعدَ استيلاء السلطان سليم علىٰ مصر، تركَ -السلطان سليم- أمراءَ المماليك الحكّام القدامىٰ الذين لم يخرجوا عليه في

وظائفِهم، وفي الوقت نفسِه سمحَ لهم بتشكيلِ أوجاق جديدٍ من سبع سناجق.

كان عنصرِ المماليك يتشكّل في الأصل من الأطفال العبيد؛ الذين يأتونَ مِن نواحي قفقاسيا والجركس بوجْهٍ عام، وهؤلاء ينشأون نشأةً عسكرية في بيوتِ رؤسائهم من المماليك، الذين يُطلَق عليهم بك (أمير)، والذي يثبتُ كفاءته منهم، يعملُ في الإدارة الملكيّة باسْم: كاشف، ثمّ يترقّىٰ إلىٰ درجة بك، وكان الأمراءُ يشكّلون الأرستقراطيةَ المملوكية، وأكبرُ شخصية وأهمّها فيهم، والذي يرأسهم؛ هو: شيخُ البلد، وبعد أنْ دخل المماليكُ تحتَ الحكم العثماني، استمرّوا في العِصيان والعداءِ أكثرَ من تقرّبهم مِن متْبُوعهم الجديد، وسببُ هذه الخصومةِ والعداء؛ هو أنّ العثمانيّين قد أسقطوا سلطنةَ الجركس التي أسّسوها حتّىٰ ذلك الوقت، لكنّ المماليك كانوا بعيدينَ عنْ فكرةِ إحياء دولتِهم المُنْهارة مِن جديد؛ لأنّهم بعدَ أن دخلوا في التّبعية العثمانية، تنازعوا فيما بينهم كثيرًا، فانْقسموا إلىٰ القاسمية والفقارية.

وكما سنرىٰ فيما يأتي؛ أنّ الدّولةَ العثمانية ومحمّد علي -الذي ظهر في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي- قدْ أفادَا مِنِ انْشقاقاتِ المماليك هذه، ولعبَ النّفاقُ والتنافسُ فيما بينهم دورًا مهمًّا في القضاءِ عليهم، وفي خضمّ الصّراع علىٰ النّفوذ -فيما بينهم-، كان الغالبُ من بينهم يتّحد في كثيرٍ من الأحيانِ مع قوّاتِ الدّولة العثمانية، ويبقىٰ في مصرَ الوسطىٰ والسفلىٰ، أمّا

الطّرف المغْلوبُ فكان ينسحبُ إلىٰ الصّعيد؛ إلىٰ مصر العليا، وينتظرُ الفرصةَ السّانحة حتّىٰ يعود مرّةً أخرىٰ، ويتصارعَ من جديد.

وفي القرنِ الثامن عشر الميلادي، في عصرِ ضعفِ الإمبراطوريّة العثمانية؛ كان أمراءُ المماليك يتمرّدون ضدّ الدولةِ التّابعين لها كثيرًا، ويزيدونَ من شدّةِ حركات العصْيان والتمرّد.

وقد لعبَ تدخّلُ بعض الدّول الأوروبيّة النصرانية دورًا كبيرًا في تحريض عصيان المماليك، وتأجيجه، الذي ظهرَ في النّصف الثّاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وخيرُ دليلٍ علىٰ ذلك: عصيانُ **بولوت قَبَان علي بك (علي بك الكبير)**؛ حيث كان يريدُ فصلَ مصرَ عن الإدارةِ العُثمانية، وتأسيس دولةٍ مستقلّة بدعمٍ من الروس والإنجليز ومساعدتهما، وبعدَ القضاءِ علىٰ هذا العصيان عام ١٧٧٣م، ظهرتْ صراعاتٌ جديدة في الولايةِ بين إبراهيم بك، ومراد بك، وإسماعيل بك، وأحيانًا كانوا يتمرّدون ضدّ الدولةِ المتْبوعة، ويقومون بحركاتِ عصيان؛ فقامت الدّولةُ -إزاءَ هذه الحركات- بإرسال قبطانِ البحر الغازي حسن باشا الجزايرلي إلىٰ مصر، فتمكّن من تحقيق السّكونِ والأمْن لفترةٍ طويلة فيها، لكنّ إبراهيم بك، ومراد بك؛ كانَا يؤديان دورًا مهمًّا ضدّ الولاةِ العثمانيّين المُرسلين من مركزِ الدّولة، ولنقُلْ: إنّ سلطةَ هذين الاثنين ونفوذَهما لم تكن ثابتة طوال الوقت.

وكانتْ حركاتُ العصيان المستمرّة -سواء بين المماليك أنفسِهم، أو بيْنَ قوّات الدولة العثمانيّة والولاةِ في إدارة مصر-، والإدارةُ السّيئة لقوات العساكر العثمانية، ونهاية هذه التمرّدات؛ قد خلقتْ ضررًا بالغًا؛ أدىٰ إلىٰ سحقِ الشّعب المصري، وكانت هذه الحركاتُ مرتبطةً بظهورِ الفوضىٰ والرّشوة؛ داخلَ الولاية التي أصابها اليأسُ والقنوطُ مِن ذلك، ولم يتحقّقِ الأملُ المنتَظر علىٰ الإطلاق.

ويمكنُ أن نقول -مِن سبيل الاسْتطراد-: إنّ أهمّ ميزةٍ للشّعب المصري؛ أنّه لم يشكّل أمّةً واحدة؛ بل كان يعيشُ جنبًا لجنبٍ مع عناصرَ إثنيّةٍ مختلفة، ومع أنّ البنْية القويّة لهذا الشعب كانت مِن عناصرَ مختلفة؛ لكنّ العناصر الرئيسة للشعبِ المصريّ كانت تتشكّل من الأتراكِ؛ الذين استقرّوا في الولاية منذ الفتح، والأقباطِ الذين جاءوا من نسل المصريّين القدماء، والبدو، والعربِ المدنيّين، والمغاربة، والمماليكِ، وأخيرًا العناصرِ غيرِ المُسلمة. وكان أحدُ العواملِ التي حقّقت تأسيسَ حكم محمّد علي في مصر -كما سنرىٰ لاحقًا- هو ميزةَ التعدد الجنسِي، أو الإثنولوجي للشعب المصري.

وفي أثناء احتلال مصر -سواء من طرف المماليك، أو من طرف الولاة والعساكر، معَ ضعف السّلطة العثمانية-؛ كان قد اندلع صراع في فرنسا؛ التي فقدت جزءًا كبيرًا من مستعمراتها في الخارج، في حروبِ الأعوام السبعة (١٧٥٦-١٧٦٣م)، والتي

خسرت منافستها أمام إنجلترا، وهذا الصراع قد أدىٰ دورًا في مصير أوروبا، وفي أوروبا الغربية. وهدفت فرنسا -التي شبّت من جديدٍ في نهاية هذا الصراع- في سياستها الاستعماريّة الجديدة إلىٰ التوجّه إلىٰ تأسيسِ سياسةٍ استعمارية في الدّول القريبة من الوطنِ الأمّ، أكثرَ من الأماكن البعيدة عَمَّا وراء البحار؛ لذلك وضعتْ عينَها علىٰ منطقةِ مصر الغنيّة اقتصاديًّا، والضّعيفة جدًّا في ذلك الوقت، وانتهزت الفرصة المناسبة لتجريدِ حملةٍ إليها، وأظهرت نفسَها أثناء حروب الاحتلال، وبالرّغم من التفوّق والنجاح الذي حقّقته فرنسا؛ في حربِها مع أكبرِ مُنافس لها -ألا وهي إنجلترا- بعد نصر «كامبو فورميو» Campo formio عام ١٧٩٧م، لم يكنْ من المُمكن شن هجومٍ علىٰ إنجلترا، وفي أثناءَ تفكير الجنرال نابليون بونابرت في الهجومِ علىٰ إنجلترا؛ أعلنَ أنّه سيحتلّ مصر، وبسبب موافقةِ وزير الخارجيّة طاليران لفكرة نابليون نفسها في احتلالِ مصر؛ أقنعَا الحكومةَ بتجريد حملةٍ عليها، بل كان زعماءُ الإدارة الفرنسية يخْشون هذا الجنرالَ الشّاب؛ الذي بدأت شهرتُه تزداد، ففكّروا في إرسالِه فىٰ حملةٍ غيرِ معلومة المدّة؛ لإبعاده عن فرنسا.

في الظّاهر كانت هذه الحملة تهدفُ إلىٰ ضربِ إنجلترا مِن علىٰ طريق بلاد الهند، وهذا يتوافقُ مع سياسة الاستعمار الفرنسيّة الجديدة، فتحرّك الأسطولُ الفرنسي -الذي يحمل جيشًا قويًّا- تحت إدارة نابليون، والذي جُهّز بجهدٍ وتنظيمٍ فائق لهذا الهدف،

فتحرّك من طولون يوم ١٩ مايو ١٧٩٨م، واستولىٰ في الطّريق علىٰ جزيرةِ مالطة، ودخلَ الإسكندرية بسهولة. ومِن جانبٍ آخرَ، كان الأسطولُ الإنجليزيّ -تحت قيادة الأميرال نيلسون- مشغولًا بالبحث عن الفرنسيّين في البحر الأبيض، وتمكن نابليون الذي كان سيذهبُ إلىٰ مصرَ بعد الاستيلاء علىٰ الإسكندرية، تمكّنَ من هزيمةِ المماليك تحتَ قيادة إبراهيم بك، ومراد بك، والعثمانيّين؛ في موقعة الأهرام ٢١ يوليو ١٧٩٨م، وأصبحَ حاكمًا علىٰ مصرَ بأكملها، لكنْ في تلك الأثناء، تمكّن الأميرال نيلسون من القضاءِ علىٰ الأسطول الفرنسيّ في أبي قير، في ١ أغسطس ١٧٩٨م، وبهذا يكون قد قطعَ علاقةَ الجيش الفرنسي بوطنِه، وتمكّن من تحقيق ضربةٍ قويّة إلىٰ حملة نابليون، ومع ذلك استمرّ نابليون في حملتِه بهدف احتلالِ مصر، وجهّز حملةً إلىٰ سوريا في فبراير ١٧٩٩م، لكنّه أخفقَ أمامَ أحمد باشا الجزار في عكا، وعاد إلىٰ مصرَ بخسائر فادحة، ولجذبِ المصريّين إلىٰ جانبِه؛ روّج نابليون في كلامِه أنّه صديقُ الإسلامِ والسّلطان، وأنّه عدوّ المماليك فقط، لكنّ هذا لم يؤثّر علىٰ الشّعبِ المصري المُسلم، بالعكس؛ استمرّوا في صراعهم ضدّ الاحتلال الفرنسي حتّىٰ النهاية.

نظرةٌ على القاهرةِ القديمة

مِن جانبٍ آخرَ؛ أعلنتِ الدّولة العثمانيةُ الحربَ علىٰ فرنسا رسميًّا؛ بسبب استيلائها علىٰ أحدِ أراضيها دونَ وجْه حقّ، حتّىٰ وإنْ تأخّر إعلانُ الحرب؛ لأنّها لم تكنْ مستعدّة لهذا العدوان، كما أن السّفير السيد علي أفندي الموجود في باريس؛ كان مغيبًا عما يحيكه طاليران، وعندما بدأ البابُ العالي في استكمالِ تجهيزات الحرب؛ بدأ يعقدُ اتّفاقًا مع دولتي روسيا وإنجلترا -اللّتين اقتربَتَا من الدّولة بهدفِ مَصالحها- ضدّ فرنسا، وبعد القضاءِ علىٰ الأسطول الفرنسي في أبي قير، أعلنَ البابُ العالي الحربَ علىٰ فرنسا في ٢ سبتمبر ١٧٩٨م، وبعد وقتٍ قصير؛ حدثَ الاتّفاقُ العثماني الرّوسي في ٢٣ ديسمبر ١٧٩٨م، ثمّ الاتّفاق العثماني الإنجليزي في ٦ يناير ١٧٩٩م[1]، بالإضافةِ إلىٰ

(١) للنّص الكامل لهذا الاتفاق؛ انظر: تاريخ جودت باشا، إستانبول ١٣٠٩هـ، مجلد ٧، ص٣٠٤-٣١١.

ذلك؛ فقدْ تعرّضت القواتُ العثمانيّة المُرسَلة إلىٰ مصر من البحرِ -تحت قيادةِ كوسه مصطفىٰ باشا، وبعض القوّات الإنجليزية المساعدة- للهزيمةِ في أبي قير، علىٰ يدِ نابليون العائدِ من حملةٍ سورية في ٢٥ يوليو ١٧٩٩م، وإذا كان هذا النّصرُ قد حقّق الأمنَ للفرنسيّين في مصرَ لفترةٍ من الزّمن، إلّا أنّ نابليون كان قد قطعَ الأمل في ترسيخ مكانتِه في مصر؛ لذلك تركَ الجنرال كليبر علىٰ رأسِ جيشِه، وعادَ هو سريعًا إلىٰ فرنسا، وقبلَ أنْ يرحلَ؛ أوصىٰ كليبر بالدّخول في مفاوضاتٍ مِن أجل إخلاءِ مصر في أسوأ الظّروف، في تلك الأثناء، كان الجيشُ البريُّ المُرسَل من الدّولة العثمانية تحت قيادةِ السّردار الأكرم يوسف ضيا باشا؛ قدْ وصل إلىٰ جنوب سوريا، وكان مشغولًا بتنظيم حركةِ هجومٍ سيقوم بها في ربيع عام ١٨٠٠م، واقترح كليبر علىٰ يوسف ضيا باشا إخلاءَ مصر.

وأجريت مقابلات بين ممثّلي العثمانيّين وفرنسا والإنجليز، ودخلوا في مفاوضاتٍ إيجابيّة باسْم: اتّفاقية العريش ٢٤ يناير ١٨٠٠م[1]، لكنَّ طلبَ الحكومة الإنجليزية من ممثّلها في مصرَ سميث إخلاء الجيشِ الفرنسيّ دونَ قيْد أو شرط؛ أدّىٰ إلىٰ اعتراض الفرنسيّين بشدّة، وبهذا لم تتحقّق الاتّفاقية المذكورة، وبدأ الصّراعُ من جديدٍ بينَ جميع الأطْراف، وفي تلك الأثناءِ، كان جيشُ الصّدر الأعظم يوسف ضيا باشا المكوّن من ستّين ألف

(١) للنصّ الكامل لهذه الاتفاقية؛ انظر: تاريخ جودت باشا، مجلد ٧، ص٣٣٧-٣٤١.

شخصٍ، الذي دخلَ مصرَ؛ قد تعرّض لهزيمةٍ من طرفِ الفرنسيّين في قليوب (هليوبوليس) في ٢٠ مارس ١٨٠٠م، وبناءً علىٰ ذلك؛ استقرّ الفرنسيّون في مصر من جديد، وانسحبَ الصّدرُ الأعظم بقوّاته المهزومة إلىٰ يافا؛ من أجلِ الاستعداد لهجومٍ من جديد، لكنْ في تلك الأثناء، أخبرتِ الحكومةُ الإنجليزية -التي أدركت خطأها- أنّها قبلتْ معاهدةَ العريش، لكنّ هذه المرّة تباطأ الفرنسيّون في الصّلح؛ علىٰ أملِ المُساعدات التي يتوقّعون مجيئها من فرنسا، لكنْ بسبب مقتلِ كليبر بعدَ ذلك بفترةٍ قصيرة، وتعْيينِ الجنرال مينو مكانَه في ١٤ يونيه ١٨٠٠م؛ تغيّر الوضعُ، وبدأ السّلطانُ سليم الثالث -الذي عزمَ علىٰ إنهاء المسألةِ المصريّة- في السّعي الجادّ في كسْرِ المقاومة الفرنسيّة، ومِن جانبٍ آخر؛ كانت إنجلترا -إحدىٰ دولِ الاتّفاق- تدرك مدىٰ ضعفِ الجيشِ العُثماني، وشعرت أنّه بحاجةٍ لمُساعدتها، ولهذا أرسلتْ أسطولًا إنجليزيًّا تحت قيادة سردار، وقوّةً مناسبة إلىٰ الإسكندرية، وخرج الأسطول بقوّة خمسةِ آلافِ شخصٍ إلىٰ البرّ في ٦ مارس ١٨٠١م، ووصلَ -كذلك- جيشٌ بريّ مرتّب من بلاد الهند إلىٰ السويس في يونيه ١٨٠١م، وبعد خروجِ الإنجليز بفترةٍ قصيرةٍ من الإسكندرية؛ أواخرَ مارس ١٨٠١م، وصل قبطانُ البحر كوجوك حسين باشا بأسطولٍ عثمانيّ إلىٰ أبي قير، واستولىٰ علىٰ رشيد، وتوجّه مباشرةً إلىٰ القاهرة، وكان جيشُ الصّدر الأعظم الذي انسحبَ إلىٰ يافا، بعدَ هزيمته في هليوبوليس، قد أعادَ تنظيمَه من جديد، وبدأ يتحرّك صوبَ القاهرة. وبهذا نجحتِ القوّاتُ

العثمانيّة والإنجليزية من الشّمال والشّرق؛ في كسْرِ المقاومةِ الفرنسيّة في وقتٍ قصير، وأعادوا السّيطرةَ علىٰ آخرِ مكانيْن يستندُ عليهما الفرنسيّون، وهُمَا: القاهرة في ٢٧ يونيه ١٨٠١م، والإسكندرية في ٣٠ أغسطس، من العامِ نفسِه، وبدأت مباحثاتُ الصّلح من أجل إخلاء القاهرة، وانتهتِ المباحثاتُ بسقوطِ الإسكندرية في يدِ العثمانيّين في ٣٠ أغسطس ١٨٠١م، وفي فترةٍ محدّدة، ترك الفرنسيّون مصرَ بأسلحتِهم وأحْمالهم، وركبوا سفنَ الإنجليز، وعادوا إلىٰ وطنهم.

وبهذا تمّ القضاءُ علىٰ هذا الاستيلاءِ، الذي جاء بمفهومِ الاستعمار بمساعدةِ الإنجليز، وعادتْ مصرُ من جديد إلىٰ الإمبراطورية العثمانيّة، لكنْ أصبحت مصر هذه المرّة مختلفةً عن الماضي[١].

---

(١) يمكن الإفادة من هذه المصادر للمدخل:

a) Cevdet, Tarih, 1309 İstanbul C. 1-12

b) Hanotaux, Gabriel, de la c ad em ie Française. Histoire de la Nation Egyptienne.L'Egypte Turque par Henri Deherin T.V. Paris 1934.

c) Karal, Enver Ziya, Fransa, Mısır ve Osmanh İmparatorluğu, İstanbul 1938.

d) Karal, E.Z. Selim'ün III. Hattı Hümayunları. Ankara 1942.

e) Soysal, İsmail, Osmanlı Fransız Diplomasi Münasebetleri (1789-1802). Ankara 1964.

f) Kramers, H.A. "Mısır" "maddesi", Osmanlı İdaresinde Mısır, İslâm Ansiklopedisi, istanbul.

g) Köenig, "Ah Bey", İslâm Ansiklopedisi,İstanbul, 1943, 1988.

القسمُ الأوّل

ولايةُ خسْرو باشا، وصراعُه مع طاهر باشا

الوضْعُ الدّاخليّ في مصرَ بعدَ الاحتلال الفرنسي

بعدَ جلاء القوّات العسكرية الفرنسيّة عن مصر، يمكنُ تقسيمُ شكلِ الولاية والعناصر السّياسية الموجودة بها، وفقًا لمَا كانت عليه مِن قبْل إلىٰ: كانت مصرُ -قبل كلّ شيء- ميدانًا لحروبٍ استمرّت فترةً طويلة، وهذا الوضعُ أحدثَ مشكلاتٍ اقتصاديةً واجتماعية كبيرة؛ أنهكتِ الشّعبَ وأتعبتْه، وأثّرت علىٰ المؤسّسات الإدارية والملكيّة، وباختصارٍ من أجل تشكيل مصر مِن جديدٍ؛ يجب إجراءُ إصلاحاتٍ فيها، بالإضافةِ إلىٰ أنّ كافّةَ الأجانب الذين جاءوا مصرَ بسبب الحربِ لم يخرجوا منها بعد، وكانت القواتُ العسكريّة التي يمكنها تحقيقُ النّظام في مصرَ هي: ١- القواتُ العثمانية. ٢- القواتُ الإنجليزية. ٣- المماليك[1].

---

(١) عن هذه القوات وأوضاعها؛ انظر:

Cevdet, Tarih, VII. 132 ve devam1, Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, Egypte Turque par H. Deherain, T. VI. 2 Mouriez, Paul, Histoire de Mehmed-A.li vice-Rol d'Egypte, Paris 1855 T.I. 66-74, Brehier, Louis, L'Egypte de 1798 k 1900, Paris 1900, p. 82-83.

كانت القواتُ البريّة العثمانية الموجودةُ تحت قيادة السّردار الأكرم يوسف ضيا باشا، وقبطان البحر كوجوك حسين باشا، والقواتُ الإنجليزيّة الموجودة تحت قيادة الجنرال هتشنسون مع الأسطول؛ تتمرْكَز بالقربِ من القاهرة والإسكندريّة، وكانت سلطةُ السّلطان في مصرَ تُدار من طرفِ الصّدر الأعظم، لكنْ بعد فترةٍ قصيرة، حدث اختلافٌ بين الصدر الأعظم وقبطانِ البحر؛ أدّىٰ إلىٰ حدوثِ خللٍ في وحدة القوّاتِ العثمانية، علاوةً علىٰ ذلك؛ لم تكنْ هذه القوّاتُ جميعُها قواتٍ نظامية؛ بل كان أكثرُها عبارة عن عساكرَ متطوّعة (باشىٰ بوزوق).

كانت القواتُ المملوكيّة التي تشكّل العنصرَ الثّالث من القوىٰ العسكرية في مصرَ، قد تلقّت ضربةً شديدة بسبب الاحتلال الفرنسي؛ لأنّها فقدتْ أفضلَ قوّاتها وأميزَها في الحروبِ التي خاضتْها، ولهذا اهتزّت قوتُها ونفوذُها القديم، وانقسمَ المماليكُ إلىٰ فريقين مُتنافسين: الفريق الأوّل تحتَ قيادة إبراهيم بك العجوز، ويتمركزُ في القاهرة، الفريق الآخر تحتَ قيادة عثمان بك البرديسي -مِن عبيد مراد بك، الذي ماتَ قبلَ جلاء الفرنسيّين عن مصر بفترةٍ قصيرة، ويتمركزُ في مصر السّفلىٰ، وكانت القوىٰ العسكريةُ الثلاث تتحرك بهدف مشتركٍ ضدّ الاحتلال الفرنسي، لكنِ الآنَ بعدَ تحقيق هذا الهدف، (وخروج الفرنسيّين من مصر)، بدأ كلّ فريقٍ منهم يبحث عنْ آمالٍ وطموحاتٍ في مصر.

وكانت أكبرُ مشكلةٍ تواجه الدولةَ العثمانية في هذا الوضع الجديدِ لمصر؛ هي كيفيةَ تنظيمِ الإدارة فيها، وكيف ستثبتُ هذا النّظام، بمعنىٰ آخر: ما الأسلوبُ الذي ستستخدمه في الإدارةِ الجديدة في مصر؟ ممّا لا شكّ فيه، أنّ النظامَ الجديد الذي حدثَ في مصر يختلف عمّا كانتْ عليه قبل عام ١٧٩٨م؛ لأنّ المشكلاتِ والإخفاقاتِ التي كانت في الإدارةِ القديمة، بدأت تظهرُ بوضوحٍ في نهاية هذا الاحتلال.

وكان السلطانُ سليم الثالث، قد فكّر جديًّا في الإدارةِ المستقبليّة لمصر، قبلَ استردادها بشكلٍ كامل، وكان هدفُه تقويةُ العلاقة بين مصرَ والعاصمة، وتثبيتُ نظام مُحْكم في إدارة الولاية، يكونُ تابعًا لنفوذ مركزِ الدّولة، وأوّلُ نقطةٍ في تحقيق ذلك؛ هي تعيينُ والٍ قويٍّ علىٰ مصر، وإبعادُ الأمراء المماليك إلىٰ خارجها، وفي هذا الخصوص، جاء في الفرمانِ الذي أرسله إلىٰ الصّدرِ الأعظم، والأعمال التي كلّفه بها ما نصّه: «*لقد خرجتْ مصرُ من يدِ الفرنسيّين، لكن هذا لا يعني أنّنا سيْطرنا عليها بمجرد أخذِها من الفرنسيّين فقط، فيجبُ أن تدار تحتَ نظامٍ جديد، عن طريقِ طرْد المماليك بالكليّة؛ لأنّ قبلَ مجيء الفرنسيّين، لم تكنْ مصرُ تحت حكم الدولة بالمعْنىٰ الصّحيح؛ بل كانت في يدِ الظالمين الذين يُقال عنهم أمراء، والآنَ بعناية الحقّ، بعد السّيطرةِ علىٰ مصر، إذا بقيَ أميرٌ واحد من المماليك؛ فلنْ يتحقّق النظامُ المطلوب، وسيصبح أسوأ وأضعف من المرّةِ*

الماضية، ويجبُ أن تنتبهَ جيدًا لهذا، وقد أرسلت إليك الكتخدا السابق عثمان أفندي لهذا الأمر، ولإخبارِكَ بهدفي في تحقيقِ النّظام في مصر، وسيتحرّك معك مِن أجلِ تثْبيت دعائم النّظامِ الجديد في مصر، وسيبْقىٰ بعد عودتك أنت علّة شهورٍ في مصر لمباشرة الأعمال، وقد بيّنتُ له شفهيًّا الأشياءَ الواجبَ فعلُها، ولتتحرّك وفقًا لأيّ أمرٍ يصدر منّي، ومطلوبي منك الاتّحاد مع قبطان باشا، في دفْعِ الأمراء والكشاف وطردهم، ولتبذل الهمّة والغيرةَ في تحقيقِ النّظام المصري، ولتبذلْ جهدَك، ولتباشرْ هذه الأعمال جيدًا»[1].

نفهمُ مِن فرمان السّلطان سليم الثالث هذا، أنّه أرسل عثمان أفندي إلىٰ مصر، كما أشارَ ببعض الأوامر السّرية[2]، وكان من بعض النّقاط التي استقرّتْ عليها الدولة، من تاريخِ وصولِ عثمان أفندي إلىٰ مصر ٢٠ ربيع الآخر ١٢١٦هـ/ ٣٠ أغسطس ١٨٠١م، هي إبعاد الأمراء المماليك، وتعيين والٍ جديدٍ علىٰ مصر، فقام عثمان أفندي بمقابلة أمراء الإدارة العثمانية في مصر، وبلّغَهم الأوامر، وأخبرَهم بقرارِ القبض علىٰ أمراءِ المماليك الموجودين في القاهرة، أو الإسكندرية، وتعيين والٍ جديدٍ علىٰ مصر، وبناءً

(١) Karal, E.Z. Selim'lll.'ün Hattı Hümayunlar1, Ankara 1942 'si. 141-142.

(٢) تحدث جودت باشا في تاريخه، عن المقابلة التي تمت بين السلطان، وعثمان أفندي. انظر:

Cevdet, Tarih C.Vll. sf. 129, da

عليه، استقرّوا علىٰ ثلاثةِ أسماء، لكنّ القبطان باشا كان يريدُ تعيين كتخداه خسْرو باشا واليًا علىٰ مصر، ورأىٰ أنّه مناسبٌ لذلك[1]، وفي الحقيقة عُين خسْرو باشا واليًا علىٰ مصرَ، بعد فترةٍ قصيرة جدًّا في جمادىٰ الآخرة ١٢١٦هـ/ سبتمبر ١٨٠٧م، وهذا خيرُ دليلٍ علىٰ قدرةِ القبطان باشا -صديق الطفولةِ للسّلطان سليم الثالث- واعتبارِه ونفوذِه في الدولة.

وهكذا، قبلَ بدء الصّدرِ الأعظم الذي كان يرسمُ الطّريقَ، (يخطّط) بما يأتيه من أوامرَ من العاصمة، والقبطان باشا؛ تنفيذَ محاولتهما بشأنِ المماليك، نحاولُ أن نوضّح أفكارَ مجموعتين مِن العساكرِ الأخرىٰ الموجودة في مصر، هما: المماليك، والإنجليز، بشأن مستقبل مصر.

كان المماليكُ قبل عام ١٧٩٨م يتحرّكون بحريّةٍ في مصر، ويريدونَ استرداد نفوذِهم من جديد؛ لذلك لم يكونوا مؤيّدين أبدًا لتأسيسِ نظامِ إدارةٍ قويّ داخل مصر؛ لأنّ تأسيس إدارةٍ قويّة في مصر لا يعني -فقط- إنهاءَ سلطتهم للأبد، بل يجعل من المستحيل تحقيقَ آمالهم، وكانوا ينتظرونَ مترقّبين انسحابَ السّردار الأكرم، والقبطان باشا، اللذين يخشون القبضَ عليهما من مصر[2]، وبسبب أنّهم كانوا لا يشعرون بقوّتِهم ولا يثقون في

(١) جاء في الخط الهمايوني المحفوظ في أرشيف رئاسة الوزراء تحت رقم ٣٤٥٧ ما نصّه: تمّ التّصديق علىٰ طردِ المماليك ودفعهم من مصرَ، بحيث لا يبقىٰ فردٌ واحد في أيّ مكانٍ فيها، لكن يتمّ ذلك بطريق سهلٍ وميسّر.

(٢) Cevdet, Tarih 1309, C. VII. sf. 133.

الدّولة؛ التجأوا إلىٰ الحماية الإنجليزية. وذكرَ كاتبُ الوقائع جودت باشا في هذا الخصوص: لم يثقِ الأمراءُ المماليك في الدّولة، فطلبوا الدخولَ في الحماية الإنجليزية في ذلك الوقت، ومن جانب آخر كان الإنجليزُ- أيضًا- قد وَعَدوهم[1]، ورأوا أن حمايتهم للمماليك توافقُ مصالحَهم؛ لأنّ الإنجليز كانوا قد عرفوا جيدًا أهميةَ مصر لمصالحِهم عند احتلالِ فرنسا لها؛ لذلك كانوا يريدونَ ترسيخ مكانتهم في مصر، أمامَ أيّ خطرٍ قد يحدثُ في المستقبل، وأنسبُ طريق لذلك حمايتُهم للمماليك، الذين يُعدّون عنصرَ اتّزان في إدارة مصر.

وممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا الموقفَ يمنح الإنجليزَ إمكانيةَ الاستمرار، وحماية مصالحِهم في مصر، ومن أجلِ الحفاظ علىٰ مصالح المماليك، أو الإنجليز، واستمرارها، كانَ من الطّبيعي والضّروري لنا في ذلك الوقت؛ البقاء جنبًا لجنب في التعاون والمُساعدة[2]، وهكذا قبل أنْ يتحرّك البابُ العالي في تطبيق إدارةٍ جديدة لمصر، وجدَ أمامه تعاونًا وتقاربًا بين الإنجليز والمماليك.

في تلك الأثناء، كان القبطان باشا والصّدرُ الأعظم قد تحرّكوا للقبض علىٰ زعماء المماليك، فدعاهم الصدرُ الأعظم في القاهرة بحجّة اجتماعِ الدّيوان، لكن لم يذهبِ محمد بك الألفي وأبو دياب سليم بك؛ خوفًا من أنْ يكون هذا فخًّا لهما، وفي

(١) Ayn1 eser, ayn1 yer.

(٢) Histoire de la Nation Egyptierme T.Vl. p. 3-4.

جمادىٰ الآخرة ١٢١٦هـ/ ١٩ أكتوبر١٨٠١م، قبضَ عليهما من أجلِ حبسهما في القلعة[١]، لكنْ في أثناءَ صراع المماليك -الذين يبحثونَ عن حيلةٍ يخلّصونَ بها أنفسهم- مع أفرادِ السّفينة العثمانية قُتل بعضهم، ونجح البعض الآخرُ في الهروب، أمّا البقيّة فظلّوا عاجزين في السفينة، بعدَ ذلك حاول بعضُ الكتّاب الغربيّين استغلالَ هذه الواقعة؛ لينسب إلىٰ الدّولة العثمانية إجراء مقتلةٍ ضدّ أمراء المماليك، والحقيقةُ كما ذكرنا فيما سبقَ عنْ هذا الحادث؛ أنّ ذلك كان نتيجةَ قرارٍ إداريّ صِرْف[٢]، وقد أدرك زعماءُ المماليك الموجودون في مصر السّفلىٰ، أن هذا الحادث كان عبارة عن حركة إبادة مسلّطة عليهم، لذلك حاولوا الدفاع عن أنفسهم، فكان من الطّبيعي أن يفقدَ بعضُهم حياتَه في هذه المعركة، ويفهمُ من التّقرير القادم من القبطان باشا، أنّ عددَ القتلىٰ من المماليك لم يتجاوز خمسةَ أو ستّة أفراد[٣]، ومِن جانبٍ آخر، أميلُ إلىٰ أنّ الكتّاب الغربيّين لم تكنْ نيّتُهم سليمةً تجاه الحكومة العثمانية في تصريحاتِهم، وأنّ أفكارَهم بعيدة عن الصدق والحقيقة.

---

(١) Aynl eser, T.VI. p. 6-7; E.F., "Mehmed Ali Paşa" İleri Gazetesi, yll 1919, sayl 688.

(٢) ذكرت كافّة الآثار الغربية هذه الواقعة علىٰ أنها مقتلة.

(٣) Bşb. Arş. H.H. Tasnifi No.653/7B.

وبعد أنْ قبضَ السّردارُ الأكرم والقبطان باشا علىٰ زعماءِ المماليك علىٰ هذا النّحو، واجهَا موقفًا لم يكنْ في الحسبان؛ فقد تدخّل قائدُ القوات البحرية الإنجليزية هتشنسون، الموجود في الإسكندرية في هذه الحادثة، فقد كان الأميرالُ الإنجليزىٰ مطّلعًا علىٰ ما قام به القادة العثمانيّون ضدّ المماليك، وطلبَ في الحال -وبشدّة- تسليمَ الأمراء المماليك -سواء القتلىٰ، أو الجرحىٰ، أو الأحياء الموجودون في القاهرة، أو الإسكندرية- إليه، وفي الوقت نفسه، تحرّكت القواتُ الموجودة تحتَ إمرته؛ تحسّبًا لمعركةٍ مع القوات البحرية العثمانية.

وذكرَ القبطان باشا في الخطابِ الذي أرسله إلىٰ الأميرال الإنجليزي، أنّ الدّولةَ العثمانية لم تتحرّكْ بنيّةٍ سيئة تجاه المماليك، بالعكس، هي تريد تحقيقَ الأمن والأمان في منطقةِ مصر، وإبعادَ أمراء المماليك عن مصر، ونقلَهم إلىٰ منطقةٍ أخرىٰ في الإمبراطورية العثمانيّة براتبٍ ورتبةٍ عالية، لكنّ الأميرال الإنجليزي لم يقبلْ هذا الاقتراح من القبطان باشا، وأصرّ علىٰ إطلاق سراح المماليكِ المقبوض عليهم، وإلّا فسيضطرّ إلىٰ التحرّك بشكل عدائيّ، بموجبِ التّعليمات القادمة من حكومته[1]، وهذا الموقفُ يُظهر -بوضوحٍ- إمكانية حدوث معركةٍ بين القوّتين البحريّتين المتّفقتين، فلم يجدِ القبطان باشا والصّدر الأعظم -أمام هذا الوضعِ الجادّ- حيلةً سوىٰ إخلاءِ سبيل الأمراء المماليك،

(١) Cevdet, ayn1 eser VII. 134.

وبهذا الشّكل حالَا دونَ حدوث مواجهة بالسلاح، ومِن جانبٍ آخرَ، انسحب الأمراءُ المماليك المطلوقُ سراحُهم إلىٰ الصعيد، إلىٰ جانب رجالهم المُختبئين هناك[١].

نرىٰ أنّ حركةَ التطهير التي بدأتها الدولةُ العثمانية في مصر؛ من أجل تحقيق الأمن والأمان، قدْ فشلت؛ بسبب تدخّل إنجلترا دونَ وجْه حق، وأساسًا كان بقاءُ القوات العسكرية الإنجليزية في مصر مدّةً أطول، وعدمُ خروجها، وحمايتُهم لأمراء المماليك؛ يُخلّ بحقوق السيادة العثمانيةِ علىٰ الولاية، وفي الوقتِ نفسه، كان هذا التصرّفُ من إنجلترا قد أظهرَ طمعَها في مصر، وعملَها في الخفاءِ؛ من أجل السّيطرة علىٰ هذه المنطقة بالقوّة العسكرية الموجودة، وبحجّةِ حماية المماليك[٢].

بعدَ ذلك، إذا كان الصّدرُ الأعظم قد أوْفىٰ بوعدِه، في منح المماليك وظائفَ جديدة كما يطلبون، فضلًا عن راتب بالقدْر الذي يريدون؛ إلّا أنّ هذه المحاولة لم تحقّق نتيجةً إيجابية مع المَماليك[٣]، وبينما كانت مشكلةُ المماليك مستمرةً علىٰ هذا النحو؛ أصدرَ يوسف ضيا باشا بعضَ القرارات الضّرورية، في الأمور الإدارية والمالية والعسكرية في المنطقة، قبل خروجه من

(١) Ayn1 eser VII. 134-135.

(٢) Karal, E.Z. Selim Ill.'ün Hatt1 Hümayunlar1, sf. 142.

(٣) Karal, E.Z. Selim Ill.'ün Hatt1 Hümayunlar1, sf. 147-148.

مصر، وبناءً علىٰ ذلك، دخلتْ مصر في التاريخ من جديد[١]، وبدأت في إصلاح الوضعِ المالي[٢]، وفي النهاية، بدأت في تجهيز نظامٍ جديدٍ لأوجاقات العسكر في مصر[٣].

في الوقت نفسه، كانت الدولةُ تريد وضعَ نظام للمقاطعات المحلولة، التي كانت مهمّةً للدّولة بقدْر أمراء المماليك، لكنّ تطبيق ذلك يحتاج إلىٰ سنواتٍ عديدة[٤]. يعني: أنْ الدولة بدأت إجراء إصلاحات جديدة، في المجالات الأخرىٰ، تزامنًا مع إبعاد المماليك عن مصر، وعندما لم يتمكّن البابُ العالي من إبعاد المماليك عن مصر؛ بسبب تدخّل الإنجليز؛ أصدرَ فرمانًا، بمنع دخولِ العبيد القادمين من الأماكن المختلفة من الإمبراطورية إلىٰ مصر، وأمرَ بتطبيق أقْصىٰ عقوبةٍ علىٰ مَن يخالف هذا القرار[٥]. ومهْما يكن مِن أمر، وإذا كان هذا القرارُ لم يُطبّق علىٰ الوجهِ المطلوب؛ إلّا أنّه أوقعَ أمراءَ المماليك في موقفٍ حرج؛ لأنّه كما هو معروفٌ، كان العبيدُ الذين يأتون من الخارج إلىٰ مصر، بعد

---

(١) BA. Mühimme-i Mısır, No; 10, saf, 149-150.

(٢) BA, Muallim Cevdet Tasnifi, Maliye No: 26431.

هذا أمر مرسل إلىٰ والي مصر بتاريخ ١٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٢١٦هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٨٠١م، بخصوص الأمور المالية.

كذا الوثيقة رقم O3117.

(٣) M, Mısır, No: 10, sf. 178 ve devam1.

نظامنامه لتنظيم الأوجاقات العسكرية في مصر من جديد

(٤) Karal, ayn1 eser. s. 149.

(٥) M. Cevdet tasnifi. Dahiliye. No; 1997.

أنْ يتم تدريبهم وتعليمهم في معيّة الأمراءِ، يأخذون وظائفَ في أوجاق المماليك، ومِن هذه الناحية يعدّ العبيدُ مصدرًا مهمًّا لهذا الأوجاق.

بعدَ ذلك، وبسبب عدمِ وجود شيء يُمكن فعلُه أكثرَ في مصر؛ غادرَ يوسف ضيا باشا الولايةَ، تاركًا إدارتَها في يد خسْرو محمد باشا بصلاحياتٍ كاملة، ورحَلَ عن مصر في ٣ شوال ١٢١٦هـ/٨ يناير ١٨٠٢م، وتوجّه إلىٰ العاصمةِ من طريق سوريا[١]، أمّا القبطان باشا، فكان قدْ تحرّك قبلَه مِن الإسكندرية بالأسطولِ العثماني، ووصلَ إلىٰ دار السعادة، في تلك الأثناء، كُلّف حسن باشا المُرْسل إلىٰ جرجا في مصر العليا، بتتبّع المماليك، ومُنحَ رتبة «أمير أمراء».

بعدَ فترةٍ من رحيل قوّات الدّولة العثمانية من مصر، تحرّكت معظمُ القوات الإنجليزية في مايو ١٨٠٢م إلىٰ مالطة وبلاد الهند، لكنْ بقيَ جزءٌ من الوحداتِ العسكرية في الإسكندرية، ولم يريدوا تركَ هذه النقطةَ المهمّة من مصر بسهولةٍ، كمَا سنرىٰ في السّطور القادمة[٢].

تركَ الصّدرُ الأعظم يوسف ضيا باشا عثمان أفندي كتخدا الصّدارةَ في مصر؛ لتنظيم إدارة شئونِ مصر المالية، وبذلَ عثمان

(١) H.H. No: 6662.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 162; Histoire de ia Nation Egyptienne VI. 9.

أفندي جهدًا كبيرًا مع الوالي والدّفتردار؛ في وضع نظام مُحْكم في مصر يتوافقُ مع رغبة الدولة[١]. وبعدَ خروج الصدر الأعظم من مصر، جاء في فرمان الإبقاءِ المُرْسَل إلىٰ الوالي خسْرو باشا، بتاريخ أوائل شوال ١٢١٥هـ/ فبراير ١٨٠٢م، ضرورة العملِ علىٰ حماية الرعايا قبلَ كلّ شيء، والقضاء علىٰ شرّ أمراء المماليك العُصاة وفسادِهم، وتأمين البلاد والحفاظ علىٰ راحة الفقراء[٢]. وفي هذا الوضعِ الجديد في مصر، كان المَماليكُ يتمَرْكزون في الصّعيد.

أمّا خسْرو باشا، فكان يتمركزُ بالقوات التي تُركتْ بأمر الصدر الأعظم في مصرَ الوسطىٰ والسّفلىٰ، وذكر جودت باشا -الذي تطرّق إلىٰ هذه النّقطة، بتعبيره الخاصّ (تفسيره الخاصّ للحدث)- أنه لن يمكنَ تخليصُ مصر من يدِ المماليك من جديد[٣].

---

(١) M. Cevdet Tasnifi, Dahiliye. No: 2535.

(٢) Ayn1 tasnif, Dahiliye No: 17108.

(٣) Cevdet, Tarih 1309, VLI. sf. 135.

ذكر جودت في تاريخه هذه العبارة: لم تتخلّص أمّ الدنيا (مصر) من خطر جماعة أولاد الزنا.

ولايةُ خسْرو باشا
الحربُ بين قوّاتِ الولاية وبيْن المماليك،
وانتصارُ سرچشمه محمد علي

كما ذُكر سابقًا، تولّىٰ خسْرو باشا إدارةَ مصر، اعتبارًا من فبراير ١٨٠٢م، بعد رحيل الصّدر الأعظم منها. ومهْما يكنْ من أمر، وإنْ كان خسرو باشا قد تعيّن واليًا علىٰ مصر قبل ذلك، أي: في سبتمبر ١٨٠١م؛ إلّا أنّه لم يكنْ له تأثيرٌ كبير؛ بسببِ قبْض ضيا باشا علىٰ السلطةَ الإداريّة في يده، لكنْ بعدَ ذلك، حاز خسْرو باشا علىٰ ولايةِ مصر بصلاحيات كاملة، لكن كان يجبُ علىٰ الباشا -في الوقت نفسه- القضاءُ علىٰ بعض الصعوبات الموجودة.

وعلىٰ رأسِ هذه المُشكلات التي يجب حلُّها قبل كلّ شيء؛ مشكلة المماليك، فقد كان المماليك الموجودون في الصّعيد، يروْن أنفسَهم في موقفِ ضعف، ومِن جانبٍ آخر، يريدون أن

يعرقلوا الوالي الجديد، ويتركوه عاجزًا، فكان منعُ الباب العالي إدخالَ العبيد إلىٰ مصر؛ قد تركهم في موقفٍ صعب، ومِن أجل تعويض ذلك، بدءوا يجمعون الرجالَ من القبائل العربية البدوية بالمال، وكان فرمانُ الإبقاءِ القادمُ إلىٰ خسْرو باشا، هو نهايةً لمشكلة المماليك، ومِن أجل الدخول في حركةٍ كهذه، يجب- قبلَ كلّ شيء- توفيرُ قوّاتٍ عسكرية نظامية، وكان خسْرو باشا قد شكّل هذه القواتِ العسكريةَ النظامية؛ التىٰ جمع جزءًا منها من إيالات الأناضول مع الينكچرية، والجزءُ الآخر من عساكر الباشىٰ بوزوق الأرناؤوط الذي كان معظمُهم قد جُلب من ولايات الروم إيلىٰ[1]. وكانت عساكرُ الباشىٰ بوزوق بعيدةً عن النّظام والانضباط، وكان معظمُ عساكر باشىٰ بوزوق الروم إيلي من الأرناؤوط، حوالي أربعة، أو خمسة آلاف، أمّا القسمُ الآخر منهم، فكانت عساكر تركية جَسُورة وشجاعة، جاءت من «قيرجه إيلىٰ»، ومِن أماكن أخرىٰ. وكان يرأس عساكر باشىٰ بوزوق الرّوم إيلي، كلٌّ مَن: طاهر باشا، وسرچشمه محمّد علي أغا، اللّذين كانا من أصلٍ أرناؤوطي، وعددُ جميعِ القوّات العسكرية التي كانت تحتَ قيادة خسْرو باشا حتّىٰ الآن، لا يمكن تحديدُها

(١) أُطلق لفظ: باشىٰ بوزوق، علىٰ المتطوّعين الذين يلتحقون بالجيش عند وقوع حرب، وهؤلاء لا يختلطون بالقوات الأصلية للجيش؛ بل يلتحقون بالفرسان والمشاة، ولهم سلاح مختلفٌ، وقائدٌ مختلف مع تجهيزاتهم، وكانوا عساكر مساعدة، ويأخذون راتبًا من الدولة.

Cevdet, Tarih, VII. S. 215.

بشكل قطعيّ، لكنْ مِن المُمكن أن نقول: إنّها من ستّة إلىٰ عشرة آلاف جنديّ.

وإذا كان (موريس إم. باول) Mauriez Paul قد ذكرَ في أثره «**تاريخ محمّد علي**»: أنّ عدد القوات التي كانت تحتَ إمرة خسْرو باشا، حوالي ستّة عشر إلىٰ سبعة عشر ألفًا، فإنّ هذا الرقم مبالَغٌ فيه قليلًا[1]، والنتيجة أنّ التّغييرَ والاختلاف الذي أظهرَ انعدام وحدةِ القيادة؛ كان يوحي بأنّه ليس من الممكن أن يكون هناك خطوةٌ إيجابية؛ من استخدام القوات العسكريّة غير النظامية، بخلاف ذلك، كانت القواتُ البحريّة الإنجليزية الموجودةُ في الإسكندرية، تتابع -بدقّة- كلّ حركةٍ لخسْرو باشا، وتعترض علىٰ كلّ شيء قد يخالف مصالحَها، ولو بالقوة.

وفي النّهاية، وبخلاف عددِ العساكر، كانت هناك مشكلةٌ كبيرة في ماليّة مصر؛ حيث إنّ الخزينة فارغة، وهناك أزمةٌ في كيفية دفعِ رواتب العساكر.

وبالرّغم من كلّ ذلك، حاول خسْرو باشا التغلّبَ علىٰ الصّعاب بالإمكانات المتاحة له، وتحرّك سريعًا، وبدأ بمشكلةِ المماليك؛ فأرسل جزءًا من القواتِ العسكرية خلفهم، لكن بعد فترة قصيرة، أدرك أنّ هذه العساكرَ غيرَ المتجانسة لن تتمكّن من تلبية مطالبه، أو تحقيقِ أهدافه؛ وبناءً عليه، بدأ في تنظيمِ عساكر

(١) P.Mouriez, H. de la M. Ali I. 78.

باسْم: «نظام جديد»، من بعض الأجانب، ومِن العبيد السّود، وهذا كان يتوافقُ معَ سياسة الدّولة العسكرية في ذلك الوقت، وحاول تقليدَ الفرنسيّين في تعليم هذه العساكر وتدريبِهم، وبدأ في إنشاءِ ثكناتٍ عسكرية خاصّة بهم، وتذكرُ الوثائقُ اسمَ هذه العساكر بـ: «مُعلَّم عسكر»، وكان خسْرو باشا يريد أن يثقَ في هذه القوّة؛ بشأن تحقيق الأمن والنظام في الولاية.

وهكذا، وبينما كان خسْرو باشا مشغولًا بهذه العساكر الجديدة في القاهرة، كانت المعاركُ مستمرّة مع المماليك في الصعيد، وأظهرت الوثائقُ الموجودة في هذا الخصوص، أنّ خسرو باشا كان يعمل بجدٍّ واجتهاد كبيرٍ في هذا الأمر، لكنْ جاء في التّحريرات المُرسَلة إلىٰ الصدارة، بتاريخ ٣ ربيع الآخر ١٢١٧هـ/ ٣ أغسطس ١٨٠٢م ما نصّه: «*قبل مدّةٍ ذهب محمد أفندي كتخدا القبوجيلر، المرسَل إلىٰ مصر العليا، مع قاسم أغا من قبوجيلر باشىٰ الدّركاه العالي(من رؤساء خدم الباب العالي)، وهزموا المماليك الذين جاءوا مِن الشّرق والغرب في موقعةِ إسنا، وبعدَها هُزم المماليك المتمرّدون؛ الذين هجموا علىٰ جرجا من طرفِ متصرّف جرجا حسن باشا، لكنّ المحافظات الواقعة علىٰ نهر النيل في مصر العليا، مثل: سيوط، ومنية ومنفلوط، وبهنساوية، وفيوم؛ كانت محصّنة بعساكر تبلغ ثلاثمائة إلىٰ خمسمائة عسكريّ مع قادتهم، لذلك لم يستطعِ المماليكُ النزول إلىٰ حافّة النيل، فكانوا يتجولون -فقط- في نواحي جرجا، وفي*

الصّحراء». وجاءَ في الوثيقة نفسها: *«رُتبت وحدة جديدة، وعُين إبراهيم أغا قائدًا عليها، وأرسلت إلىٰ مصر العليا، والتحقَ بهذه الوحدة حوالي ستمائة إلىٰ سبعمائة شخصٍ، من العساكر المعلَّمة التي تدرّبَت حديثًا»*.

ويفهمُ من الوثيقة أنّ إبراهيم أغا أُرسِلَ بوظيفة طاهر باشا نفسها في التّاريخ نفسه[١]. لكنْ علىٰ الرّغم من تحقيق قوات خسْرو باشا هذه بعضَ الانتصارات علىٰ أمراء المماليك؛ إلّا أنّها لم تحقّقِ النّتيجة المطلوبة، أو المنتظَرَة منها[٢]، لدرجةِ أنه لم يمرّ وقتٌ طويل حتىٰ استجمعَ المماليكُ قوّتَهم من جديد، وتحولوا من مغلوبٍ إلىٰ غالب، ولم يكتَفِ المماليكُ بهذا، بل تقدّموا (مِن الصّعيد) إلىٰ مصرَ الوسطىٰ والعليا، ونهبوا الفيومَ والمنية وبني سويف، وألحقوا الضّررَ بالأهالي.

بالإضافةِ إلىٰ ذلك، أخذوا ضرائبَ من الأهالي الموجودين في نواحي الجيزة أمام القاهرة[٣]، وكان المماليكُ يعرفون طرقَ الجبال والصّحاري في مصر جيدًا، وبسبب كونهم فرسانًا؛ وصلوا بسرعةٍ في تحرّكهم إلىٰ القاهرة، أمّا عساكر خسْرو باشا فكانت جميعُها من المشاة، وبالرّغم من كلّ التّدابير التي اتّخذها؛ إلّا أنّ

---

(١) BA,H.H.No:3659.

(٢) لمعرفة هذه الانتصارات انظر:

H.H. Tasnifi No: 3449/D; keza ayn1 tasnif No;5106.

(٣) Cevdet, Tarih VII, 156; Mouriez, P. Ayn1 Eser -, I, 91.

حركاتِ المماليك الجريئة والشّجاعة حيّرت الوالي خسْرو باشا، وقد كتب بعضُ الكتّاب الغربيّين في ذلك الوقت، أنّه حدثت مباحثات بين الوالي خسْرو باشا والمَماليك، بخصوص العفوِ عنْهم وإسكانهم في مناطقَ محدّدة، وبناءً عليه، بدأ المَماليك -الذين رأوا أن تنازلات خسرو باشا لهم قليلة- التحرّكَ عسكريًّا[1]، لكنْ نجد أنّ هناك بعضَ المُراسلات المرسَلَة مِن زعماء المَماليك، إلىٰ الوالي تُخبره بإطاعتهم له، لكن لم يردْ شيءٌ فيها عنِ العفْو أو المُباحثات[2]، والنّتيجةُ إذا كان هذا الشيء قد حدثَ بالفعل -أو لم يحدثْ في الحقيقةِ-، إلّا أنّ الوضعَ هو أنّ خسْرو باشا قد رتّب عساكرَ جديدة، وأرسلها للهجوم علىٰ المَماليك، وبالرّغم من النّجاحات التي حقّقها المماليك، إلّا أنّ خسْرو باشا -الذي لم يكِلّ من مُحاربتهم- رتّب وحدتيْن عسكريّتين من القوّات الموجودة هذه المرّة، وعيّنَ علىٰ إحداهما سرچشمه محمّد علي أغا، وعلىٰ الأخرىٰ الكتخدا يوسف أغا، وأرسلَهما إلىٰ تأديبِ المماليك الموجودين في مصرَ السّفلىٰ، تحتَ قيادة عثمان بك البرديسي، وذكرَ جودت باشا -من كُتاب وقائع القرن الماضي- في تاريخِه، أنّه في جمادىٰ الآخرة ١٢١٧هـ/ سبتمبر ١٨٠٢م، أُرسلت فرقةٌ جديدة للهجوم علىٰ

(١) Mengin F, Ayn1 E.ser. I. 21 Mouriez, Ayn1 Eser I, 92.

(٢) BA. H.H, Tasnifi No: 3659 Keza H,H.T, No: 3449/E

الخطاب المرسل من إبراهيم بك وألفي بك إلىٰ الوالي.

المَماليك الذين ازدادَ تغلّبهم، وكان قائدُ هذه الفرقة سرچشمه محمد علي[١].

وقبلَ الحديث عنْ فعاليات سرچشمه محمّد علي، يجب ذكرُ معلومات عن عائلته، وقدومِه إلىٰ مصر، والأوقات التي قضاها حتّىٰ الآن في مصر:

لا نملكُ معلوماتٍ كثيرة عن حياةِ سرچشمه محمّد علي قبلَ مجيئه إلىٰ مصر، ومثلما أشار المؤرّخ الفرنسي H. Deherain أنّه قضىٰ حياةً عاديّة ومتواضعة في قَوله[٢]. فقد وُلد محمّد علي في قوله عام ١٧٦٩م، وكان والدُه إبراهيم أغا رئيسَ حرّاس قوله (أغا دربند، محافظ حدود في بعض الأماكن)، وعمّه طوسون أغا مُتسلّم قوله، ومحمّد علي هو الابنُ الوحيد الباقي من أفرادِ عائلته الكثيرة، وهذا دليلٌ علىٰ الاعتناءِ به كثيرًا، لكن محمّد علي -الذي عاش يتيمًا في صغره- لاقىٰ حمايةً ورعايةً من عمّه طوسون أغا، وبعدَ فترةٍ قُتل عمُّه من طرف الدولة، سواء بحقّ أو دونَ حقّ، وحُرم محمّد علي من الدّعم والحمايةِ من جديد، بعدها واجَهَ صعوباتٍ كثيرة في حياته، وتجرّع آلامًا قاسية، لكنْ عرف كيف يتغلّب عليها بالمتانة والطّاقة والذكاء الموجود في شخصيّته، ومِن أجل ضيقِ العيش؛ عملَ في التّجارة، وانتسبَ إلىٰ

(١) Cevdet, Tarih VII. 155.

(٢) H, de ia Nation Egyplienne VI. 15 de aynen "Son Origine etait modestedenmektedir.

تاجر الدّخان اليهودي الفرنسي Monsieur Leon، وقد عمل قبلَ ذلك ساعيَ بريدٍ، ثمّ سمسارًا، وقد بذل Monsieur Leon -الذي كان يقدّر ذكاءَ محمّد علي وقابليته- جهدًا في تعليمه وتنشئته، ونفهمُ أنّه كان له تأثيرٌ واضح علىٰ الشاب القوله لي، واكتسب محمّد علي في سنوات شبابِه أشياء كثيرة؛ لقربه من الغرب، ووفقًا لبعض المصادر، دخلَ محمّد علي الخدمةَ العسكرية في سنّ ثماني عشرة، حتّىٰ أنه أصبح بلوكباشي -رئيس فرقة- في سنّ العشرين[١]، وهكذا نجد أنّ محمّد علي قضىٰ حياته في مدينة صغيرةٍ، يعملُ في تجارة الدّخان، لكنّه كان يمتلك شخصيةً ذكية وفريدةً لأبْعَد درجة، وهكذا، وبينما كان محمّد علي يقضي حياته علىٰ هذا النّحو، فتح احتلالُ الفرنسيين لمصر أفقًا وطريقًا جديدًا في حياته، فقد أرسل البابُ العالي أوامرَ إلىٰ مناطق الإمبراطورية المختلفة؛ من أجل جمع العساكر، وإرسالِها إلىٰ مصر؛ لإخراج الفرنسيّين منها، في تلك الأثناء، تمّ إخبار حسين أغا جورباجي قوله بتجهيزِ فرقةٍ عسكرية، فقام حسين أغا بتجهيز وحدةٍ عسكرية من عساكر الباشىٰ بوزوق، من مائتين إلىٰ ثلاثمائة شخص، وعيّن ابنَه علي أغا قائدًا عليها، وكان محمّد علي مساعدَ القائدِ في هذه الفرقة[٢]، وكانت قواتُ الطّليعة التي جُمعت تحتَ قيادة كوسه

(١) E.F. "Mehmed Ali Paşa", İleri Gazetesi yll 1919 say1 687 Keza Mo11riez, P.Ayn1 Eser I. 60.

(٢) ذكرت كافة كتب الببليوجرافيا، أن محمّد علي ذهب إلىٰ مصر بوظيفة مساعد القائد.

مصطفىٰ باشا، قد خرجت إلىٰ البرّ في أبي قير في يونيه ١٧٩٩م، وكان محمّد علي من بين هذه القوات العسكرية التي دخلت مصرَ، ضمنَ عساكر قوله، وإذ كانت بعضُ المصادر قد ذكرت أنّ محمّد علي دخلَ مصر مع قوّات قبطان باشا في مارس ١٨٠١م؛ إلّا أنّ هذه المصادر ليست قوية.

لكنْ لم يظهرْ هذا التاريخُ في معظم المصادر العثمانية، فقد ذكروا أنّه جاء مع قبطان باشا، أمّا الأبحاثُ المنشورة أخيرًا، فقد ذكرتْ أنّه دخلَ مصر عام ١٧٩٩م[١]، وانهزمت قواتُ كوسه مصطفىٰ باشا، التي دخلتْ مصرَ مع وحدات باشىٰ بوزوق قوله علىٰ يدِ نابليون، حتّىٰ أن قائدها المذكورَ سقط أسيرًا.

لذلك ليسَ لديْنا معلومات كثيرة عن السّنوات الأولىٰ التي قضاها محمّد علي -الذي جاء مصر للحصولِ علىٰ فرصة- في مصر، كما أنّ عاقبة علي أغا -قائد قوات باشي بوزوق قوله- مجهولة، هل عادَ إلىٰ قوله مرّة أخرىٰ؟ أو جُرح في الحرب، أو مات؟ لم نجدْ أيَّ وثيقة في هذا الشأن، كما أنه ليس معلومًا لدينا -أيضًا- كيف، ومتىٰ أصبح محمّد علي قائدًا علىٰ قوات الباشىٰ بوزوق؟ فمِن المُحتمل أنّه في نهاية النّجاحات التي حقّقها محمّد علي في حربه ضدّ الفرنسيين، أو بعد موت علي أغا، أو تركه مصر؛ أصبح قائدًا علىٰ عساكر قوله، كان محمّد علي

(١) Kramers, H.A. "Mısır maddesi," Osmanlılar Devri. İslâm Ans.

أثناءَ حربه مع الفرنسيّين، قد اطّلع -بنفسِه- علىٰ الاستعداداتِ الحربيّة بين القوّتين، ووجد فرصةً للمقارنة بينهما في الوقت نفسه، بعد ذلك دخل القوله لي بينَ قوّات قبطان البحر كوجوك حسين باشا، ووفقًا لما ذكرَه (موريس إم. باول) P.Mouriez و(فيلكس مانجان) F. Mengin أنّ محمّد علي شعرَ أنّه مِن أجل الاعتلاء يجب الانتسابُ إلىٰ القيادةِ العسكرية، فاتّخذ أحد الضبّاط الموجودين في معيّة القبطان باشا، يُدْعىٰ حسن أغا واسطة، وبهذه الصّورة تقرّب من القبطان باشا[1].

وفي الحقيقة، يتضح من سير الأحداث أن كوجوك حسين باشا كان يحمي محمّد علي جيدًا، سواء أثناء تواجده في مصرَ، أو بعد ذهابه، وهذا يُثبت ما قاله الكاتبان السابق ذكرهما، بخلافِ ذلك، كان محمّد علي قد بدأتْ شهرتُه تنتشرُ؛ عن طريق إظهار نفسه بين صنوفِ العَساكر، بمواقفِه وحركاته التي ظهرت منذُ البداية، ونجح محمّد علي -الذي لا يعرف القراءةَ أو الكتابة- بذكاءٍ وحنكة شيطانيةٍ، في جلبِ كافّة عساكر باشىٰ بوزوق الروم إيلي إلىٰ جانبه، علاوة علىٰ ذلك، كان سرچشمه محمّد علي قائدًا علىٰ عساكر باشىٰ بوزوق الروم إيلي، حتّىٰ نهاية عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م، وكانت شخصيّتُه هي التي تؤيّد ذلك، وذكرَ بعض الغربيّين، أنّ تعيينَ محمّد علي في وظيفة سرچشمه، كان

(١) Mouriez, P. Histoire de la Mehmed Ali I. p. 65 F. Engin. Histoire Sommaire del'Egypie s o ü s le Gouvermemem de M. Ali I. 98.

مِن طرف قبطان باشا الموجود في الإسكندرية، نتيجة نجاحاتِه وانتصاراته ضدّ أمراء المماليك[١]، لكنْ لا يوجد -إلىٰ الآن- في الأرشيف وثيقةٌ عن وظيفة سرچشمه لمحمد علي.

لكنْ ذكر جودت في «تاريخِه»، ومصطفىٰ نوري في «نتايج الوقوعات»، أنّ محمّد علي ترقىٰ إلىٰ وظيفةِ سرچشمه في وقتٍ قصير؛ بسبب ذكائه ونجاحاتِه من بين أقرانه.

لكنْ لم يذكروا تاريخًا قطعيًّا، أوْ معلومةً أكيدة في هذا الخصوص[٢]، وكما هو معروفٌ، أنّ وظيفةَ سرچشمه مهمّة؛ فهو المسئول عنْ رواتب عساكر الباشىٰ بوزوق، وتعييناتهم وخلافه، وفي الوقت نفسه، هو القائد الأعلىٰ لهذا النّوع من العساكر، وأشار صاحب «نتايج الوقوعات» في كتابِه عنْ هذه الوظيفة فقال: هي مقامٌ لرئيس كافّة عساكر الباشىٰ بوزوق[٣].

بعد أنْ تعيّن محمّد علي في وظيفةِ سرچشمه؛ بقي في مصر مع عساكر الباشىٰ بوزوق، التي بقيتْ من أجل تحقيق الأمن، بعد خروجِ القبطان باشا والصّدر الأعظم من مصر، واعتبارًا مِن هذه اللّحظة، أصبح محمّد علي مِن زعماء عساكر الروم إيلي بعد طاهر باشا.

---

(١) G. Hanotaux Hiscoire de la Nation Egyptienne VI. 16; Mouriez, Ayn1 Eser 1.66; Mengin. F. Ayn1 Eser I. 98.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 156; Mustafa Nuri, Netâyicü'I Vukuat, C. IV. sf. 84.

(٣) M. Nuri, Ayn1 Eser. Ayn1 Yer.

وكما هو معروف، في خلال عاميْن أو أكثر مِن مجيء محمّد علي إلىٰ مصر، أصبح يعرفُ الشّعبَ المصري والولايةَ والقواتِ العسكرية، أي: أصبح -بتعبيرٍ آخر- يعرف الوضعَ السّياسي لمصر حقّ المعرفة، ومِن بعدها سار خطواتٍ واضحةً نحو امتلاك السلطة السياسية في مصر، ويمكن القول: إنّ أوّلَ خطوةٍ في تحقيق هذا الهدف كانت وظيفة سرچشمه، ومع أنّ محمّد علي لم يكنْ موثوقًا منه في ذلك الوقت، إلّا أنّه تخابر مع المماليك، وكوّنَ علاقات معهم، ويتّضح هذا من الخطابِ الذي أخبرَ به خسْرو باشا، بأنّ طاهر باشا الأرناؤوطي أجرىٰ علاقات سريّةً مع زعماءِ المماليك[1]، ونكتفي بهذا القدر -حاليًا- من المعلومات عن السنوات الأولىٰ لمحمّد علي في مصر، ولنتحدّث الآنَ عن صراعه مع المماليك.

كما ذُكر سابقًا، أنّ خسْرو باشا -الذي دخل في حربٍ مع المماليك- قد عيّن محمد علي قائدًا علىٰ الفرقةِ العسكرية؛ التي نظّمها للتحرّك ضدّ تغلّبِ المماليك علىٰ مصر السّفلىٰ، وأرسله إلىٰ مصر السّفلىٰ، في تلك الحالةِ بعد تعيينه في وظيفة سرچشمه، كُلّفَ -فعليًّا- مِن طرف الوالي بالتّنْكيل بالمماليك، ويُرىٰ أنّ محمّد علي قد حقّق نجاحاتٍ في المهامّ المُكلّف بها، علاوة علىٰ ذلك، جاءَ في التّحرير المكْتوبِ مِن طرف خسْرو باشا، بتاريخ ٨ رجب ١٢١٧هـ/ ٤ نوفمبر ١٨٠٢م ما نصّه: «*لقد ذهب أمراءُ*

(١) BA, H.H.No: 3493.

المماليك إلىٰ ناحية الجبل من بهنساوية، ومهْما يكن من أمر، إذا كانت نيّتُهم الاقتراب من الإسكندرية، فالمأمولُ النجاح من نفسِه بالتّدابير التي اتّخذها محمّد علي سرچشمه المرسل من الفيوم»، *وقال أيضًا: لكنْ من المُحتمل أنّ بعض الأمراء لن يتدخّل بعساكره في الحرب، ويختار الانسحاب إلىٰ الصّحراء»*، وفي الوقت نفسه أشار خسْرو باشا إلىٰ أنّ محمّد علي بذل جهدًا ملحوظًا، وهذا التّحريرُ الذي صادفته في الأرشيف، هو أقدمُ وثيقةٍ تاريخية ذكرت اسمَ محمّد علي[١].

وبينما كان محمّد علي يحاربُ قسمًا من المماليك علىٰ هذا النحو، تقابل كتخدا خسْرو باشا يوسف أغا بالمماليك، تحتَ قيادة عثمان بك البرديسي في دمنهور، وانهزمت العساكر الموجودةُ تحت قيادة يوسف أغا في هذه المعركة التي وقعت، وكانت هذه العساكرُ في الأصل عساكر باشىٰ بوزوق وغيرَ نظامية، وعلىٰ أيّ حال، وكما ذكر F. Menglin وP. Mouriez أنّ هذه القوات البالغة سبعة آلاف، انهزمتْ من المماليك البالغ عددُهم ثمانمائة فقط[٢]، وحدثت هذه المعركةُ في ٢٣ نوفمبر ١٨٠٢م، ووفقًا لما أشار إليه الكاتبان -المذكورُ أسْمَاهُما-، أنّ سبب هزيمة يوسف أغا عدمُ مساعدة محمّد علي له، فاشتكاه إلىٰ خسْرو باشا، وعندما أراد خسرو باشا الانتقامَ منه، كان محمّد

(١) BA. H.H No; 3449/K.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 156; Mouriez, I. 93 ve devam1; Mengin, F.I. 22 vd.

علي قد اكتسبَ وضعًا جديدًا في شخصيّته، وأصبح منافسًا شديدًا له، واستمرّت هذه المنافسةُ والصّراع السّري بين الطرفين، حتّىٰ تسببت في عزل خسْرو باشا من الولاية، وأبعدته خارجَ مصر، وكان محمّد علي قد أدّىٰ دورًا فعّالًا من وراء السّتار، في التمرّد الذي حدث ضدّ خسْرو باشا[١].

ومِن جانبٍ آخر -وكما هو معروف- أنّ القوات الكبيرة للإنجليز قد رحلتْ من مصر، إلّا أنّ بعضَ القوّات ما زالت موجودةً في الإسكندرية، ووفقًا لشروط معاهدةِ صلح أميان (مارس ١٨٠٢م)؛ التي أنهتِ الحروبَ التي أوجدتِ احْتلالَ الفرنسيّين لمصر؛ كان يجبُ علىٰ الإنجليز الانسحابُ تمامًا من مصر، لكنّ حركاتِ الإنجليز البطيئة في هذا الخصوص، كانت تقلقُ العثمانيّين، كما أنّ الاختلافاتِ بين موظّفي الولاية الموجودين في الإسكندرية وبين الإنجليز، أصبحتْ واضحة، علىٰ سبيل المثال: حدثتْ منازعاتٌ عدّة بين الإنجليز الذين يريدونَ وضعَ عساكر (إنجليزيّة) في القلعة الموجودةِ في ميناء «كفرة»؛ الموجودِ في مضيق الإسكندرية؛ وبين أمراءِ الإدارة العثمانيّة الذين يرفضون ذلك[٢]، وكان خسْرو باشا قد وجّه كلّ جهوده نحو تخليصِ مصرَ من يد المماليك، وكان الأمراءُ هذه المرّةً قد بدأوا يقترحون بإصرارٍ علىٰ خسرو باشا ترْكَ منطقة الصّعيد لهم، وقد

(١) Yorga, Nikola, Osmanh Tarihi (çev. Bekir S1tk1 Baykal) Ankara C.V. sf.143.

(٢) Bu anlaşmazl1k için bkz. H.H. No: 3449/B 3449/C 3449/G.

أجرىٰ الجنرالُ ستوارت -قائدُ القوات الإنجليزية، الذي يدافع عن المماليك؛ واللّورد كافان- مباحثاتٍ مع الوالي خسْرو باشا؛ بخصوص إعادةِ المواقع القديمة للمماليك، حتّىٰ إنّه كان يضغطُ عليه في بعض الأحيان[1]، وكان الإنجليزُ يريدون أن يستقرّ هؤلاء المماليكُ في مكانٍ مُناسب؛ حتّىٰ وإنْ لم يفكّر الإنجليز بأنّ قوّاتِ الولاية في المستقبل القريب سوف تتغلّب علىٰ المماليك، وكان هذا هو أساسَ المُقترح الذي عرضوه علىٰ خسرو باشا، لكنْ عندما علمَ البابُ العالي بذلك انفعلَ، وأرسلَ فرمانًا إلىٰ خسرو باشا ذكر فيه ما نصّه: *«كان الهدفُ من تعيين والٍ علىٰ مصرَ، وإرسال عساكر تعملُ تحت إمرته؛ هو تحقيقُ نظام الأهالي وأمنهم، ولم يُكلِّف أحدًا بمناقشة المواد التي ستعرض بين الدول، ويجب الانتباهُ إلىٰ أنّ الهدف الحقيقي؛ هو إخراج أمراء المماليك من مصر، وإذا لم يطيعوا الأمرَ يتمّ تأديبهم بالحرب وإخراجهم، ولا تتوانَ في محاربتهم حتّىٰ يأتي أمر جديد في هذا الخصوص، ولتبذل جهدًا كبيرًا في تحقيق هذا الأمر»*[2]. وأمامَ هذا الوضع، أرسل ستوارت في أيلول ١٨٠٢م اللّورد بلانتير من مساعديه إلىٰ إستانبول، ولمّا لم يحقّق نتيجة إيجابية في هذا الأمرِ، ذهبَ بنفسه إلىٰ البابِ العالي (عاصمة العثمانيّين)، وحاول

(١) Cevdet, Tarih VII. 162.

(٢) H.H. No-, 3449/L.

أن يطلب السماح لأمراء المماليك؛ في العيْش في المناطق التي حكموها وأداروها، حتّىٰ ذلك الوقت كأشخاصٍ لهم خصوصيّة، لكنْ لم ينجح ستوارت -أيضًا- في محاولته تلك[١].

في تلك الأثناء، كان نابليون يتابعُ مدىٰ تطبيقِ إنجلترا موادّ معاهدة صلح أميان بشأن مصر، فأرسل أحدَ رجاله المدعو سبستياني بمأمورية خاصّة إلىٰ إستانبول؛ لمعرفة سياسة الدولة العثمانية، وليطلب من الإنجليز إخلاءَ الإسكندرية، فمرّ سبستياني علىٰ مصر، وبعد أن التقىٰ بخسْرو باشا، ذهبَ إلىٰ إستانبول، ولم تكنْ المحاولاتُ -سواء من قِبَل الباب العالي، أو سبستياني- إيجابية لدىٰ سفير الإنجليز بخصوص إخلائهم للإسكندرية، وذكرَ سبستياني في تقريره الذي كتبه بعد عودتِه إلىٰ فرنسا: أنّ الإنجليز يرغبونَ في البقاء في مصر، والشّعب المصري يريد عودة الفرنسيّين، بعد معاناتِه من الصّراع بين العثمانيّين والمماليك، والوضع الداخلي في مصر مهيّأ لاحتلالٍ جديد، ويمكن احتلالُ مصر من جديدٍ بحركةٍ عسكرية[٢]، وفي هذه الحالة لم يقترب العثمانيّون من موضوع العفْو عنِ المماليك وإسكانهم؛ بناءً علىٰ رغبة الإنجليز، وبعد أوّلِ محاولة من انْسحابِ الإنجليز من

(١) بخصوص ملاقاة ستيوارت (ورد اسمه في الوثائق ستوارد)، ورئيس أفندي؛ انظر: H.H. No: 3456; Yorga, Osmanl1 Tarihi C.V. 142-143.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 180; Mouriez, F,I. 97.

الإسكندرية، أرسلَ البابُ العالي صدقي أفندي من معلّمي الباب العالي، بمهمّةٍ خاصّة إلىٰ لوندرة (لندن)[١].

وقبلَ فترةٍ من ذلك، عُزل دفتردارُ مصر محمّد شريف أفندي، في بداية جمادىٰ الآخرة/ أكتوبر ١٨٠١م؛ بسبب استقالتِه، وعُيّن مكانه الدّفتردار السّابق الذي كان موجودًا في مصر؛ محمد رجائي أفندي، في تلك الأثناء، عيّن محمد شريف أفندي برتبة الوزارة، وأُرسل إلىٰ ولاية جدّة؛ بسببِ زيادة تحرّكات مؤيّدي المذهب الوهّابي الجديد؛ الذي ظهرَ في منطقة نجد والحجاز[٢]، وجاء اسمُه في الأمر المُرسَل إلىٰ خسْرو باشا في نوفمبر ١٨٠٢م، يطلب منه مساعدةً عسكرية، لكنّ المساعدة من مصر كانت غيرَ مُمكنة في ذلك الوقت[٣].

بالإضافةِ إلىٰ ذلك، كان التدبيرُ الجديدُ -الذي استخدمه الباب العالي في ذلك الوقت- غريبًا جدًّا؛ حيث جاء في الأمرِ المُرسَل إلىٰ قاضي سواحل مصر، وإلىٰ محافظيها، بتاريخ أواسط رجب ١٢١٧هـ/ ٢٧ نوفمبر ١٨٠٢م: *«إنَّ إدخالَ عساكر وأشخاص أجنبيّة إلىٰ مصرَ بمُقتضىٰ الوقتِ والحال سيؤدّي إلىٰ الفساد، وإلىٰ*

---

(١) بخصوص العريضة الخاصة بمقابلة صدقي أفندي، انظر:

H.H. No: 3474/A-l.Keza H.H. No: 3474/A-l.

(٢) Cevdet, Tarih, VII. 167; Vas1f, Tarih (yazma) Ali Emiri Ktb. Tarih Kitaplar1bl, T,Y. 609, sf. 36

(٣) M. M1s1r, No: 10, sf. 148. daha geç tarihli bir vesika Ali Emiri Tsf. Selim 111.devri defterleri. No: 22662.

الاضْطراب في الولاية، لذلك مِن الآن فصاعدًا، يجب ألّا يدخلَ أحدٌ قطّ إلىٰ مصر من الأرناؤوط والعساكر الأخرىٰ دونَ مأمورية، وأنّ هذا الأمر جديٌّ جدًّا، ولا يُسمح بإغفاله»[1]، وهذا الفرمان يشبِهُ الفرمانات الأخرىٰ التي تمنع إدخالَ العبيد إلىٰ مصر، وفي هذه الحالة، رأتِ الدّولةُ أنّ الأرناؤوط في هذا الوقت يشكّلون خطرًا -دونَ النّظر إلىٰ استقرار مصر-، واقتنعتْ بأنّ زيادةَ أعدادهم ليس مناسبًا، لذلك اتّخذت تدابيرَ حيالَ هذا الأمر.

ومِن جانبٍ آخر، كانت حروبُ محمّد علي ويوسف أغا مستمرّةً مع المماليك في مصر السّفلىٰ، واستمرّت حتّىٰ مارس ١٨٠٣م، وهناك عدّةُ وثائق تحدّثت بالتفصيل عن النجاحات التي حقّقتها القواتُ المذكورة تجاه المماليك في أماكنَ عدّة، لكنّ مساعداتِ الإنجليز الموجودين في الإسكندرية، وحمايتَهم للمماليك حالتْ دونَ القضاء عليهم[2]، وفي الوقت نفسه، صعَّبت موقفَ خسرو باشا، وقد طلب الجنرال ستوارت تكتيكاتٍ جديدةً؛ بهدف تحقيق المصلحة، وحاول جذبَ أهالي مصرَ والبدو لطرفِ المماليك، لكنّ أهالي مصر كانوا يكرهونَ المماليك، وعبّروا عن هذا الكُره بمحاضرَ أرسلوها إلىٰ العاصمة، لكنّ بعضَ العربان

---

(١) جاء في دفتر مهمّة مصر رقم ١٠، ص١٥٠: لقد كان فرماني إليك بالحذر، ومنع أيّ فردٍ من الأرناؤوط، أو جميع أصناف العساكر الذّهاب إلىٰ جانب مصر بلا مأمورية، ويجب عدم تجاهل هذا الأمر، أو التسامح بشأنه.

(٢) تتحدّث هذه الخطوط الهمايونية أيضًا عن هذا الموضوع:
H.H. No: 3504, 3454/A.3483, 3474/U, 3474/B-l, 3540.

البدو -الذين انخدعوا بالمال- انحازوا إلىٰ طرفِ المماليك[1]، بخلاف ذلك، تباحثَ ستوارت مع خسْرو باشا من جديد؛ بشأن العفوِ عن المماليك وإسكانِهم، وأرسل رسائلَ له، كما أجرىٰ السّفير الإنجليزي الموجودُ في إستانبول اللّورد إلجين فعالياتٍ في هذا الجانب، وكان البابُ العالي قد أدرك أنّه لن يحدث استقرارٌ في الولاية؛ مادام الإنجليز موجودينَ في الإسكندرية، وأنّ رفض مطالبهم بشدّة دونَ العفو عنِ المماليك لن يُحدِثَ نظامًا في الولاية، علاوةً علىٰ ذلك، جاء في الرّسالة المرسلة من خسْرو باشا بتاريخ ١٩ محرم ١٢١٧هـ/ ١٣ يناير ١٨٠٣م: *أنّه فهِمَ أنْ مادام الإنجليز موجودين في الإسكندرية، فضلًا عن إصرارهم بشأن المماليك؛ فإنّ مصلحة أمراء المماليك لن تتم علىٰ الوجه المطلوب*[2]. ولوْ صرفَ البابُ العالي -الذي يتابع عن قربٍ كلَّ هذه المحاولات- النظرَ عن أهدافه الحالية بمقتضىٰ طبيعةِ الوضع آنذاك؛ كان من شأنه أن يقرّر العفوَ عن المماليك، والسّماح لهم بالإقامة في مصرَ، كما يريد الإنجليزُ بالضّبط.

وأخبرَ البابُ العالي خسْرو باشا بهذا القرار، وأوْضحَ له الأعمال التي سيقوم بها، وكان يريدُ أنْ يظهر أنّ هذا العفو

(١) كان عربان هنادي، وجهينة، وفوايد، تنحاز للمماليك، وعربان عوائد عالي، تنحاز لخسرو باشا. انظر:

H.H. S. No: 3619, H.H. No: 3454/A.

(٢) H.H. No: 3540.

سيصدرُ بهمّة الوالي وشفاعته، وكان خسْرو باشا قد أخبر السفيرَ في الخطاب الذي أرسله، بأنّه قد التقىٰ بالجنرال ستوارت؛ من أجل تنظيم أمر الأمراء، وأنّه سيُسْكنهم في المنطقة التي يريدونَها في مصرَ، بالشّكل الذي لا يُحدث ضررًا بالأمراء؛ مِن أجل عدم إغضاب الإنجليز، وفقًا للأمْرِ المُرسل إليهم، وكان الأمراءُ قبلَ ذلك موافقين علىٰ العيش في نواحي إسنا وأسوان، ومِن هذه الناحية كانوا يقولون في أسوان -التي هي في مصر العليا-: إنّهم سيرضون بالاستقرارِ في إسنا إذا أصرّوا[1]، وجاء في رسالة أخرىٰ بالتّاريخ نفسه: أنّ خسْرو باشا استندَ إلىٰ استقرار المماليك في أسوان بهذه الشّروط: «*الضّابط المُعيّن من طرفِ الوالي في المنطقة، معيّن صوباشي بألقاب وخلافه، ولن يتمّ التعرّض أصلًا إلىٰ المناطق بخلاف أسوان، وأنّه لن يتمّ التعرّضُ لهم، إذا أطاعوا أوامرَ الدّولة العلية مثل السابق كرعايا للدّولة، وصرفوا النّظرَ عن اللّجوء إلىٰ الإنجليز*»[2].

وهكذا، بعدَ البدء في تثبيتِ وتطبيق الأسسِ الخاصّة بالعفو عن المماليك، وافق الإنجليز علىٰ ترْكِ الإسكندرية، وفي فبراير ١٨٠٣م، انسحبوا من الإسكندرية وذهبوا، وكان مِن ضمن أسبابِ

(١) H.H. No: 6845.

(٢) H.H. No; 3525.

الخلاف بين الإنجليز وفرنسا، هو تأجيلُ خروجِهم من الإسكندرية[١]، ومع هذا لم يتخل الإنجليزُ أبدًا عنْ أهدافهم بشأن مصر والمماليك، علاوة علىٰ ذلك، فقد أخذ الإنجليزُ محمّد بك الألفي من زعماءِ المماليك، وخمسةَ عشر أميرًا آخر؛ إلىٰ إنجلترا من أجل التباحث حولَ إعادة نفوذِ المماليك في مصر، وهذا خيرُ دليلٍ علىٰ نيّة الإنجليز الواضحة تجاه مصر[٢].

لم يكتفِ البابُ العالي بالعفْو عن المماليك فقط مِن أجل نشر الهدوء في مصر؛ بل خصّص رواتبَ سنوية لهم في الوقت نفسه[٣]، وهكذا، بينما كان قد انتهىٰ التدخلُ الأجنبي برحيلِ الإنجليز من الإسكندرية مِن جانب، كانت قد انتهتِ الحروبُ التي وقعتْ في الولاية حتّىٰ ذلك الوقت، بالعفْو عن المماليك وإسْكانِهم من جانبٍ آخر، حتّىٰ إنّه كان هناك أملٌ في تحقيق الاستقرارِ والأمن في ولاية مصر؛ لأنّ الحروب التي وقعت مع الفرنسيّين من قبل منذ عام ١٧٩٨م، استمرّت بعد ذلك مع المماليك، هل سيتحقّق الاستقرارُ المطلوب في الولاية؟ مع الأسف، منعتْ عساكر الباشىٰ بوزوق ومِن خلفهم محمّد علي؛ هذا الاستقرارَ المنشود.

---

(١) Cevdet, Tarih VII. 178; Hanotaux, H. de ia Net. Egyptienne, VI. p. 12.

(٢) Rauf Ahmel, Rag1p Raif, Bâb1âli Hariciye Nezareti M1s1r Me.selesi, İstanbul 1334, sf. 4/2.

(٣) H.H. No; 6537/C Beylere tahsis edilen maaşlar hk.

وكانت القواتُ التي أُرسلت إلىٰ مصر السّفلىٰ والعليا حتّىٰ ذلك الوقت؛ للتنكيل بأمراء المماليك؛ قدْ بدأت في العودةِ إلىٰ مركز القاهرة بالتّدريج؛ بسبب أنّه لم يبقَ لها عملٌ في هذه الأماكن المذكورة؛ لأنّ هذه القوات كانت رسميًّا تحت إمْرَة الباشا الوالي، لكنْ فعليًّا القائدُ الأصلي لها هو طاهر باشا الأرناؤوطي، ومع أنّ طاهر باشا جسورٌ وشجاع وعسكريّ جيّد، إلّا أنّه كان طيّبًا، ويميلُ إلىٰ المتصوّفة والمجاذيب، وفي الوقت نفسه، كان لا يملك شخصيةً قوية، وكان هذا يصب في مصلحةِ سرچشمه محمد علي، وبسبب أنّ كلام محمّد علي وحركاته كانت إيجابيةً مع الوالي، كانَ طاهر باشا يثق ثقةً عمياء في محمد علي، وكان محمّد علي -الذي يرىٰ أنّ الوضع الداخلي في مصر ملائمٌ لعمل عدّة أشياء- قد خلق لنفسه مركزًا عاليًا، وكان ينتظر الفرصة المناسبة، ويقيّم الأحداثَ جيدًا، ولديه صبرٌ كبير، وأملٌ في الحصول علىٰ ولاية مصر.

كان محمّد علي ضابطًا شجاعًا، وجسورًا، ومحنّكًا، ومعتدلًا، ومقتدرًا، ووفقًا لما ذكره جودت باشا: كان مترصّدًا ومترقّبًا لمجيء وقتٍ مناسب؛ ليستخدم فيه مهارته[1]، بالإضافة إلىٰ ذلك، كانت بدايةُ التّدابير والإجراءات التي اتّخذها لزعزعة سلطة خسرو باشا؛ فتحَ الطريق لعصيان العساكر ضدّ الباشا. ويمكن متابعة هذه الأحداث وتطوّرها في النقاط التالية:

(١) Cevdet, Tarih VII, 215.

الخلافاتُ بين قوّات الباشى بوزوق، والوالي خسرو باشا

كان وجود عددٍ كبيرٍ من العساكر في مصرَ مرتبطًا -عن قرب- بمشكلة المماليك. لكن بعدَ العفو عن المماليك وإسكانِهم، لم تعدْ هناك حاجةٌ إلىٰ العساكر الكثيرة، خاصّة عساكر الباشىٰ بوزوق، بالإضافة إلىٰ ذلك، كانت رواتبُ هذه العساكر ومصروفاتها كثيرة جدًّا، وخزينةُ مصر كذلك غيرُ قادرة علىٰ دفعها، وكان خسْرو باشا يرىٰ الوضعَ جيدًا، ويعرفه، وقد أشار إلىٰ ذلك في الخطابِ الذي أرسله إلىٰ مركز الدّولة، بتاريخ ١٩ رمضان ١٢١٧هـ/ ١٣ يناير ١٨٠٣م: «*بسبب عدمِ انتظام هذه العساكر، وكثرةِ مصروفاتها، وتعلّقِهم بمصر؛ بسببِ معرفتهم أنّه لا بدّ من تواجد عساكر في الوقت الحالي في كلّ مكان؛ من أجل تتبّع بعض الخونة، وطائفة العربان بعساكر الدولة؛ فإنّه عند إخراج الأمراء من مصر، فإنّ أغلبَ العساكر سوف يخرجون معهم*»[1].

(١) H.H. No: 3592.

ونرىٰ أنّ هذه الإشارة قد جاءتْ في وقتها المناسب، وقد أوْصىٰ الدّفتردار خليل رجائي الوالي؛ بتخفيض عددِ هذه العساكر غير اللازمة؛ بسبب ثقلِ رواتبها، وحاجةِ الدولة إلىٰ هذه الأموال، وكان خسرو باشا يثقُ في العساكر الحديثة (مُعلّم عسكر)؛ التي شكّلها منذُ مجيئه إلىٰ القاهرة ضدّ عساكر الباشىٰ بوزوق.

وفي النّهاية، وبناءً علىٰ تقليل المصروفات، قرّر (خسْرو باشا) إبعادَ عساكر الباشىٰ بوزوق عنْ مصر، بعدَ دفع علوفاتهم القديمة، لكنْ لم تكن هناك أموالٌ كافية في خزينة مصرَ تكفي رواتبهم، فقام بالاستقراضِ من بعض التجّار الأغنياء، ودفع جزءًا من رواتبهم القديمة، وقطع رواتبهم بهدف إبعادهم عن مصر[1]. لكنَّ هذه الحركة لم تكن جيدة تجاه عساكر الباشىٰ بوزوق، -جاء ذكْرُ الباشىٰ بوزوق في كثيرٍ من الوثائق باسم الأرناؤوط؛ لأنّ معظمَهم في الأساس من الأرناؤوط-، فأعلنوا أنّهم لن يخرجوا من مصر، ولنْ يذهبوا إلىٰ أيّ مكانٍ قبل أخذِ رواتبهم عن الشّهور الماضية، وفي اليوم الأوّل من شهر محرم ١٢١٨هـ/ ٢٣ إبريل ١٨٠٣م، ذهبوا إلىٰ منزل الدّفتردار خليل رجائي، وكانتْ هناك رائحةُ تحريض في تحركهم هذا، فأخبرهم خليل رجائي في ردِّه عليهم: أنّ رواتبهم عند سرچشمه محمّد علي، ويجب أن تذهبوا إليه، فذهب الباشىٰ بوزوق -الذين أغلبهم أرناؤوط- إلىٰ

(١) Cevdet, Tarih VII. 216-217; Vas1f, Tarih (yazma) sf. 125-126; Mo11riez, P.Ad1 Gecen Eser I. p. Iü2-vd.

سرچشمه محمد علي، وعندما طالبوه برواتبهم عن الشّهور السابقة، قال لهم: إنّه لم يأخذ أقجة من الخزينة، وحاول إقناعَهم وتهدئتهم في هذا الجانب، بناءً عليه، قام الباشىٰ بوزوق بالهجومِ علىٰ الدّفتردار خليل رجائي، وحدثت معركة بينهم وبينَ قوّاتَ الولاية، ممّا أذعرَ الأهالي مِن هذا الوضع، ومِن جانبٍ آخر، كان الأهالي المتضرّرون من الصّدام بين القوات العسكرية؛ لديْهم حقّ في الخوف والذّعر من وقوع حرب جديدة، وفي النهاية، وُعِدوا بدفع رواتبهم القديمة في خلال أسبوع، وانتهت المعركة، وقُضيَ علىٰ الصّراع، وقبلَ عشرين يومًا من هذه الواقعة، كان الباشىٰ بوزوق يتحرّكون بهذا الشكل، وكانوا يذهبون إذا ما أخذوا قليلًا من المال[1].

وبعدَ أسبوع -أي: في ٧ محرم ١٢١٨هـ/ ٢٩ إبريل ١٨٠٣م- ذهبت عساكر الباشىٰ بوزوق إلىٰ منزل الدّفتردار من جديد، وطلبوا رواتبَهم التي وعَدَهم بها، فذكر لهم أنّه جمع ستّينَ ألف قرشٍ فخُذُوها، وفي خلال عدّة أيام سيتمّ توفير باقي رواتبكم. لكنْ رفض الباشىٰ بوزوق ذلك، وقالوا: «غيرُ ممكنٍ تأخير العلوفة بعد، يجبُ حلّها اليوم»، فأُسقط في يد الدّفتردار. وإذا كان خليل رجائي أفندي قد طلب مقدارًا من الأقجة من الوالي، إلّا أنّ خسْرو باشا -الذي من الواضح أنه لم يُدرك بعدُ جديّةَ الوضع- أرسلَ إليه قائلًا: «لا أعطيهم أقجة واحدة، وليس

(١) Cevdet, Tarih Vll. 216-217; H.H, No: 3541.

لديّ صلاحية في إعطائهم شيئًا، وإمّا أن يذهبوا من هذه البلدة، أو أقتلُهم جميعًا». وأطلقَ مدفعًا علىٰ مقرّ الدفتردار؛ من أجلِ تفريق الباشىٰ بوزوق. وهذا التصرّفُ كان هو الشّرارةَ التي أشعلت الحرب، فقام الأرناؤوط بالتوجّه إلىٰ الوالي، وأعلنوا العصيان والتمرّد، وعندما أطلق خسْرو باشا النارَ علىٰ مقرّ الدفتردار، أمرَ أهالي القاهرة بالتسلّح والوقوفِ بجانبه.

وكان أهالي القاهرة الذين يَخافون من وقوع الضّرر عليهم من الأرناؤوط في المعارك- المُحتمل وقوعُها- قد تسلّحوا في الأساس؛ من أجل الحفاظِ علىٰ أنفسهم، ومن جانب آخر، ذهب قائدُ الينكچرية وزعماءُ الأوجاق إلىٰ مقرّ خسْرو باشا، وأخبروه بضرورة الحفاظ علىٰ القلعةِ قبل كلّ شيء، عند حدوثِ عصيان كهذا، وطلبوا منه تركَ مقدار من الينكچرية داخل القلعة، لكنّ خسْرو باشا -الذي كان يثقُ كثيرًا بنفسه، وبعساكره الجديدة التي أنشأها- لم يهتمّ بطلبهم هذا، وأخبرهم بأنّه يحافظ عليها من طرف خازندار القلعة، وقال: أنتم تريدون تفريقَ عساكري، اذهبوا وأمُرُوا الأهالي ليتسلّحوا، وأحضروهم إلىٰ هنا، وتحرّكوا بناءً علىٰ أمري، وأبعدهم من جانبه، وارتكب خسْرو باشا خطأً جسيمًا؛ لعدمِ اهتمامه بهذا التّنبيه وهذه التّوصية؛ لأنّه مهما يكن من وجود خازندار القلعة، أو بعض عساكر الينكچرية، إلّا أنّه كان يوجد في القلعة كثير من الأرناؤوط، وعندَ حدوث عصيانٍ،

كان من غير المعلوم التصرّف الذي سوف يتّبعونه، وعدمُ احتراز الوالي من مثلِ هذه الأشياء قد كلّفه كثيرًا.

في تلك الأثناء، ذهب طاهر باشا الأرناؤوطي إلىٰ الوالي، إلّا أنّ خسرو باشا مثلما لم يقْبَله عنده، أبعدَه من جانبه قائلًا: اذهب واجلسْ في بيتك، ولا تتدخّل في هذا الأمر، وهذا التصرّفُ جعل طاهر باشا ينضمّ إلىٰ الباشىٰ بوزوق، ممّا سَرَّع من وتيرة التمرد والعصيان[1].

أمرَ خسْرو باشا عساكرَه الجديدة (المُعلّمة) في ٨ محرم ١٢١٨هـ/ ٣٠ إبريل ١٨٠٣م، بالهجومِ علىٰ الباشىٰ بوزوق الأرناؤوط المجتمعين بجوار بيت الدفتردار، وفي منطقة الأزبكية، ونجحت عساكرُ خسرو باشا في البداية. لكنْ في تلك الأثناء، نجح الأرناؤوط في القبضِ علىٰ الدّفتردار، ونقْلِ الأوراق والدفاتر إلىٰ منزل طاهر باشا، لكنّ قوات خسْرو باشا التي ظنّت أنّها انتصرتْ في اللحظات الأولىٰ، عندما ذهبتْ إلىٰ منزل الدّفتردار انشغلت بالسّلبِ والنّهب، وكان عاقبةُ ذلك فقدانهم النظام والسّيطرة، وعندما نظر خسْرو باشا إلىٰ المنظرِ الخارجي، عرف أنّ عساكره التي يثقُ فيها، لم تكنْ قويّة كما يظنّ في الحقيقة.

وبينما كانت المعاركُ مستمرّةً بين قوات خسْرو باشا وبين الأرناؤوط؛ كان طاهر باشا يتحرّك للاستيلاء علىٰ القلعة، وصعد

(١) Cevdet, Tarih VII. 217.

طاهر باشا بقسمٍ من الأرناؤوط الموجودين معه إلىٰ القلعة، وبواسطة الأرناؤوط الموجودين داخل القلعة والخزينه دار (مسئول الخزينة)، فُتحت أبواب القلعة، وبهذا يكونون قد استولوا علىٰ أهمّ موقعٍ عسكريّ في القاهرة، وكما أنّهم أرسلوا مساعدةً من القلعة إلىٰ جماعتهم؛ الذين يحاربون في الأزبكية؛ بدءوا يطلقونَ المدافعَ علىٰ منزل خسرو باشا[١].

وعندما سقطتِ القلعةُ في يد الأرناؤوط، وانهزمت العساكرُ عند منزل الدّفتردار؛ أدرك الوالي خسْرو باشا أنّه في موقفٍ صعب، وكان طاهر باشا يُرىٰ علىٰ أنّه هو مدبّر هذا العصيان، وحاول خسْرو باشا محاولةً جديدة؛ من أجل الحفاظ علىٰ موقعه، فأرسل بعضَ العلماء وزعماء الأوجاقات إلىٰ طاهر باشا، وأخبرهم أنّه سيدفع لهم علوفاتهم، لكنّ طاهر باشا لم يوافقْ علىٰ هذا الاقتراح، وقال: ليسَ بيدي شيء، فلترسل الدولة لي أمرًا بالوقوف بجانب والي مصر[٢]، وممّا لا شكّ فيه، كان مجيء أمرٍ كهذا مستحيلًا، ويفهم من الوثائق أنه قد جاء فرمانٌ بخصوص والي مصر، وأرسلَ خسْرو باشا أوامر إلىٰ أماكنَ مختلفةٍ، ونشر الشّائعات، لكنْ البروباجندا كانت ضدّه[٣].

---

(١) هناك وثائق تذكر أنّ طاهر باشا استولىٰ علىٰ القلعة عن طريق الحيلة، أو أخذها بصعوبة، وتذكر كذلك أنّ الخزينه دار قام بخيانة خسرو باشا. H.H. No: 1988/A, كذا انظر: Cevdet, Tarih VII. 218

(٢) H.H.No: 3509/E Keza H.H. No: 1988/A.

(٣) H.H. No; 3541.

بعد أنِ استولىٰ الأرناؤوط علىٰ القلعة، حاصروا بيتَ الوالي، وبدءوا يحاربون خسرو باشا نفسه، وفىٰ ذلك الوقت كان طاهر باشا يعطي الأمن والأمان للناس، وكما ذكرتُ سابقًا، أنّه منذ بدايةِ العصيان، كان الشّعبُ في حالة خوفٍ من وقوع ضررٍ عليهم من الباشىٰ بوزوق، فطمأنَ طاهر باشا الشعبَ بأنّه لن يلحق ضررٌ بهم، وفي الحقيقة لم يلحق الشّعبَ أيُّ ضررٍ من الباشىٰ بوزوق والأرناؤوط؛ فترةَ العصيان ضدّ خسْرو باشا، ووفقًا لما ذكره جودت باشا، أنّ الباشىٰ بوزوق لم يلحقوا ضررًا بالشّعب، ولم ينهبوا أموالهم، فبدأ الشعبُ يطمئنّ ويثقُ في هذه العساكر الوحشية، عندما رأوا منهم هذه المعاملةَ العادلة، وكان الباشىٰ بوزوق يقولون للأهالي: ليس هناك خلافٌ بيننا، أنتم رعايا وليسَ لنا علاقة معكم، وأمامَ مواقف الباشىٰ بوزوق العادلة هذه، هدأ روْعُ شعب القاهرةِ الذي لم يكنْ راضيًا عن خسْرو باشا، وهكذا نجحوا في جعلِ كثيرٍ -أو قليل- من الشعب يقفُ علىٰ الحياد، وبينما كان طاهر باشا يحاول تسكينَ روْع الأهالي من جانب، كان يزور مقابرَ الأولياء، ويستمدّ منهم المساعدة، كما هي عادته من جانبٍ آخر.

وفي ١ محرم ١٢١٨هـ/ ١ مايو ١٨٠٣م، كان الأرناؤوط قدْ سيْطروا علىٰ نواحي القاهرة، واستولوا علىٰ إمبابة والقصر العيني، وعندما تحكّموا في نواحي القاهرة، شدّدوا في الاشتباكات الواقعةِ بجوار بيت الوالي، وكان خسرو باشا محاصَرًا من كلّ

جانب، وعندما أطلقوا النارَ علىٰ بيته في ذلك الوقت، فهِمَ خسرو باشا أنّه لن يتحمّل كثيرًا، وفي ١١ محرم ١٢١٨هـ/ ٣ مايو ١٨٠٣م، فرّ خسرو باشا معَ بعض خدمه وأهلِ بيته إلىٰ دمياط، وعندما سمعوا بفرار الباشا نهبوا بيتَه، وفي الحريق الذي ظهرَ احترقت كثيرٌ من الأبنية والقصور، وأُرسلت كتيبةٌ من الباشىٰ بوزوق في تعقّب خسرو باشا، لكنْ تمكّن خسْرو باشا من هزيمةِ هذه الكتيبة؛ بالرّجال والعساكر التي أخذها معه عند خروجه من القاهرة، ونجحَ في الهروب إلىٰ بنها[1].

وهكذا كان تمرّدُ الباشىٰ بوزوق الذي بدأ في محرم ١٢١٨هـ/ ٢٣ إبريل ١٨٠٣م، قد أنْهىٰ ولاية خسْرو باشا في خلال عشرة أيام، وقد بدأ هذا التمرّدُ بالاختلاف حول العلوفة، ثمّ تطوّرت الأحداث وأصبح عصيانًا، أمّا الحقيقة فالمحرّك والمحرّض لحركة العصيان هذه -وبتعبيرٍ آخر: الذي أشعلَ هذا الحريق- ليس أحدًا سوىٰ سرچشمه محمد علي، وكانت عساكر الباشىٰ بوزوق والأرناؤوط هي الداعمَ الوحيد له، الذي يثقُ فيه؛ من أجل تحقيق آماله في الحصولِ علىٰ مركز كبير في مصر، وكان طلبُ خسْرو باشا إبعاد هذه القوات عن مصر، لم تصبّ في مصلحة محمد علي قطّ؛ لأنّه لا يمكن أن يحقّق آماله دونَ هذه العساكر، فلم يجد محمّد علي صعوبةً في تحريض هذه العساكر - التي تعبت في المعارك مع المماليك، ولم تأخذ علوفاتها بانتظام،

(١) H.H. No; 3541; H.H. No: 3509 keza Cevdet, Tarih C. VII. sİ', 218-219.

وتشعر بالضيق- ضدّ الوالي والدفتردار، بقي أنْ نقول: إنّ محمّد علي كان قائدَ هذه العساكر التي تكن له الحبَّ والتقدير، وكان طاهر باشا أيضًا يحترمه.

(J.C.B. Richmond, EGYPT 1798-1952, Colombia University Press, New York 1977, s. 148)

وفي العصيان، وجّه محمّد علي طاهر باشا، وأمرَه بتنفيذِ ما يريده، لكن لم يكنْ لدىٰ طاهر باشا علمٌ بمكائد محمّد علي، وحساباتِه الدقيقة قط، لنقلْ: إنّ منظّم هذا العصيان هو محمّد علي، أمّا المنفّذ فهو طاهر باشا، وذكر خسْرو باشا في خطابه عنْ طاهر باشا: *«فهو يعتمدُ علىٰ كلّ ما يُقال، ولا يعرف ما مصلحةُ الدّولة أو ضررها»*[1]. ومِن الصّعب التثبّتُ من حقيقة أخْذ أو عدمِ أخْذ محمّد علي العلوفات؛ التي ادّعىٰ الدّفتردار أفندي أنّها موجودة لديه، وأخبر عساكر الباشىٰ بوزوق بذلك، ربّما ذكر رجائي أفندي ذلك؛ من أجل إبعادِ العساكر عنه، وتوجيهها إلىٰ محمّد علي؛ من أجل خداعهم وكسبِ مزيدٍ من الوقت.

ومِن جانبٍ آخر، فإنّ أوضحَ ميْزة يمكن أن تُرىٰ في هذا العصيان، هي انقياد الوالي خسْرو باشا ومؤيّديه لهذا العصيان، وكان الهدفُ الحقيقيّ لمحمد علي، وسببُ هذا العصيان الأساسي؛ هو إبعادَ خسْرو باشا عن ولاية مصر، وفي هذا العصيان وقف الينكچرية الذين بينهم وبين خسْرو باشا عداء؛ وقفوا علىٰ الحياد، ولم يتدخّلوا في أيّ شيء علىٰ الإطلاق.

وهناك شيءٌ آخر لفتَ الانتباهَ أثناءَ هذا العصيان، هو الدقّةُ والحرص الكبير في منع حدوثِ أيّ ضررٍ أو أذًى للأهالي، فكان محمّد علي يريد أن يبعد الأهالي عن الباشىٰ بوزوق، حتّىٰ إنّه

(١) H.H. No: 3493.

كان يرىٰ أنّهم من الممكن أن يشكّلوا جبهةً ضدّ هؤلاء؛ لذلك كان يعرف محمّد علي أنّ الأهالي غيرُ راضين عنِ الوالي خسْرو باشا، فأراد أنْ يأخذهم في صفّ الباشىٰ بوزوق؛ عن طريق التحرّك بعدلٍ تجاههم، وبعد صدورِ قرار الأمان، تقرّب الناسُ من الباشىٰ بوزوق، وهكذا كان وقوفُ الأهالي علىٰ الحياد، وميلُهم إلىٰ الباشىٰ بوزوق، سيحقّق فائدةً كبيرة في المستقبل، وذكرَ جودت باشا الذي فهمَ الدّورَ الذي لعبه محمّد علي في هذا العصيان، فقال بعد أنْ أشار إلىٰ موقف طاهر باشا: كان محمّد علي يمسك بطرفِ الخيط، وهو دائمًا مَن يدير هذه المُناورات. وكان ثابتًا في مكانِه، يراعي الموقف جيدًا، حتّىٰ إنّ الأهالي الذين رجعوا إليه، أرسل معَهم رجالَه ليطمئنوهم، ونجح في جذب قلوبِ النّاس إليه[1]، وكان عدمُ إلحاق الضرر بالأهالي، وموقفُ الباشىٰ بوزوق المنظّم في هذا العصيان؛ كان له تأثيرٌ كبير علىٰ الأهالي تجاه محمّد علي.

وفي النهاية، إنْ لم يكن خسْرو باشا رسميًّا هو الوالي، إلّا أنّه ابتعد -مُجبرًا- فعليًّا عنْ مقام الولاية، وسيطرَ طاهر باشا علىٰ الوضع، لكنّه لم يكنْ يعلم أنّ هذه الأحداث، وهذا العصيانَ كان مِن ترتيب محمد علي، وجاء في أولىٰ التّحريرات المرسلة بتاريخ ١٩ محرم ١٢١٨/ ١١ مايو ١٨٠٣م، بعدَ خروج خسْرو باشا من القاهرة، والتي تتحدّث عن هذه الوقائع: «*بعض الأعمال التي قامَ*

(١) Cevdet. Tarih VII. 219.

بها الدّفتردار رجائي أفندي، مدّعيًا أنّه فعلها بناء علىٰ أمر السّلطان، كانت سببًا في نفور الأهالي والأوجاقات العسكرية منه، وفي تحويل وجوههم عنه، واتّخذوا موقفًا منه، وكتب: أنّ طاهر باشا الذي أفادَ من الفرصة بسبب العلوفة، قامَ بأخذ محمّد علي والخزينه دار في صفّه، وعمل هذا العصيان»، أمّا عن محمّد علي، فكانت العساكر التي هجمتْ عليه تقول له: خائن صاحب الأفعالِ السّيئة الذي أنكرَ النّعمة، لكنْ ليس من المحتمل أنْ يكون هذا هو سببَ اندلاع العصيان، أمّا عن فراره من القاهرة، فقدْ جاء في الوثيقة نفسها: *«أنّه نهبَ الضّعفاء والفقراء، ولم يصُنْهم، وهذا التمرّدُ والعصيان لم يكنْ قصورًا، أو تكاسلًا من عبيده فقط؛ إنّما كان مِن طائفة الأرناؤوط الخائنة للدّولة العليّة، ومِن الدّفتردار أفندي، ومعلوم لدىٰ البابِ العالي أنّها ظهرت من حيلة الدفتردار»*[1].

وفقًا لما ذكره جودت باشا، أنّ المؤرّخ المصري المعاصر الجبرتي نعَتَ خسْرو باشا قائلًا: كان سيئَ الإدارة، سفّاكًا للدّماء، واليًا بلا تدبير، واغترّ بنفسِه في الفترة الأخيرة، وبدأ في المظالم والتعدّي؛ فخرج مقهورًا من مصر، ونجا عبادُ الله من ظلمِه[2]، وإذا كانت بعض المبالغة تُرىٰ في هذا القول، إلّا أنّ الأهالي كانوا غير راضين عنْ خسْرو باشا، وهذا ثابتٌ في

(١) H.H. No: 1988/A ...".

(٢) Cevdet Tarih VII. 220.

رسائله، ووفقًا لما جاءَ في «تاريخ عطا»: أنّ عارف أغا -الذي كان موجودًا مع الباشا- ذكر قائلًا: بالرّغم من أنّه جسور؛ إلّا أنّه لا يعرف الإدارة، وكان يتصرّف بخشونةٍ مع الأهالي. وتحليلُ كلام عارف أغا عن خسْرو باشا يكون علىٰ هذا النّحو:

١- حركته ضدّ طاهر باشا، وقطع رواتب الأرناؤوط دونَ سبب.

٢- لم يهتمّ بالحفاظ علىٰ القلعة.

٣- لم يرغبْ في الإفادة من محمّد علي ورجائي أفندي.

٤- لم يجعلِ الأهالي تميلُ إلىٰ الدولة والحكومة.

٥- وفي النهاية لم يصْغِ إلىٰ الذين حذّروه من هذا الوضع[١].

بعدَ فرار خسْرو باشا، انشغلَ طاهر باشا بتحقيق الأمن والنظام، وأرسل الدّلالين ينادون بين الأهالي؛ أنّه لن يقع أيُّ ضررٍ -ولوْ صغيرًا- علىٰ الشّعب من طائفة العساكر، وإذا حدث أيّ شيء من هذا، يتمّ الشّكوىٰ إلىٰ طاهر باشا شخصيًّا، وبعد عدّة أيام، وفىٰ ١٤ محرم ١٢١٨/٦ مايو ١٨٠٣م، اجتمع الدّيوانُ من العلماء والزّعماء، وقرّروا تعيينَ طاهر باشا قائمقامًا حتّىٰ قدوم

(١) يوجد هذا الأمر الذي استند عليه إينالجيك في تاريخ عطا، ج٢، ص١٢٩. كذا انظر:

Hüsrev Paşa maddesi, İslâm Ans.

والٍ جديد، أو قدوم أمرٍ بالولاية له، وأُرسل محضر بالوضع الحالي إلىٰ مركز الدولة[1].

كان العلماءُ في هذا القرار -دونَ شكّ- لا يتحرّكون بإراداتهم، أو بحريتهم، فليس من المُمكن أنْ يتحرّكوا بخلاف ما يريدُ العساكر؛ الذين كانوا يتحكّمون في الوضع آنذاك، وهكذا كان عصيانُ الباشىٰ بوزوق الأرناؤوط قد اكتسبَ شرعيّةً، عن طريق تعيين طاهر باشا الأرناؤوطي قائمقامًا.

(١) Cevdet, Tarih VII. 221; keza Mengi11 F, 1. 28-29.

الصّراعُ بين الباشى بوزوق والينكـچرية، ومقتلُ طاهر باشا

بعدَ أن أصبحَ طاهر باشا قائمقامًا، أوّلُ شيء فعلَه؛ هو عقابُ مؤيّدي خسْرو باشا الموجودين في القاهرة، وتعقّبُ خسْرو باشا، فقام بقتل بعض مؤيّديه، وحبس البعضَ الآخر، ثمّ أخرجَهم بشفاعةِ المشايخ بعد ذلك، وعلىٰ الرّغم من أنّ خسْرو باشا رحلَ عن الولاية؛ إلّا أنّه ظل حرًّا طليقًا، وكان هذا يُقلق طاهر باشا ومحمّد علي؛ لأنّه حتّىٰ وإنْ كان هذان الاثنان الحاكميْن في مصرَ؛ إلّا أنّ خسْرو باشا مازال هو الوالي الرّسمي، وطاهر باشا هو العاصي؛ لذلك أمَرَ طاهر باشا أخاه حسن بك بتعقّب خسْرو باشا -الذي فرض ضرائبَ باهظة علىٰ أهالي المنصورة بعد فرارِه من مصر- والقبض عليه، وعند تحرّك حسن بك إلىٰ المنصورة في ٢٦ محرم ١٢١٨هـ/١٨ مايو

١٨٠٣م، خرج خسْرو باشا من هناك، وذهب إلىٰ دمياط، واستقرّ مع عساكره داخل قلعة حصينةٍ في دمياط[١].

وفي تلك الأثناء، كان التقاربُ الذي حدث بين طاهر باشا والمماليك لافتًا للنّظر جدًّا، بناءً علىٰ ما ذُكر سابقًا؛ أنّ الدّولة قد أصدرت العفوَ عنهم، وخصّصت رواتب لهم، وأمرتهم بالإقامةِ في أسوان؛ إلّا أنّهم كانوا يتابعون -عن كثبٍ- أحداثَ العصيان الأخيرة التي وقعتْ في مصرَ الوسطىٰ، وعندما سمعوا بإسقاطِ خسْرو باشا من الولاية، وتعيينِ طاهر باشا قائمقامًا؛ أرسلوا رسائل إليه، وطلبوا منه أنْ يحضروا إلىٰ القاهرة وإلىٰ مصرَ السفلىٰ، فأخبرهم طاهر باشا في ردِّه عليهم أنّه سيلبّي مطالبَهم جيدًا[٢]، وكان مَجيء المماليك إلىٰ القاهرة، وإلىٰ مصرَ السّفلىٰ، ليس بدعوةٍ من طاهر باشا كما زعمت بعضُ المصادر، بالعكس، كما قيل الآن، بعدَ أنْ طلبوا من طاهر باشا المجيء، ردّ عليهم الباشا بشكلٍ جيد[٣].

ومِن جانبٍ آخر، كان يترقّبُ كيفيةَ مقابلة الباب العالي لهذه الأحداث، وما التّدابير التي سيتّخذها تجاهَ العصيان الذي حدثَ في مصر، وهروب الوالي خسْرو باشا إلىٰ دمياط، وجاء في الخطّ

(١) H.H, No: 3541 keza Cevdet, Tarih VII. 221. H.H, No: 1988/A.

(٢) Cevdet, Tai'ih VII. 221; Ahmet Rasim. Resimli Ve Haritall Osmanll Tarihi.İstanbul 1327, C. III. sf. 1388.

(٣) Mengin, F. Aynl Eser I. 30, Mouriez P, Aynl Eser. I. 104.

الهمايوني الذي كتبه سليم الثالث؛ الذي كان مطّلعًا علىٰ الوضع، بتاريخ ١٩ محرم ١٢١٨/ ١١ مايو ١٨٠٣م، الذي ذكر سابقًا عن خسْرو باشا طبقًا لما هو معروف: «*لقد أصبح معلومًا لديّ بعدَ خروج الوالي من مصر؛ لنْ يكونَ هناك اعتبار لمَا يكتبه أو يقوله، يجبُ معرفة حقيقة الوضعِ في مصر، والتّحقيق فيه، وإيجادُ والٍ جديد لمصر*»[1].

بناءً عليه، عُقد مجلسٌ من زعماء الدّولة تحت رئاسة الصدر الأعظم، وتناقشوا في المسألة، وفي النهاية أخبروا السلطانَ بتلخيص (رسالة)، وجاءَ في التّلخيص: «*أنّ بسبب عدم رضاءِ أهالي مصر عنْ خسْرو باشا، كما هو ثابتٌ من كلامه نفسه؛ فليسَ مِن المناسب أن يبقىٰ في ولاية مصر، لكنّ هدفَ طاهر باشا مُختلف، فإذا كان قد اتّفق مع أكثرِ الأرناؤوط، وله سابقة في حربِه مع الأمراء؛ يجبُ أخذُ التّدابير بإرسال جميع المهمّات من البرّ والبحر، وإرسال العساكر الكثيرة، وبهذا التّقدير، من الواضحِ أنّهم لن يقبلوه واليًا عليهم. لكنْ بسبب أنّ دمياط تحتَ يد خسْرو باشا إلىٰ الآن، وإذا تمّ عزلُه فستقوم الأرناؤوط بالاستيلاء علىٰ هذا المكان، ثمّ تقوم بالتعدّي علىٰ خورشيد باشا محافظِ الإسكندرية؛ لذلك مِن الضروري إرسالُ عساكر وأسطول وذخيرة سريعًا إلىٰ دمياط والإسكندرية، وبسببِ أهمّية موضوع الولاية؛ فسوف يتمّ الحديثُ عنه فيما بعد، ويتمّ انتخابُ*

(١) H.H.No: 1988 keza H.H, No; 3614.

الأصلح»، فكتب سليم الثالث علىٰ هذا التّلخيص بخطّه ما يلىٰ: *«وزيري، يجب تقديمُ هذا الموضوع علىٰ كافّة الأمور، وتنظيمُ هذا الأمر بالتّدبير قبل كلّ شيء، وأطلب منك غايةَ السّعي والاهتمام والدقّة، وإرسال عساكر بتأخيرِ تعيين والٍ علىٰ مصر غير مناسبٍ لذهني، لأنّ في كلتا الحالتين، العسكرُ سيعاونُ خسْرو باشا، ثمّ يكسب صعوبةً بعد ذلك، لتهتمّ بالأمر، وليتمّ تعيينُ والٍ علىٰ مصر، وألّا يمكن أن يعيّن في معيّته العساكر، وأنتظرُ منك الأخبار سريعًا»*[1].

وهكذا، كان أوّلُ تفكيرٍ للدّولة تجاه هذا الاضطراب؛ هو محاولةُ إرسال قوات مساعدة إلىٰ مصر، وتعيين والٍ جديدٍ عليها، وبدأت في العمل سريعًا في هذا الأمور، وبينما كانت المباحثاتُ علىٰ هذا النّحو في العاصمة، كانت هناك مجموعةٌ من الأحداث الجديدة في مصر قدْ ظهرت:

كما ذكَرْنا سابقًا؛ أنّه أثناءَ عصيان الباشىٰ بوزوق ضدّ خسْرو باشا، كانت عساكر الينكچرية علىٰ الحياد، ولم تتدخّلْ في شيء قطّ، وكان مِن المُحتمل بقوّة أنّها لن تساعد الوالي، وأنّها ستظلّ علىٰ الحياد، فكانوا غيرَ راضين عن خسْرو باشا. في تلك الأثناء، وبخلاف الينكچرية المحليّين الموجودين في مصر، كانت هناك جماعةٌ أخرىٰ من الينكچرية قد جاءت إلىٰ مصر، منذ مدّة

(١) H.H. No: 3660.

واستقرّتْ في منطقة جامع الظّاهر؛ لأنّها ستذهبُ إلىٰ الحجاز، وبينما كان خسْرو باشا يعدّهم لإرسالهم إلىٰ الحجاز، حدثَ العصيانُ ضدّه؛ فبقوا في مصر، وبعد أنْ أصبح طاهر باشا قائمقامًا، بدأتْ تظهر العداوةُ بين الينكچرية والأرناؤوط والباشىٰ بوزوق، وفي الوقت نفسه، كان طاهر باشا يعاملُ عساكرَه جيدًا، ويأخذُهم إلىٰ جانبه، ممّا زادَ الفجوةَ فيما بين الجماعتيْن من العساكر. وكانت الأموالُ التي يصادرُها طاهر باشا، والأموال الأميرية التي يحصّلها، يوزّعها علىٰ عساكره فقط، ويصرفها عليهم.

وعندما كان يطلبُ الينكچرية رواتبهم يقول لهم: أنا أعرفُ منذُ تعييني في ولاية مصر، وليس لي علاقةٌ بما قبله، وإذا كان لكم علوفات متراكمة، فاذْهبوا واطلبوها من خسْرو باشا[1].

فقامَ الينكچرية -الذين تكدّروا من هذا الوضع- بالذّهاب إلىٰ أحمد باشا محافظ المدينة المنوّرة، الذي جاء مصرَ للذّهاب إلىٰ الحجاز، وتواصلوا معه سرًّا، وقاموا بتحريضه، وفي يوم ٤ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٦ مايو ١٨٠٣م، تحرّك حوالي مائتين وخمسينَ عسكريًّا من جامع الظّاهر، وذهبوا إلىٰ بيتِ طاهر باشا، وطلبوا منه علوفاتهم[2]، وبناءً عليه، قال لهم كما قال مِن قبْل: ليس

(١) Cevdet, Tarih, VII. 222, Keza Mengin F. I. 31.

(٢) Vas1f. Tarih (yazma) Ali Emiri Ktb. Tarih Kitaplar1 No: 609 sf. 99-100;- Akçura Y. Osmanl1 Devletinin Dağ1lma Devri, sf. 91.

معي شيء أعْطيه لكم. وخاطبَهم بلهجةٍ شديدةٍ؛ ليتخلّص منهم، فذهب شخصان من الينكچرية من بين أصدقائهم قد تأثّروا من هذا الكلام وانفعلوا، وثاروا علىٰ طاهر باشا؛ الذي كان نحيلَ الجسم في الأساس، وقطعوا رأسَه بسهولةٍ وألقوه من النّافذة، بعد ذلك، وقعت معركةٌ شديدة بين الأرناؤوط والينكچرية، اندهشَ منها أهالي القاهرة، وأغلقوا دكاكينَهم، ودخلوا منازلهم[1].

تدخّل أحمد باشا، الذي أفادَ من هذه المعركة التي وقعت بين الأرناؤوط والينكچرية؛ بهدف تحقيقِ سلطة الدّولة، وعلىٰ أمل أنْ يصبح واليًا علىٰ مصر، وحاول تهدئة الأهالي باسمه، وفي الوقت نفسه، أمرَ الدّلالين بجمع الينكچرية حولَه؛ لطرد جميع الأرناؤوط من الولاية وإخراجهم، وبهذا الشّكل يكون أحمد باشا قد دخلَ في محاولةٍ جديدة لتأديب الباشىٰ بوزوق، وهكذا تجمع الينكچرية حولَ أحمد باشا، أمّا الأرناؤوط فاجتمعوا ناحيةَ الأزبكية، وقبلَ الحديث عن تطوّر الوضعِ، لنذكر شيئًا عن طاهر باشا المقتول:

استمرّت قائمقامية طاهر باشا حوالي ثلاثة وعشرين إلىٰ خمسة وعشرين يومًا، وفي هذه الفترة القصيرة، تصرّف طاهر باشا بشدّةٍ ضدّ بعضِ الأشخاص الأغنياء، ووضع يدَه علىٰ أموالهم، وأوقع عليهم الظلم، وبناءً علىٰ ما نقله جودت باشا من تاريخِ

(١) Cevdet, Tarih VII, 222; A. Rasim. Osm. Tarihi, HI. 1389.

الجبرتي: أن لوْ عمّر أكثرَ من ذلك؛ لأهلك الحرثَ والنّسل[١]، وذَكَر بعضَ الأسماء التي تعرّضت لظلمِ طاهر باشا؛ في الرّسالة التي صادفتها في مكتبة ابن الأمين محمود كمال: لو امتدّت فترةُ طاهر باشا أكثرَ من ذلك، من المؤكّد أنه كانت تحدث أشياءُ كثيرة[٢].

ومع عدمِ توثيق دور محمّد علي وتحريضِه في مقتل طاهر باشا، إلّا أنّه علىٰ أيّة حال ينبغي أنْ تكون له يد في ذلك. علاوة علىٰ ذلك، ذكرَ المؤرّخ الفرنسي H. Deherin: أنّ محرّك التّمرّديْن اللّذين وقَعَا في تاريخ مايو ١٨٠٣م (يعني: إبعاد خسرو باشا عن مصر، وانتهىٰ بمقتل طاهر باشا) هو محمّد علي[٣].

وكما هو معلومٌ، أنّ العاملَ الأساسي الذي أدّىٰ دورًا في سقوط خسْرو باشا؛ هو مشكلة العلوفة، ولمّا كان الوضعُ هكذا، كان ينبغي علىٰ طاهر باشا أن يتحرّك بحرصٍ ودقّة في هذا الأمر، لكنّه تصرّف عكسَ ذلك تمامًا، ممّا تسبّب في تمرّد الينكچرية بتحريض من أحمد باشا، وهكذا وقع طاهر باشا في نفس الخطأ الذي وقعَ فيه سلفُه، وبعد مقتل طاهر باشا، أصبحت قيادة الأرناؤوط في يدِ إخوته حسن بك وعبدي بك، وكان حَسن بك بعد أنْ رأىٰ تدبير محمّد علي ومهارتَه، لا ينفكّ عن مُلازمته قط،

---

(١) Cevdet, Ayn1 Eser.VII. 223.

(٢) İbnülemin Ktb. TY. No: 2730 vk.2/B.

(٣) Histoiire de ia Nel Egyptienne VI, 15.

وعاهدَه علىٰ ذلك، ومِن هذه الناحية، كان مقتل طاهر باشا مهمًّا جدًّا لمحمد علي؛ لأنّ محمّد علي قد اعتلىٰ منصب قائد الباشىٰ بوزوق بعد مقتل طاهر باشا، وهذا يتَّضح من العهد الذي قطعَه مع إخوةِ طاهر باشا، وتصديق زعماء الأرناؤوط عليه.

بعدَ مقتل طاهر باشا، جمعَ أحمد باشا -محافظُ المدينة- الينكچرية حوله، وأرسل المشايخ إلىٰ محمّد عليّ القائدِ الجديد للباشي بوزوق والينكچرية؛ من أجل إعلان تبعيّته له، فقال محمّد علي للمَشايخ الذين يدعونه للدُّخول في طاعةِ أحمد باشا: «لم يكنْ أحمد باشا واليًا علىٰ مصر، فهو ضيفٌ هنا، ولا علاقةَ له بمصر؛ أمّا طاهر باشا فكانَ معيَّنًا من قِبَل الدّولة، محافظًا في مصر، لذلك اتّبعناه وعينّاه قائمقامًا، وليس لأحمد باشا علاقةٌ بذلك، فليأخذ الينكچرية ويخرج من مصر ويذهب إلىٰ مكان مأموريّته»[1]، ونجد أنّ محمّد علي مثلما رفضَ الدّخول في طاعة الباشا العثماني، في الوقت نفسه ذكّره بوظيفتِه الأصليّة بأسلوب الأمر؛ لذلك بدأ الاثنان يستعدَّان لبعضهما البعض.

وفي اليوم الثّاني مِن مقتل طاهر باشا، أي: في ٥ صفر ١٢١٨هـ/ ٢٧ مايو ١٨٠٣م، جمع أحمد باشا كل من: الدّفتردار رجائي أفندي، والرّوزنامجي عبد الله رامز أفندي، وكتخدا خسْرو باشا يوسف أغا، ورجالَ الدّولة الآخرين، أمّا محمّد علي

(١) Cevdet, Tarih VII, 223, keza Mengin F, Ayn1 Eser, 1, 32.

والأرناؤوط، فقد كانوا مشغولين بالاسْتعداد لإخراج أحمد باشا والينكچرية من مصر، وفي تلك الأثناء، كما أشرنا سابقًا، أنّ المماليك الذين أخذوا الإذنَ من طاهر باشا للمَجيء إلىٰ القاهرة، وإلىٰ مصر الوسطي؛ كانوا قد وصلوا إلىٰ الجيزة بالقربِ من القاهرة، حتّىٰ إنّ البعض منهم دخلَ القاهرة، ومع أنّ محمّد علي لم يرحّب بالمماليك؛ الذين من المُمكن أن يتّحد معهم؛ من أجل إبعاد الينكچرية، حيث أدرك أنّهم سيسبّبون ضررًا له في المستقبل؛ إلّا أنّه تقابلَ مع زعمائهم؛ من أجل أخذِ قرارٍ مشترك في هذا الأمر.

وبعدَ تخابر محمّد علي مع زعماء المماليك، دخل قسمٌ كبير من عساكر المَماليك، وقسمٌ من العربان؛ إلىٰ المدينة[1]، ومِن جانبٍ آخر، أُطلقت المدافعُ علىٰ الينكچرية الذين تحرّكوا إلىٰ جهةِ رميلة، ونفس المعاملة حدثتْ مع أحمد باشا؛ الذي يجلس في داودية، ومن شدّة نار المدفعية، تفرّق الينكچرية من حول أحمد باشا، وتشتّت معظمُ عساكر الينكچرية المحليين.

وفي الأساس كان عددُ الينكچرية الموجودين مع أحمد باشا، حوالي: خمسمائة، أو سبعمائة عسكريّ، وأرسل إبراهيم بك قائدُ المماليك رسالةً إلىٰ أحمد باشا، يطلب منه -بشدّة- تسليمَ قتلة طاهر باشا، وخروجَه بعساكره من القاهرة، وذهابَه إلىٰ

(١) Cevdel, Tarih VII. 223-224 keza Mouriez, Ayn1 Eser, P. I. 106 vd.

مأموريته، ولم يجدْ أحمد باشا -الذي أصبحَ بلا دعم -أمامَ اتّحاد المماليك مع الباشىٰ بوزوق؛ لم يجدْ طريقةً أخرىٰ سوىٰ الخروج من مصر، وكان الدّفتردار والروزنامجي والكتخدا -المارّ ذكْرُهم- قدِ ابتعدوا عنه، وذهبوا لجانب محمّد علي، ووجدوا حفاوةً منه، فترك أحمد باشا مكانَه المُقيم فيه، وخرجَ من القاهرة، لكنْ عندما شكّ في تصرّفات بعض الأرناؤوط والمماليك والعُربان؛ دخل قلعة الظّاهر واختبأ بها، فحاصروه جميعًا وبدؤوا يحاربونه، وفي النهاية كانت فترةُ حكم أحمد باشا عبارة عن يومٍ وليلة[١].

بعدَ خروج أحمد باشا من المدينة، أُعلن الأمانُ من جديد للأهالي، وهذا الأمانُ كان باسْمِ إبراهيم بك حاكمِ الولاية، وأفندينا محمّد علي[٢]، وبهذا يكون محمّد علي، إنْ لم يكنِ الحاكم الرّسميّ في مصر؛ إلّا أنّه اعتلىٰ مكانةً عالية بالفعل.

وفي اليوم نفسه، قتل الأرناؤوط الدّفتردار رجائي أفندي، والكتخدا يوسف أفندي، بعد أن نهبوا منازلهم، وهكذا فقدَ الاثنان روحَيْهما مقابلَ طاهر باشا، ويُفهَم أنّ محمّد علي وإبراهيم بك لهما يدٌ في ذلك، وجاء في التّحرير المرسَل من طرفِ محافظ الإسكندرية خورشيد باشا: «*أنّه بينما كان الدّفتردار خليل رجائي*

(١) Cevdet, Tarih VII. 224 keza İbnülemin Kib. T.Y. 2730 vk. 2/a.

(٢) Cevdet. Tarih VII. H.H. No: 2650.

ويوسف أغا كتخدا خسْرو باشا مقيميْن في منزليْهما، أرسل محمّد علي وإبراهيم بك رجلًا فقتلَ الاثنين»[1]، وكانت الطريقةُ التي اتّبعها محمّد علي في التخلص من أعدائه؛ هي توجيهُ ضربةٍ قاتلة للّذين يقفون ضدّه، أو يمكن أن يسبّبوا له ضررًا، ثمّ إبعادهم عن طريقِه، علاوةً على ذلك، يتبين أنّه سواء رجائىٰ أفندي، أو يوسف أغا، كانَا قد أخذا جبهةً ضدّه من قبل، وخيرُ مثالٍ لذلك، أنّهما قد اتّحدا مع أحمد باشا، لكنْ بعد خروج أحمد باشا من القاهرة، ذهبا إلىٰ جانبِ محمّد علي فاستقبلهما جيدًا.

لكنْ بعدَ عدّة أيام، أرسل الأرناؤوط للهجوم علىٰ الدفتردار والكتخدا، وهذا يبيّنُ لنا كمْ أنّ محمّد علي شخصٌ حاقد، ولا يعفو عنِ الذين يقفونَ أمامه، وأنّه ذو وجهيْن، ومنافق، ويفعل أيَّ شيء مِن أجل الوصول إلىٰ هدفِه في النهاية، وبعدَ قتلهم، ذهب محمّد علي إلىٰ ذلك المكان ووزّع الناس، وختَمَ علىٰ منازلهم، وسمح بدفنهم[2].

ومِن جانبٍ آخر، كان أحمد باشا وعساكرُ الينكچرية المحاصرون في قلعة الظاهر، يحاربونَ مع القوات المحاصرة لعدّة أيام، لكنْ لقلة الطعام والشراب، وتوالي ضربات المدفعية عليهم؛ أجبروا علىٰ طلبِ الأمان.

---

(١) H.H. No: 3465.

(٢) Cevdet, Tarih VII, 224.

فأرسلَ الأرناؤوط أحمد باشا إلىٰ القصر العيني، وضبّاط الينكچرية إلىٰ الجيزة، وأعدموا الينكجريّيْن إسماعيل أغا وموسىٰ أغا؛ اللّذيْن قَتَلا طاهر باشا، وأخذوا الأسلحة والمهمّاتِ من الينكچرية الموجودين في قلعة الظّاهر، وأرسلوها إلىٰ الصّالحية، وبعد ذلك أخرجوا الينكچرية والأشخاص التّابعين لهم من المدينة، وبعدها دخلَ المماليك أفواجًا أفواجًا إلىٰ المدينة.

وفي يوم ١٢ صفر ١٢١٨هـ/ ٣ يونيه ١٨٠٣م، استضافَ إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي -مِن زعماء المماليك- محمّد علي، ومِن بعده حسن بك وعبدي بك إخوة طاهر باشا، وأهدوهما الخلع، وشكروهم علىٰ أنْ منحوهم حكمَ ولاية مصر من جديدٍ بهذا الشكل، وكان هذا الاتّفاقُ المشترك يبدو جيدًا، وفي ١٥ صفر/١٦ يونيه، ترك الأرناؤوط القلعةَ للمماليك، لكن بقيَ مقدارٌ منهم في القلعة مع حسين قبطان[١].

وهكذا، وبينما كانت الحركاتُ تتعاقبُ في مصر، والتمرّدات العسكرية مستمرة، جاءت مجموعةٌ من الأوامر من العاصمة، تأمر باتّخاذ التّدابير اللازمة، وعلىٰ سبيل المثال: جاء في الأوامر المرسلة بتاريخ أوائل صفر ١٢١٨هـ/ مايو ١٨٠٣م، إلىٰ الدفتردار رجائي أفندي، وإلىٰ طاهر باشا متصرّف سنجق «قره

(١) Cevdet, Tarih VII. 226.

حصار صاحب» برتبة إمارة أمراء الرّوم إيلي: «*بسبب عدم حدوث اضطراب من طرف الأرناؤوط، وعدمِ جواز بقائهم في مصر بأيّ صورة؛ يجب دفعُ رواتبهم المُتراكمة من الخزينة المصرية، أو استقراضها من التجّار، ثمّ إركابهم السّفن من مضيق رشيد، وإرسالهم إلىٰ ولاياتِهم، كما أنّه تمّ العفو عن حركاتِهم غير اللائقة التي ظهرت، وذلك حرمةً لما بذلوه من صداقةٍ وجهدٍ في حملة مصر (يقصد ضدّ الفرنسيّين)، وأنّهم غير مسائلين عن أيّ شيء بعد ذلك*»[1].

ووصلَ فرمانٌ آخر في التّاريخ نفسه، جاءَ فيه توجيه قائمقامية مصر إلىٰ محافظِ المدينة أحمد باشا، وأمره بإخراجِ الأرناؤوط الذين اتّحدوا مع طاهر باشا، والدّفتردار أفندي من مصر، أمّا والي مصر، فوصلَ له فرمانٌ آخر بتوجّهه بوظيفةِ «محافظ» علىٰ المدينة التي عمل فيها من قبْل[2]، واتضح من الحكمِ الذي أرسله البابُ العالي إلىٰ طاهر باشا خاصّة، أن هناك تناقضًا كبيرًا مع الحقائق؛ لأنّه كما هو معلوم أنّ طاهر باشا كان قائدَ عساكر الأرناؤوط والباشىٰ بوزوق، وبالرّغم من ذلك، فإنّ اعتبار الباب العالي أنّه متصرّف «قره حصار»، وتوظيفه في تأديب

(١) M. Mısır, No: 11 sf. 11 keza M. Cevdet Tsf, Maliye 2365.

(٢) M. Mısır, No: 11 sf. 6-7.

الأرناؤوط، يعني: المؤيدين له؛ يعدّ موقفًا متناقضًا، وهكذا، نعتقد أنّ البابَ العالي لم يكن مطّلعًا جيدًا علىٰ الأوضاع التي تجري في مصر في وقتها[١].

بخلافِ ذلك، وعلىٰ االرّغم من إرسال الباب العالي حكمًا في أواسط صفر ١٢١٨هـ/ ١٢ يونيه ١٨٠٣م إلىٰ قاضي سواحل مصر، وإلىٰ النوّاب ومحافظي القلاع، وفي الوقت نفسه إلىٰ حكّام وضبّاط السّواحل كافّة، من مضيق البحرِ الأبيض حتّىٰ سواحل الأناضول والروم إيلي، بمنع إدخالِ العساكر الأجنبيّة والأرناؤوط إلىٰ مصرَ؛ لأنّهم سيكونون سببًا في نشْر الفساد، والانتباه جيدًا لهذا الأمر، وعدم إدخال أحدٍ إلىٰ مصر دونَ مأموريّة؛ إلّا أنّ الباب العالي قد علم بأنّ هناك عساكر أرناؤوط، وعساكرَ أجنبية دخلت إلىٰ الإسكندرية ونواحيها مخالفةً للأوامر، وتمّ السّماحُ لها بدخول ولاية مصر[٢]، فطلب منهم التحرّكَ بناءً علىٰ أمر الباب العالي.

ذكرْنا من قبْلُ، أنّ الدولة العثمانية قد منعتْ -بشكلٍ قطعيّ- دخولَ العساكر الأجنبية وخاصّة الأرناؤوط إلىٰ مصر، وفي هذا الجانب، وبالرّغم من إرسال الأوامر إلىٰ باشوات وقادة

(١) ذكر جودت في تاريخه عن هذا الموضوع فقال: بعد عودة ضيا باشا، بقيَ طاهر باشا في مصر برتبة قيادة عساكر الروم إيلىٰ

Cevdet, Tarih VII.223.

(٢) M. Mısır No; 11 sf.7-8 keza M. Cevdet Dahiliye 1447.

الرّوم إيلي، وعلىٰ رأسهم «دبه دلنلي علي باشا»؛ إلّا أنّ التدابير المأخوذة لم تحقّق نتيجة مُثْمرة[١]. وكانت فترةُ إرسال هذه الأوامر إلىٰ مصر؛ هي نهايةُ شهر صفر، وبداية شهر ربيع الأوّل، بالرّغم من ذلك، كانت فترة كلّ مِن طاهر باشا وأحمد باشا قد انتهت، وأصبح المماليك هُم المّتحكمينَ في مصر؛ لهذا فإنّ أحكامَ الدّولةِ المرسلة إلىٰ مصر لم يكنْ لها تأثيرٌ فعليّ علىٰ أرضِ الواقع[٢]، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، عندَ معرفة الباب العالي بالأحداث التي جرتْ في مصر، كان هناك مسألة يجب أن يتم حلها؛ ألا وهىٰ تعيينُ والٍ جديدٍ علىٰ مصر، لكنْ قبل كلّ شيء، يجبُ أن يكون الوالي الجديدُ شخصًا صاحبَ قدرةٍ وقوّة، يمكنه تحقيقُ النظام والأمن داخل الولاية، علاوةً علىٰ ذلك، جاء في التّلخيص الخاصّ بهذا الأمر: *«يجبُ أن يكون الوالي الجديدُ صاحبَ نفوذٍ وقوّة، وذا أهليّة، وقادرًا علىٰ تحقيق الأمن للأهالي»*[٣].

لكنْ كان من الصّعب إيجادُ شخصٍ بهذه المواصفات، وفي النهاية وقع الاختيارُ علىٰ علي باشا الطرابلسي، الموجودِ في إستانبول في ذلك الوقت مع إبراهيم باشا، وزعم علي باشا أنّه تواجد فترةً طويلة في مصر من قبل، وأنّه خبيرٌ بأحوالها وأوضاعها، وأنّه سوف يتمكّن من تحقيق الأمن للأهالي، وتأليفِ

(١) M. Mısır No: 11 sf. 20 keza M. Mısır No: 10 sf, 175.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 228.

(٣) هذا الرقم موجود في النص الأصلي، لكنه غير موجود في الحاشية. (المترجم)

قلوب الأرناؤوط، وجلبِهم إلىٰ صفه، ثمّ إخراجهم مِن مصر بشكل سهل، والاتّحاد مع المماليك في حفظ الولاية[١]. كان علي باشا يفكّر في ولايةِ مصر عند تعيين خسْرو باشا عليها، لذلك قُبلت رغبته، ووُجهت إيالة مصر له مع رتبة الوزارة، وقد كتب السّلطانُ سليم الثالث بخطّه علىٰ التّلخيص الخاصّ بتعيين علي باشا: «*أعانك الحقّ ﷻ علىٰ ذلك*[٢]»، وأُخبر زعماء الدولة الموجودون في مصر بهذا الأمر[٣]، كما أُرسل حكمٌ إلىٰ والي مصر السّابق خسْرو باشا، بتوجيهِ سنجق سلانيك له، وضرورة خروجه إلىٰ مأموريته سريعًا[٤].

(١) H.H.3726.

(٢) H.H. No; 4267.

(٣) M. Cevdet, Dahiliye 3846 keza M. Mısır No; 11 sf. 13-15.

(٤) M. Cevdet, Dahiliye 3846 keza M. Mısır No; 11 sf. 35.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه الطاهرين،

وبعد ...

فإن العمل على نشر العلم بين الناس هو أشرف الأعمال، وزكاة العلم نشره، لذلك قررت رفع هذا الكتاب الموسوم بـ "رؤية الوثائق العثمانية ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م" في صيغة PdF على النت بعد انتهاء العقد الموقع مع دار النشر، والكتاب الآن ليس لأحد عليه حقوق ملكية، إنما من حق المترجم فقط التعرف عليه، وخدمة للقراء الأعزاء فعلت ذلك، وأرجو من الجميع إبداء الملاحظات عن الكتاب، والدعاء لي بزيادة العلم والبركة في العمر، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم.

كما أتقدم بالشكر إلى المهندس/ خالد العسيلي على مساعدته في رفع الكتاب وإتاحته للجميع.

سوهاج المحروسة

مصر

د. محمد عبد الفاطي محمد

٢٠٢٢/١/٧

اللهم يسر وأعن

التعاونُ بين الباشى بوزوق والمماليك

١- ولايةُ علي باشا الطرابلسي لمصر، وعلاقاتُ الباشى بوزوق والمماليك مع الوالي الجديد

هكذا، بناءً علىٰ ما ذُكر سابقًا، في نهاية الصّراعات التي وقعت في مصر بين القوات العسكرية، والتمرّدات التي بدأتْ في الأيام الأولىٰ من عام ١٢١٨هـ/ مايو ١٨٠٣م؛ تمّ إبعادُ الينكچرية عن مصر، وسيطرةُ المماليك والباشىٰ بوزوق علىٰ حُكم الولاية، وقد أظهر ذلك أنّ هناك خللًا في مركز السّلطنة، وكانت القواتُ الرّسمية للدولة تتمركزُ في مصر فقط، في المناطق السّاحلية مثلَ: الإسكندرية ودمياط ورشيد، وبعد ذلك بدأ التعاونُ -ولو بشكل مؤقت- بين المماليك وقوات الباشىٰ بوزوق، واتّحدَا فيما بينهما، حتّىٰ إنّ F. Mengin وP. Mouriez عندما تحدّثَا عن هذا التعاونَ وصفَاه بـ: التّحالف (الائتلاف) بين المماليك والأرناؤوط[١].

(١) Moui'iez. P. Ad1 Geçen Eser. 1. p. 109 keza Mengin, F, Ad1 Geçen Eser. 1. p.36.

وجاءَ وصفُ هذا التعاون في الوثائق، سواء في حقّ الأمراء أو الحشرات الأشقياء (يعني: الباشىٰ بوزوق) بالائتلاف والاتّحاد[١]، وبعدَ أن دخل المماليكُ القاهرة، تقلّد إبراهيم بك قائمقاميّة الولاية، وبدأ في بعض الإجراءات[٢].

كان عثمان بك البرديسي وإبراهيم بك يشتركانِ في النّفوذ، وبهذا الشّكل يكون المماليك قد بدأوا يؤدّون دورًا مِن جديدٍ في إدارة مصر، لكنْ في ظلّ قوات الباشىٰ بوزوق أصحاب الكلمة الحقيقية في إدارة مصر.

وبهذا الاعتبار، وعلىٰ الرّغم من آمال المماليك، إلّا أنّهم لم يعدْ بإمكانهم أن يتحرّكوا مثلما يريدونَ في مصر، كما كانوا قبلَ عام ١٧٩٨م؛ فقد نجح سرچشمه محمّد علي في كسب ثقة النّاس ورضاهم أثناءَ فترة الاضطرابات، ومِن جانبٍ آخر، كان قد اتّجه نحْوَ تحقيق هدفه باتخاذ التّدابير اللازمة، دون ترْكِ شبهةٍ في حقّه من ناحيةِ فكْرِ أهل مصر؛ لذلك لم يكنْ من المحتمل أنْ يعمل لحساب المَماليك في الحقيقة[٣]، وفي النّهاية، أصبح مصير مصر في يد ثلاثة أشخاص: محمد علي، وإبراهيم بك، وعثمان بك البرديسي. ونريد أنْ نشير إلىٰ نقطةٍ مهمّة هنا: هي: أنّ محمّد علي منذُ اللحظة الأولىٰ التي وصلَ فيها إلىٰ مصر، كان دائمًا يريد

(١) H.H. No: 3509.

(٢) H.H. No; 3509/E.

(٣) Cevdet, Tarih VII. 227; Akcura Y, Osm. Devletinin Daâ1lma Devri sf.91-92.

أن يُظهر نفسه كشخصٍ يعمل في الدّرجة الثانية؛ حتّىٰ استولىٰ علىٰ ولاية مصر، بالإضافة إلىٰ ذلك، فإنّ محمّد علي -الذي وضعَ الخطّةَ الأساسية في مقْتل طاهر باشا، وإبعاد أحمد باشا- وافقَ علىٰ تعيين إبراهيم بك قائمقامًا، وسلكَ هو الدّرجةَ الثانية؛ أي: العمل خلفَه، واستمرّ في اللعب من خلف السّتار، مثلما كان يريد، لكنْ عندما يطلبُ منه الأهالي عملًا، ما كان ينفّذ لهم ذلك في الحال، حتّىٰ ازدادَ شأنُه واعتبارُه يومًا بعد يوم في نظر الأهالي[1]، إلىٰ أنْ جاء في التّحرير المرسَل من طرف خورشيد باشا -محافظِ الإسكندرية-، وصالح أفندي -أمين بناء السدّ-، عنِ الأحداث الأخيرة، أنّ محمّد علي أصبح صاحبَ ثقةٍ واعتبارٍ بين الأهالي والعسكر[2].

ومِن جانبٍ آخر، كان ينبغي له أنْ يعطي شرعيّةً للمماليك في مباشرةِ أمور مصر من جديد، وذُكر هذا في القائمةِ المشتركة التي قدّمها إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي إلىٰ الصدارة علىٰ هذا النّحو: *«بعدَ واقعة خسْرو باشا ومقتل طاهر باشا، انقسمت طائفةُ العساكر إلىٰ فرقتين، وتحاربتَا فيما بينهما، ولإنّهم عساكرُ بلا قائد؛ نهبوا بلدة مصر وسرقوها، فقام المنتسبون للمَذاهب الأربعة مِن أهالي مصر، وكافّة العلماء والصّلحاء، والسادات الكرام والوجهاء، والأعيان، بإرسال رسائلَ إلينا يدعوننا بالحضور*

(١) Cevdet, Tarih VII. 227.

(٢) H.H. No: 3465.

إلىٰ مصر؛ مِن أجل حمايتهم وحماية أموالهم وأرواحهم، فأجبْنا عليهم بأنّنا خدمٌ للدّولة العلية، وطالما لم يأتِ أمرٌ عالٍ بالعفو عنّا والسّماح لنا، لنْ نستطيعَ المَجيء إلىٰ مصر دونَ أمر، وبناءَ عليه تخابر معنا الأهالي من جديد، يطلبون قدومَنا إلىٰ مصر، وقالوا: إذا سألتكُم الدولةُ سنجيب نحن بدلاً عنكم، ورجوْنا في تخليصِهم من يد هذه الطائفةِ العسكرية، والحفاظِ علىٰ أرواحهم؛ ولذلك أتينا إلىٰ القاهرة».

بخلافِ ذلك، طلب إبراهيم بك -في العريضةِ التي أرسلها- العفوَ عن جرائمهم[1]. وكانت الأحداثُ تُرسل إلىٰ البابِ العالي مبالغَ فيها بعضُ الشيء، ويقول جودت باشا عن هذا: عندما دخلت إدارة مصر في هذا الوضع الأخير، أي: واقعة خسْرو باشا، وفتنة أحمد باشا والينكچرية، ووقوع الأهالي في الفزع والخوف، إذا لم يلحقْ أمراءُ مصر بسرعةٍ، كانت ستخرب الولايةُ بأكملها[2].

والنّتيجةُ، أنّ الباشىٰ بوزوق والمماليك أصبحَوا يحْكمون مصر، لكنّ تواجد خسْرو باشا حرًّا طليقًا في دمياط، كان يسبّب لهم قلقًا؛ لذلك أوّلُ عمل قاموا به؛ هو محاولةُ القبض علىٰ

(١) H.H. No: 3555/A قائمة مشتركة للمماليك, H.H. No: 3509 keza H.H. No:3534.

(٢) Cevdet, Tarih, Ayn1 Yer.

خسْرو باشا، وفي تلك الأثناء، كان حسن بك أخو طاهر باشا، الذي أُرسل إلىٰ دمياط للقبضِ عليه، قد انهزم علىٰ يدِ خسْرو، وبناءً عليه، كان قائقمام الوالي وشيخ البلد إبراهيم بك ومحمد علي علىٰ نفس الفكْر، فأرسلَا عثمان بك البرديسي بقوّةٍ عسكرية تتألّف من بعض العربان والمماليك والأرناؤوط إلىٰ دمياط[١]، وتحرّك محمّد علي بنفسه بعدَ هذه القوّة؛ للقبض علىٰ خسْرو باشا، وجاء في تقرير خورشيد باشا محافظِ الإسكندرية، الذي علمَ من بعض جواسيسه نيّةَ الباشىٰ بوزوق والمماليك: *«أنّ أمراءَ مصر خرجوا من القاهرة؛ لإرسال قسمٍ من عساكر الأرناؤوط إلىٰ دمياط، والقسمِ الآخر إلىٰ الإسكندريةِ، ولإن العساكر الموجودةَ في الإسكندريةِ قليلةٌ؛ طلب إرسال عساكر مرتّبة إليه»*[٢]، وجاء في تحريرٍ آخر لخورشيد باشا، بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٢١٨هـ/ ٢٨ يونيه ١٨٠٣م: *«أنّ إبراهيم بك قام بتعيين كلٍّ مِن: عثمان بك البرديسي، ومحمد علي، قادةً علىٰ جميع العساكر، وأرسلهما إلىٰ دمياط»*[٣].

---

(١) Cevdet, Ayn1 Yer.

(٢) H.H. No; 3509 keza 3465.

(٣) H.H. No: 3512 keza 3570.

صورة من القاهرة القديمة

وبينما كان محمّد علي وعثمان بك البرديسي يحاولان القبضَ علىٰ والي مصر السابق، ظهرتْ مشكلةٌ مهمّة أخرىٰ متعلّقةٌ بعلاقة الدّولة بمصر عن قرب، وهذه المشكلة التي ظهرت منذ فترةٍ طويلة؛ هي هجومُ الوهابيّين بقوة علىٰ منطقة الحجاز (الحرمين) في بلاد العرب، وكانت الوهابيّة قد ظهرت عام ١٧٣٠م، علىٰ يدِ شيخ (رجل دينٍ) حنبليّ يُدعىٰ محمد بن عبد الوهاب، المعروف: بشيخ نجد، الذي أوجد مذهبًا جديدًا وبدأ في نَشْره، وهذا المذهبُ الجديد لا يختلف عن المذاهب السّنية في بعض موضوعاتِ العقيدة والعبادة، لكنّه يتضمّن بعضَ المُعتقدات الباطلة، وكان هدفُه الأساس هو عودة الإسلام إلىٰ أيّام الرسول ﷺ، وبدأ محمد بن عبد الوهاب نشْرَ مذهبِه بسرعةٍ في البداية، في نجد، ثمّ بعد ذلك في أماكنَ مختلفةٍ من بلاد العرب، بمساندةٍ مِن شيخ الدّرعية سعود، ومِن بعده ابنِه عبد العزيز، وأدىٰ الوضع الداخلي للإمبراطورية العثمانية دورًا مهمًّا في نشْر هذا المذهب؛ لأنّ الدولة -بسببِ الأخطار الكثيرة المُحْدقة بها- لم تولِ اهتمامًا للوهابية، ولم تلْقَ رسائلُ التّحذير القادمة، سواء من أشراف مكة والأهالي، أو من ولاةِ الشام وبغداد، ومطالب المساعدة؛ لم تلْقَ اهتمامًا من الدولة.

بقيَ أنْ نقول: إنّ في الوقت الذي كانت فيه العلاقاتُ بين الوهابية وعلماء العراق السّنة حادَّةً، كان علماءُ العاصمة العثمانية لا يعرفون ماهيةَ الوهابية، وكانت الدولة ترىٰ أنّ محمد بن

عبد الوهاب خارجيّ ومُفْسد، وفي بداية عام ١٨٠١م، يعني: بعد انتشار الوهابية، وبالرغم من مرورِ حوالي ستين إلىٰ سبعين سنة، كانوا يعلمونَ أشياء قليلةً للغاية عنِ الوهابية، وهكذا، بسبب إهمال الدّولةِ أصبحت الوهابيةُ تنتشر علىٰ نطاق واسع؛ حتّىٰ سيطرت علىٰ عدّةِ أماكن في بلاد العرب، وبدأت في التعدي علىٰ الحرمين، وفي عام ١٢١٧هـ (١٨٠٢م)، عُقد مجلس مشورة لبحثِ هذا الموضوع، ومعرفةِ نيّة الوهابيّين، وإرسال أحدِ العلماء إلىٰ هناك لمعرفةِ الوضع، وأُرسل آدم أفندي من المدرّسين إلىٰ بلاد العرب؛ لمعرفة مقْصدِ الوهابيّين ومذهبهم[١].

في تلك الأثناء، كان الوهابيّون قد استولوا علىٰ الطّائف، وخرّبوا عدّة أماكن فيها، ومع هذا، حتّىٰ وإنْ كان الوقتُ قد تأخّر، إلّا أنّ رجال الدولة وعلماءَ العاصمة قد تأهّبوا جيدًا، وقدِ انتقد كاتبُ الوقائع جودت باشا في «تاريخه» موقفَ رجال الدّولة وعلمائها نقدًا لاذعًا، لكنّه كان محقًّا في ذلك، وبعدَ سيطرة الوهابيّين علىٰ الطّائف، أُرسل أمرٌ إلىٰ خسْرو باشا والي مصر، بإرسال مساعداتٍ من ذخيرة وجنود إلىٰ الحرمين[٢].

لكنْ كما هو معلومٌ، لم يكنْ موقف خسْرو باشا في مصر قويًّا، فكانت مصرُ تعجّ بالفتن والاضطرابات، وفي

---

(١) Cevdet, Tarih VII, 199 vd.

(٢) توجد صور أحكام كثيرة بهذا الخصوص في دفتر مهمة مصر رقم ١١، كذا انظر: Ali Emiri Tsf. Selim III. Defterleri No; 22662; Cevdet, Tarih VII. sC. 230

عام ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، كان الوهابيّون قد دخلوا مكّة، وبدأ يهدّدون المدينة، وقدْ أرسل أهالي الحرمين، وشريف مكة، ووالي جدّة، عدّةَ رسائل عنِ الظّلم الذي ارتكبه الوهابيّون في مكّة والسّلب والنهب، وعدم احترامهم لكبار رجالِ الإسلام (قبور الأولياء). وعند سقوطِ الحجاز -التي تعدّ قلبَ الإسلام- ومدنِها في يدِ الوهابيّين؛ أصاب الدولةَ هلعٌ شديد، وبينما كان رجالُ الدّولة ينتظرون خبرًا من آدم أفندي عن مذهبهم وأهدافهم، إلّا أنّ هذه الأخبار كانت سببًا في تأثّر الدولة وانفعالها، وأصبحَ من اللازم اتّخاذُ تدابير فعليّة حيالَ ذلك.

علاوةً علىٰ ذلك، نُوقش هذا الأمر بإسهابٍ في مجلس المشورة، المنعقد في صفر ١٢١٨هـ/ يونيه ١٨٠٣م، وكان القرارُ علىٰ أنّ أنسبَ ولاية لتقديم مساعدةٍ إلىٰ الحرمين؛ هي ولايةُ مصر، لكنْ في الحقيقة كانت ولايةُ مصر في وضعٍ لا يسمح لها تقديم مساعدة قط؛ بسبب خروجِها من احتلالٍ وحدوثِ اضطراباتٍ بها، وحاجتِها إلىٰ الإصلاح؛ ولهذا تمّ تعيينُ ولاة الشام وبغداد، برتبةِ سرّ عسكر (قيادة الجيش)، وقرّروا إرسالهم من الجانبين علىٰ الوهابية[1]، أمّا عن الأحداث في مصر، فكما ذكرْنا سابقًا، أنّه انتُهي من قرارِ تعيين علي باشا الطرابلسي -الموجود في مركز الدّولة- واليًا علىٰ مصر.

(١) Cevdet, Tarih Vll. 239 vd. keza A. Rasim, Osmanl1 Tarihi, III. 1392 vd.

وبعدَ عدّةِ أيّام من ذلك، خرج علي باشا بجنْد القبو (الخدم) متّجهًا إلىٰ مصر، وجاء في تلخيصٍ عن ذلك: «*والآن، إنّ محاولة إرسال مساعداتٍ من مصر إلىٰ الحرمين يعدّ نوعًا من العبث؛ لأنّ الحالة التي وصلتْ إليها مصرُ آنذاك كانت غيرَ معلومةٍ لدىٰ الدولة، وبناءً عليه، فإنّ الدخول حتّىٰ في بعض التّدابير لا يجدي نفعًا، وكان تحقيقُ النظام في مصر، يعني ذهابَ علي باشا، وتنظيم أمور الولاية سريعًا*»[1].

مِن جانبٍ آخر، كانت هناك بعضُ التّطورات الجديدة قد أظهرتْ نفسَها في مصر، فقد حاصرَ سرچشمه محمّد علي وعثمان بك البرديسي قلعةَ دمياط؛ للقبض علىٰ خسْرو باشا، ولم يستطعْ خسْرو التحمّلَ في المعركة التي حدثت، وشدّدوا الحصارَ عليه بعد ذلك، وحصروه في قلعةِ «عزبة»، والتفّ البرديسي ومحمد علي حول القلعةِ المذكورة، ووفقًا لما جاء في وثيقة، «*أنّ بجانب خسْرو باشا كان يوجد حوالي ثلاثمائة شخصٍ، وإذا كانوا قد قاموا في البداية، إلّا أنّهم اضطرّوا للتّسليم بعدَ ذلك، فأخذوه إلىٰ القاهرة دونَ أنْ يعاملوه معاملةً سيّئة، ونقله بعضُ الأرناؤوط والمماليك الذين كانوا يعْملون في خدمتِه من قبْلُ إلىٰ القاهرة، وعامل إبراهيم بك خسْرو باشا جيدًا*»[2]، وفي أثناءَ سقوط خسْرو باشا في يد المماليك والباشىٰ بوزوق، كان والي مصر الجديد

(١) H.H. No; 3850.

(٢) H.H. No: 3495 keza H.H. No: 3625. H.H. No: 3804.

علي باشا الطرابلسي قدْ وصل الإسكندرية عنْ طريق البحر، وذلك في ربيع الأول ١٢١٨هـ/ يوليو ١٨٠٣م[١].

كان والي مصر الجديد علي باشا خادمًا لمحمد باشا أمير أمراء الجزائر، وعند وفاة محمد باشا، أرسله صهرُه -الذي تولّىٰ مكانَه- بمعروضاتٍ إلىٰ إستانبول، وبسببِ أنّ أخاه سيدي علي كان له نفوذٌ كبير في التّرسانة في ذلك الوقت؛ وصّىٰ عليه كوجوك حسين باشا قبطانَ البحر، فعيّنه قبطان باشا أمير أمراء طرابلس، فذهب علي باشا بالسّفن والعسكر المجهّزة له إلىٰ طرابلس، واستولىٰ علىٰ الإدارةِ بالقوّة من أمير الأمراءِ الموجود، لكنْ كرهَه الشعبُ بسبب ظلمِه وتجاوزه، وبعدَها هربَ من طرابلس؛ بسبب هجوم أمير الأمراء القديم علي باشا القرمانلي من جانب تونس، وفرّ إلَىٰ مصر، ولاقىٰ ترحيبًا من مراد بك المشهورِ في مصر، ثمّ ذهب إلىٰ الحجّ، وعاد إلىٰ مصرَ بعد الحجّ، وقاتل بجانبِ مراد بك ضدّ الفرنسيّين، ولحقَ بجيش الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا، وعندما انهزمَ جيشُ السّردار في قليوب من الفرنسيّين، أُرسل علي باشا بتحريرات إلىٰ دار السّعادة، ومِن ذلك الوقت، بقيَ في مركز الدّولة، وعندما بحثوا عنْ تعْيين والٍ علىٰ مصر، طلبَ هذه الوظيفةَ لنفسه، وتمّ تعيينُه، وكان علي باشا وزيرًا جَسورًا ومتحمّسًا، لكنّ أخلاقَه سيئة، وذكرَ كاتبُ الوقائع جودت باشا: أنّه نالَ شهرةً سيئة في نواحي بلاد العرب، وفي الوقت

(١) H.H. No: 3480.

نفسه، مكثَ فترةً طويلة عندَ مراد بك، وتعيينه واليًا علىٰ مصر في هذه الفترة الحرجة لم يكنْ مناسبًا[١].

وإذا كان هناك مَن يُطلق علىٰ علي باشا اسمَ جزايرلي، فلبقائه مدّة طويلة في الجزائر[٢]، وعلىٰ أيّة حال، عندما وصلَ والي مصر الجديد إلىٰ الإسكندرية، كان الوضع الدّاخليُّ في مصر علىٰ هذا النّحو: القبض علىٰ خسْرو باشا والي مصر السّابق في دمياط، من طرفِ المماليك وقوّاتِ الباشىٰ بوزوق، وهكذا تمّت السيطرةُ علىٰ موقعٍ مهمّ مثل دمياط، والقبضُ علىٰ خسْرو باشا في الوقت نفسه، وإذا كان للدّولة نفوذٌ كبير في المناطق الساحلية من قبْل؛ إلّا أنّه بعدَ سقوط دمياط في يدِ العُصاة، اهتزّ هذا النفوذ؛ لأنّ القواتِ المذكورةَ بدأت تهدّد رشيد هذه المرّة[٣]، وجاءَ في الرسالة المرسَلة إلىٰ محافظ الإسكندرية خورشيد باشا، بختمِ عثمان بك البرديسي، بعدَ يومٍ أو يومين مِن القبض علىٰ خسْرو باشا، والاستيلاء علىٰ دمياط؛ ما نصّه: «*بعدَ هزيمة خسْرو باشا*

---

(١) Cevdet, Tarih VII. 228-229 keza Mehmed Süreyya, Sicilli Osmanî, İstanbul 13I1C.III.

Mouriez,P.Ayn1 Eser.I.p.112-113; Mengin,F.Ayn1 Eser.I.p.70-72.VI. 20.

مقابل ذلك ذكر أنه طرابلسي H. Deherain.

(٢) Mouriez,P.Ayn1 Eser.I.p.112-113; Mengin,F.Ayn1 Eser.I.p.70-72.VI. 20.

مقابل ذلك ذكر أنه طرابلسي H. Deherain.

(٣) H.H. No: 3548 keza H.H. No: 3505

H.H. No: 3491.

في دمياط، والقبضِ عليه بعدَ مقاومتِه، طلبوا تسليمَ الإسكندرية حتّىٰ لا يحدث لها ضَرَر»[1]، وفي هذا الوضع، كان هدفُ البرديسي ومحمد علي التوجّه إلىٰ المناطق المهمة الموجودةِ علىٰ السّاحل، مثل: رشيد، والإسكندرية، وذكَرَ خورشيد باشا في التّحرير الذي أرسله إلىٰ الصّدارة: *«أنّه يجبُ علىٰ الدّولة اتخاذُ تدابير عاجلة؛ لأنّه لم يبقَ لها في مصر شيءٌ سوىٰ الإسكندرية»*[2].

وبينما كان الوضعُ في مصر علىٰ هذا النّحو، كان علي باشا -الذي وصلَ إلىٰ الإسكندرية- قد أخبرَ الدّولةَ مِن هناك في أوّلِ خطابٍ له، *«بأنّ المماليك والأرناؤوط قد استولوا علىٰ رشيد، وخسْرو باشا سقطَ في يدِ محمد علي، وأخبر المماليك والأرناؤوط خسْرو باشا قائلين له: نحن لا نريد واليًا علىٰ مصر غيرك، لكنْ يجب أنْ نذهب ونستولي علىٰ الإسكندرية، وأشار -أيضًا- في الوثيقةِ نفسها؛ إلىٰ أنّ العساكر الموجودةَ معه تقريبًا ١٠٠٠-١٥٠٠، وأنّه مقدار كافٍ للحفاظ علىٰ الإسكندرية، لكنّ بسبب أن الذّخيرة الموجودة في الإسكندرية تكفي لمدّة عشرة إلىٰ خمسة عشر يومًا فسوف تكون هناك مشكلة، وطالب بشدّةٍ إرسال عساكر ومهمّات وأقجة (أموال) من أجل الحفاظ علىٰ مصر»*.

---

(١) H.H. No: 3491.

(٢) H.H. No: 3595.

وجاءَ في الخطّ الذي كتبه السّلطانُ سليم الثالث: «*لتنظر في الأمر، لكنْ ليس هناك حلٌّ سوىٰ السماح للأمراء كما كان مِن قبْل، ولا تتعبْ نفسَك هباءً*»[1]، يوجد هنا موضوعٌ لافتٌ للنّظر، ويجب الإشارةُ إليه؛ وهو أنّه بالرّغم من أنّ البابَ العالي يريد تحقيقَ أمنٍ وسلام في مصر، وتأسيسَ إدارةٍ حكيمة؛ إلّا أنّه لم يتّخذِ التّدابير اللازمة لفعل ذلك.

فقد أرسلَ واليًا إلىٰ مصر الكبيرة، بقوّةٍ قوامُها ألف إلىٰ ألف وخمسمائة شخصٍ؛ لتحقيق النظام، ومواجهة الباشىٰ بوزوق والمماليك، وظنّ أنّه سينهي العملَ بذلك، وهذا الوضعُ شكّل تناقضًا كبيرًا معَ الحقيقة، وإذا كان (البابُ العالي) قدْ أرسل أوامرَ إلىٰ أعيان آيدين وإزمير، وإلىٰ متسلّمي تكة؛ مِن أجل إرسال قوّات خمسمائة إلىٰ ألفِ شخصٍ إلىٰ مصر؛ إلّا أنّ هذه الأوامر بقيتْ علىٰ الورق ولم تنفّذ علىٰ أرض الواقع[2]، بناءً عليه، فإنّ مطالبَ علي باشا في أوّلِ تحريرٍ له للباب العالي، من إرسال عسكر ومدافع ومهمّات؛ تبدو طبيعية.

بعدَ احتلال دمياط، وإرسال عساكرَ إلىٰ رشيد، أدرك شيخُ البلد إبراهيم بك جديّةَ الوضع، فأرسلَ إلىٰ البابِ العالي مكتوبًا عنِ الأحداث الأخيرة، وذكر أنّه لن يبعدَ عن الطريق الصحيح،

---

(١) H.H. No: 6493 keza M. Cevdet, Dahiliye 7644.

بخصوص بقاء أكل لمدة ١٥ يومًا في الإسكندرية انظر: خط همايون رقم ٣٥٩١.

(٢) M. Mısır, No: 1 1 sf. 30 İzmir Ayan ve Moliasna

فقال: «*نحنُ عبيدُكم، ولسْنا عصاةً للدّولة، لكنْ أرسلنا عساكرَ إلىٰ دمياط ورشيد؛ لطرد خسْرو باشا مِن هذا الإقليم، ورفع ظلمِه وتعدّيه علىٰ الفقراءِ والعاجزين، ومعلومٌ للجميع أنّ حركتنا هذه ليست عصياناً؛ فنحنُ مُطيعون لأمرِ السّلطان*»، ممّا لا شكّ فيه أنّ حركات إبراهيم باشا هذه تناقضُ كلامه، فكتبَ الصّدرُ الأعظم علىٰ هذا التّحرير: «*إذا كان إبراهيمُ بك يستخدم نوعًا مِن الحيلة فيما ذكرَه في هذه القائمة، ويُظهر الطاعة؛ فإنّ عاقبةَ هذا الأمر ستكون وخيمة، ومِن المُحتمل أنّه سيدخلُ في طريق السّلامة التي يظهرها*»[1]، لقد كان إبراهيمُ بك صادقًا في طاعته للدّولة، كما سنرىٰ في المستقبل، لكنّه استمرّ في حركات التمرّد.

ومِن جانبٍ آخر، كان أوّلُ عملٍ قام به والي مصر الجديدُ علي باشا؛ هو التّخابر مع المماليك؛ لفتح طريقِ القاهرة، وجلبهم لطاعةِ الدّولة؛ لأنّه كان يعتقد أنّ المماليك هُم الحاكمون في مصر، وجاءَ في التّحرير الذي أرسله دونَ تاريخٍ إلىٰ شيح البلد إبراهيم بك: «*أنّه يطلب من المماليكِ دفعَ الاضطراب الذي انْتهىٰ بعزل خسْرو باشا، والاعتراف به واليًا علىٰ مصر؛ من أجل توفيرِ راحة الأهالي والآخرين، وإرسال رجالٍ مُعتمدين مِن طرفهم في ظرفِ عدّةِ أيّام، وأنّه يأمل الصّداقة منْهم*»، وواصلَ قائلًا: «*لو كانَ في قلب المؤمنِ ذرّةٌ من إيمان، لم يحاولْ عصيانَ الدولة في أيّ وقتٍ هكذا، لكنْ أنا لا أستمعُ لنصائحكم، ولا أتجاهلُ*

(١) H.H. No: 3457.

عصيانكم، وليكنْ معلومًا لديكم، أنّ محاولتكم العصيان بسببِ مساعدة الدّول الأخرىٰ لكم؛ لنْ يُترك دونَ عقاب من طرف الدولة قط، بالتّأكيد سترسل عليكم عساكرُ ومهمّات من البرّ والبحر، وتخرجكم من مصرَ، فإنّ الدولة لن تترك مصرَ لكم، وهذا الوضعُ معلومٌ لديْكم، وعندئذٍ ستندمون، وأنا الآن أطلبُ راحتكم، ولدَيّ الصّلاحيةُ الكاملة في هذا الأمر، ومهْما كانت راحتُكم من بعد الآن، يجب أن تُظهروا الهمّة للرّجال التي سأرسلُها، وتدخلوا في طاعةِ الدول، وإذا نحنُ أطعْنا الدّولةَ العليّة؛ سننالُ حمايتها من كلّ الوجوه، لكن إذا قلنا: إنّ الأرناؤوط عندما أعلنوا العصيان بطلب علوفتِهم كانوا غير واثقينَ في الدولةِ بوجهٍ ما، لكن الآن لن يحدثَ ضررٌ لأموالهم وأرواحهم، وكلّ مَن يريد الإقامةَ في مصر يمكنُ أن يقيم براحةٍ ورفاهية، أمّا الذين يريدونَ العودةَ إلىٰ ولاياتهم، فأنا أتعهّد وأتكفّل بإرسالهم إلىٰ ولاياتهم، دونَ حدوث أدْنىٰ ضررٍ علىٰ أرْواحهم وأموالهم، ولتكتبوا ردًّا علىٰ هذه القائمة في أسرعِ وقت»[1]، ولم نتثبّت -إلىٰ الآن- من الجوابِ الذي كتبه المماليكُ ردًّا عليه، لكن ذكَرَ جودت في تاريخِه تعبيراتٍ مختصرةً كجوابٍ من المماليك، أو تحريرات شبيهة بهذا الخطاب[2]. ونرىٰ أنّ المماليك قد اتّخذوا موقفًا ضدّ الوالي الجديد، وفىٰ

(١) H.H. No: 3556/A.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 233-234.

التّحرير المُرسَل خطابٌ إلىٰ أمراء المماليك، ذكَرَ علي باشا علىٰ هذا النّحو: «*لم يكن للدّولة علمٌ بمقتلِ طاهر باشا، ودخولِكم مصر، ولديّ أوامرُ بخصوص إرسال طاهر باشا وأحمد باشا إلىٰ الحجاز؛ لقتال الوهابيّين، وعند وصولي الإسكندرية، علمتُ بمقتل طاهر باشا، ودخولِكم مصر بمساعدةِ الأرناؤوط، وقتلِكم رجال الدّولة وبعض الينكچرية، وإخراج البعض الآخر من مصر، وليس مِن المناسب أن يصدرَ منكم هذا الشيء، ونحن غيرُ راضين عنه، وبسبب علاقتي القريبة منكم، لا أريد السوءَ لكم، لكنْ دونَ إذنِ الدولة، لا يمكنكم التدخّلُ في أمور مصر، والمخالفةُ والعصيان سيعودُ ضررُه عليكم، فسيفُ الدولة طويل*»، فرَدّ المماليكُ علىٰ هذا الخطاب قائلين: «*لقد رجوْنا رحمةَ خسْرو باشا عندما كان واليًا، لقد زادت قوتُه وسطوتُه، ولم يسمحْ لنا بالعيش في مصر، وأرسل خلفَنا الجنْدَ، وفي النهاية وقعتْ بينه وبين العسكر شحناء، وتمرّدوا عليه عندما لم يدفعْ لهم علوفاتهم، وأخرجوه بمساعدةِ طاهر باشا من القاهرة، ثمّ بعد ذلك تمرّدت عساكر الينكچرية، وقتلتْ طاهر باشا ظلمًا وغدرًا، وتقاتل العساكرُ فيما بينهم، وبناءً علىٰ طلب طاهر باشا مِن قبْل، أتيْنا إلىٰ ناحيةِ الجيزة، وعندما قُتلَ، أصبحتِ الولايةُ بلا ضابط، وبسبب خوف الأهالي مِن ظلم العساكر؛ طلبَ العلماءُ والمشايخ والجميعُ منّا المساعدة؛ فجئنا وأخرجنا العساكر، وضبطنا الولاية، لكنْ بسبب ذهاب خسْرو باشا إلىٰ دمياط، وظلمِه*

للأهالي في الطريق؛ ذهب عثمان بك البرديسي للقبضِ عليه؛ من أجل تأمين الأهالي، فهجمَ عليه خارجَ دمياط، فانهزم في المعْركة التي وقعتْ بينهم، وأحضره إلىٰ القاهرة، ونحن علىٰ هذه الحالةِ، حتّىٰ يأتي فرمانُ العفو عنّا، أمّا قولُكم: بأن نخرجَ من مصر، فهذا غيرُ مُمكن، كما أنّ عساكرنا لا تطاوعنا في ذلك، ونحنُ لم نطلبِ العونَ من أحدٍ سوىٰ الله، وقد أرسلنا إلىٰ دار السّعادة نطلب العفوَ، وننتظر جوابًا علىٰ العرضِ حال التي أرسلناها»[1].

بعدَ ذلك، قُرر عدمُ بقاء عساكر في القاهرة ونواحيها، غير عساكرِ المماليك وباشي بوزوق الروم إيلي، ولتنفيذِ هذا القرار، تمّ إبعادُ التّرك والعرب، والصّائب من أهالي الشام وحلب والأناضول عن المدينة[2].

ذكرْنا مِن قبْل أنّه بعدَ احتلال دمياط، كانتْ مجموعةٌ من العصاة قد توجّهوا ناحية رشيد، وكان يوجد في رشيد مقدارٌ من العساكر العثمانية، تحتَ قيادة علي أغا سلحدار خورشيد باشا محافظِ الإسكندرية، فلم تنجحْ قوّات المماليك والباشىٰ بوزوق التي ذهبتْ عليهم، حتّىٰ إنهم عرضوا علىٰ المحافظين أموالًا لتسليم القلعة، لكنْ دونَ جدوىٰ[3]؛ لذلك كلّف عثمان بك البرديسي سليمانَ الكاشف بحصار رشيد، وبناءً علىٰ ذلك أرسل

(١) Cevdet, Tarih VII. 233-234; keza Akçora, Osm. tmp. Dağ1lma Devri, 9293.

(٢) Cevdet, Ayn1 Eser VII, 234.

(٣) H.H. No: 3548 keza H.H. No:,W79/A ve keza H.H: 3579.

الوالي علي باشا، القبطان سيدي علي الذي جاءَ إلىٰ مصر بسفينةٍ؛ أرسله إلىٰ رشيد، وعندما سمعَ سليمان كاشف بمجيء علي قبطان؛ الذي وصلَ إلىٰ أمام رشيد، ومجيء باشا مصر الجديد؛ انسحب إلىٰ الرّحمانية، فدخل سيدي علي قبطان رشيد واستقرّ بها، فتحرّك البرديسي بنفسه، وحدثت مناوشاتٌ بالمدافع والرصاص، لمدّة خمسة عشر إلىٰ عشرين يومًا -ليلَ نهار-، بين البرديسي وسيدي علي قبطان، وفي النّهاية، لم يستطعْ علي قبطان أنْ يتحمّل قوّات البرديسي الكثيرة، ورحلَ مِن رشيد في ٢٣ ربيع الآخر ١٢١٨هـ/ ١٣ أغسطس ١٨٠٣م؛ مِن أجل الحوار، لكنّ البرديسي قد أمرَ بالتوقّف عند عودته، وبناءً عليه، أُسرت العساكر الموجودة في رشيد[١]، كان سيدي علي قبطان شقيق والي مصر علي باشا، وكان صاحبَ درايةٍ، وجَسورًا، ومِن قباطنة البحر المشهورين، واعتلىٰ فيها وظيفة قبطان باشا[٢].

وبهذا الاعتبار، أُرسِل علي قبطان إلىٰ القاهرة في جمادىٰ الأولىٰ ١٢١٨هـ/ أغسطس ١٨٠٣م، واستقبله إبراهيم بك بحفاوة شديدة.

وهكذا سقطتْ دمياط، ومِن بعدها رشيد، في يد الباشىٰ بوزوق والمماليك، وأصبحت الإسكندريةُ الموقعُ المهمُّ للدولة تحتَ تهديدٍ كبير، وكان استيلاءُ العصاة علىٰ الإسكندرية، يعني

(١) H.H. No: 3549 ktza H.H. No: 3526.

(٢) M. Süreyya, Sicilli Osmanî.

قطعَ خطّ وصلٍ مُحْكم بين الدّولة ومصر، وكان محافظُ الإسكندرية خورشيد باشا يعرض وضعَ المدينة بكلّ وضوحٍ إلىٰ الصّدارة؛ حيث قال: *«مِن المُحتمل أنْ يهجم عثمان بك البرديسي علىٰ الإسكندرية، ومع أخذِ الاحتياطات؛ إلّا أنّ العساكر -سواء الموجودة معي، أو مع علي باشا- قليلة. وعلىٰ الرّغم مِن ذلك، فليس لدينا خوفٌ من العصاة، لكنْ بسبب عدم مجيء ذخيرة وأكلٍ من خارج المدينة منذُ شهرين؛ وقعَ الأهالي في ضيقٍ شديد، ولم تُدفع الرواتبُ للعساكر في وقتِها، ومِن جانب أزمةٌ ماليّة، ومن جانبٍ آخر، قلّةُ المؤن والذخيرة، وخطرُ العصاة، كما أنّه لم يأتِ عسكريّ حتّىٰ الآن مِن سناجق علائية ومنتشة، الذي صدر الأمرُ بإرسالهم، وانتشرت الشّائعاتُ لدىٰ الجميع؛ بأنّ هناك احتلالًا مُحْتمَلًا؛ لذلك يجبُ إرسالُ عساكر سريعًا وعاجلًا إلىٰ الإسكندرية، وإرسال علوفة العساكرِ الموجودة علىٰ وجه السرعة»*. وجاءَ في الوثيقة أيضًا: *«بناءً علىٰ أنّ التمرّدات التي وقعتْ في القاهرة كانت جميعُها بسبب طلبِ العلوفة؛ يجبُ الاهتمامُ بهذه النّاحية؛ حتّىٰ لا يحدُث ذلك في الإسكندرية»*[1].

وأمامَ هذا الوضع، قام الوالي علي باشا بتخريبِ سدّ أبي قير المشهور، الذي كان قد خرب عندَ استيلاء الفرنسيّين علىٰ مصر، والذي كان أمين بناء السدّ صالح أفندي مشغولًا بتعميره منذ عامٍ ونصف، قام بتخريبه؛ لمنْع هجومٍ مُحْتمل من البرديسي

(١) H.H. No; 3526.

بك، وبهذا امتلأت الطرق المؤدية إلىٰ الإسكندرية بالماء، ومِن الطّبيعي، أصبحت عائقًا أمام الباشىٰ بوزوق والمماليك، ومع ذلك، قرّرَ البرديسي ومحمّد علي التحرّكَ إلىٰ الإسكندرية، لكنْ كان تخريبُ هذا السدّ -الذي يؤمّن مجيء مياه نهر النيل إلىٰ الإسكندرية- قدْ زاد من حالةِ الضّيق الموجودة أساسًا في الإسكندرية[١].

ومِن جانبٍ آخر، كان وضعُ علي باشا لا يبشّر بالأمن والثّقة، ولم يسلمْ من تصرّفاته، أو من تمرّد عساكره، سواء الأهالي، أو القناصل الأجانب[٢]، وفي الوقت نفسِه، كانت علاقتُه بمحافظ الإسكندرية خورشيد باشا ليستْ جيدة، فقد طلبَ في تحريرٍ له: *«إبعادَ خورشيد باشا عن مصر، بتوليته منصبٍ مناسب له؛ لأنّه يتدخّل في أمور حفظِ النّظام في مصر، ويقوم بالتّضييق عليه، وبقاؤه في مصر سوف يسبّب ضررًا»*[٣].

لكنْ لم يُقبل طلبُ علي باشا، وأمام إغلاق الطّرق بتخريب سدّ أبي قير، وضع محمّد علي والبرديسي مقدارًا من العساكر في رشيد ودمياط، وقرّرا العودة إلىٰ القاهرة، وعادا إلىٰ القاهرة في بداية جمادىٰ الآخرة ١٢١٨هـ/ سبتمبر ١٨٠٣م.

---

(١) Cevdet, Tarih VII. 235-236; keza Vas1f, Tarih (yazma) 187.

(٢) Mengin F. Ayn1 Eser 1. 51 vd.

(٣) H.H. No: 3464.

وذكرَ علي باشا الطرابلسي في خطابه الذي أرسله إلىٰ الصّدارة ما نصّه: *«لقد كتبتُ كثيرًا إلىٰ أمراءِ مصر، وإلىٰ طائفة العساكر، لكنّ حكومة مصر لم تكنْ تحت حكم الأمراء (المماليك) فقط، فهناك أمراءُ آخرون لهم نفوذٌ كبير علىٰ طائفة العساكر، مثل: محمّد علي وعمر بك، وقد قالوا لزُعماء الباشىٰ بوزوق: (نصف مصر لكم، والنّصف الآخر لنا)، حتّىٰ وإن كانوا يداهنوهم؛ إلّا أنّ زعماء الباشىٰ بوزوق يسمعون كلامَهم جميعًا، لكنْ يجب الاحتياط، بأن هؤلاء غيرُ آمنين، ومِن الواضح، أنّ هذه الحالة قد اكتسبوها من صورةِ عصاة الجبال؛ التي تُوجد في الرّوم إيلىٰ كثيرًا، وليس للحكومة نفوذٌ الآن علىٰ الباشىٰ بوزوق، ومن المعلوم، أنّ جماعة المَماليك ليس لهم نفوذٌ كبير؛ بل النفوذ فقط كان في يد الضّباط، وإذا تغيّر هؤلاء قليلًا، فإنّهم لن يقبضوا علىٰ المماليك في مصر فقط؛ بل لن يسمحوا لهم بالإقامة حتّىٰ في الصعيد»*[1]، وبناء علىٰ ما اتّضح من هذا التّحرير، إنّه منذُ مجيء علي باشا إلىٰ مصر؛ أي في فترةٍ تقرب من شهرين ونصف، فهِمَ جيدًا القوّةَ الحقيقية لدىٰ مَن في مصر، أمّا التّحريرات التي أرسلها فيما بعدُ، فكانت تتحدّث عن رؤيتِه الجيّدة لمصلحة مصر، هذا يعني أنّ علي باشا قد فهِمَ من الوهلة

(١) التقرير الذي كتبه علي باشا إلىٰ الصدارة العظمىٰ، بتاريخ ٩ جمادىٰ الآخرة ١٢١٨هـ/ ٢٦ سبتمبر ١٨٠٣م. انظر:

H.H. No: 3463

الأولىٰ عندَ مَجيئه إلىٰ مصر، أنّ السّلطة ليستْ في يد المماليك كما كان يعتقد؛ بل في يد الباشىٰ بوزوق.

وبينما كانت الأحداثُ في مصر تجري علىٰ هذا النّحو، كان البابُ العالي قد بدأ اتّخاذ خطواتٍ جادّة نحو تأسيسِ النّظام والأمن في ولايةِ مصر؛ لأنّها هي أفضلُ مكانٍ يتم منه إرسال مساعداتٍ إلىٰ الحرمين وتأديبِ الوهّابيين، وأوّلُ هذه الإجراءات؛ هي محاولةُ إبعاد الأرناؤوط عن مصر، والثّاني؛ هو العفوُ عن المماليك من جديدٍ وإسكانهم، ومِن جانبٍ -وبينما كان يحاول إبعاد الأرناؤوط والباشىٰ بوزوق من مصر- كان يحاول العفوَ عن المماليك، وإسكانهم من جانبٍ آخر، بناءً عليه، كان يسيرُ في طريقيْن في الوقت نفسه؛ من أجلِ تأسيس النّظام في مصر، وكان الباب العالي يرىٰ أنّ العائق الرئيسَ في تحقيق النّظام في مصر همُ الأرناؤوط، ومِن هذه الناحية، كان قدْ أرسل بعضَ الأوامر من قبلُ بخصوص إبعاد الأرناؤوط من مصر، لكنْ لم يكنْ لهذه الأوامر أيُّ تأثيرٍ علىٰ الإطلاق، وأمامَ أوامر الدّولة هذه، كان الأرناؤوط يتحجّجون بأنّهم يريدون العودة إلىٰ بلادهم، لكنْ يخافون مِن إغراق السّفن في الطريق وإعدامهم؛ لذلك أخبروا بأنّهم لن يتحرّكوا من مصر، بعدَ ذلك اتّخذ البابُ العالي تدبيرًا علىٰ هذا النّحو: «أرسل أوامرَ عدّة إلىٰ متصرّف «أشقودة» إبراهيم وتبه دلنلي علي، ومتصرف «دوقه كين» عبد الرحمن، ومتصرف «كوستنديل» بلاسلي محمد، ومتصرّف أفلونيا إبراهيم، وإلىٰ جميع

باشوات الأرناؤوط والروم إيلي، بتوضيحٍ لهم وضْع الأرناؤوط في مصر، وأنّ التّدابير الأولىٰ لم تجْدِ نفعًا، وطلبَ منهم إرسالَ أشخاص مُعْتمدين من طرفهم، لهم نفوذٌ يعتمد عليهم الأرناؤوط الموجودون في مصر؛ مَن أجل إخراجهم من مصر، وإرسالهم إلىٰ ولاياتهم بكلّ سهولةٍ ويُسر، وإذا كان قد اتّخذت تدابيرُ بعدم التعرّض لهم في الطريق إطلاقًا، وإرسال أشخاص ثقة ليسهّلوا عليهم الذّهاب سالمين إلىٰ أوطانهم؛ فقد أُخبر بأنّه من الممكن أنْ يخرجَ الأرناؤوط من مصر[١]، إنّما إذا خالفوا بعدَ ذلك، ورفضوا الخروجَ؛ فسوف يتمّ الإضرار بأولادهم وأقربائهم في الأرناؤوط، ويتمّ هدمُ منازلهم[٢].

ومِن بين الباشوات المذكور أسماؤهم فيما سبقَ، كان يُرجىٰ تحقيقُ المصلحة من إبراهيم باشا متصرّف أشقودة علىٰ وجْه الخصوص؛ لأنّ إبراهيم باشا كان قد قدّم خدمات للدولة من قبْلُ، وبينه وبين الدّولة مراسلاتٌ ومطالعات في هذا الشّأن[٣]، وبناءً علىٰ رغبة الدولة، أرسلَ هؤلاء الباشوات بعضَ الأشخاص

---

(١) M. Cevdet, Dahiliye 1993.

(٢) Vas1f, Tarih ty. sf. 187.

تقرير بلاسلىٰ محمد باشا في هذا الشأن: H.H. No; 3622.

(٣) H.H. No; 3622

تقرير بلاسلىٰ محمد باشا في هذا الشأن:

H.H. No; 3629

تقرير متصرف أفلونيا, الوثيقة نفسها.

المهمّة في معيّة الوالي علي باشا إلىٰ مصر[1]، لكن هذه المحاولة، وهذا التهديد أيضًا، لم يجْدِيا نفعًا، ولم يُرَيا أنّهما سيحقّقان تأثيرًا من الأساس؛ لأنّ الأرناؤوط كانوا قد حكموا وسيْطروا علىٰ الوضع في مصر، وكان حكمُ الوالي علي باشا منحصرًا فقط في مدينة الإسكندرية، وبناءً علىٰ ما ذكره كاتبُ الوقائع جودت باشا في هذا الشأن، أن عساكرَ الباشىٰ بوزوق الموجودةَ في مصر -كما هو معلومٌ- جمعتْ من أماكنَ مختلفة من الروم إيلي، وأغلبهم جاءوا من أرناؤوط «توسكا»، بخلافِ ذلك، كان مِن بينهم كثيرٌ من الأتراك الجسورين والغيورين، جاءوا من أماكنَ أخرىٰ من الروم إيلي، لكنّ الدّولةَ لم تكن تعلمُ حقيقةَ هذا الأمر، وكانت تنظرُ إلىٰ جميع باشي بوزوق الروم إيلي علىٰ أنّهم أرناؤوط، وجاء ذكرُهم في معظم الوثائق بلفظ: (أرناؤوط)، أو: (أرناؤوط سكبان)، وأحيانًا يردُ عنهم أيضًا لفظ: (أهل بلد) و(ترك أوشاغي)، والتّعبيران الأخيران يدلّان علىٰ أنّه ليس جميعُهم من الأرناؤوط، وأساسًا نجد في الوثائقِ اعتبارًا من أواسط عام ١٢١٨هـ ذكرًا مختلفًا لقادة الأرناؤوط والتّرك، وبناءً علىٰ ما ذكره جودت باشا أيضًا: إذا كان يوجدُ كثيرٌ من الجنود مِن أشقودة ومن «كيغه لق» ومن سائر المناطق، إلّا أنّه سواء الذين جاءوا من أماكنَ أخرىٰ من الروم إيلي، أو من «توصاق»،

(١) H.H. No; 3629

تقرير متصرف أفلونيا, الوثيقة نفسها.

كانوا لا يعرفون أشقودة ولا متصرّفَ أشقودة؛ لذلك فإنّ التّدبير الذي اتّخذته الدولة -بواسطة إبراهيم باشا متصرّف أشقودة- لم يكنْ له فائدةٌ قطّ، ومهْما يكن مِن أمرٍ، حتّىٰ وإنْ كانت قوّات الباشىٰ بوزوق غير منظمة، ومتداخلة فيما بينها؛ إلّا أنّها كانت قد اتّحدتْ ضدّ المماليك في البداية، ثمّ ضدّ الينكچرية بعد ذلك، وكان دافعُ الجيرة والمنطقةِ البعيدة التي جاءوا منها، قد زادَ من اتّفاقهم واتّحادهم مع بعضهم البعض، فكانوا مثل الجسدِ الواحد، ومثلَ المجموعة التي لا تنقسمُ تحت إدارة محمد علي، وكان كثيرٌ من قادة الأرناؤوط الذين يظهرون في الميدان بمثابة اليدِ والقدمِ لهذا الجسد الواحد، وبوجْهٍ عام، كان يُنظر علىٰ هذه الهيئةِ بنظر الأرناؤوط، وبالرّغم من ذلك، كانت جماعة الروم إيلي -وخاصّة «قرجه إيلي»- بالنّسبة لمحمد علي بمثابة العيْن التي يرىٰ بها، والأذن التي يسمع بها، وكانت إستانبول لا تعلمُ حقيقةَ هذا الوضع، فكان محمّد علي يضحك من تحت شاربِه، عند تهديد إبراهيم باشا بعودةِ عساكر الباشىٰ بوزوق إلىٰ الروم إيلي[1]، وفي النهاية، لم تغيّر محاولةُ الدولة إبعاد الباشىٰ بوزوق بواسطة باشوات الأرناؤوط والروم إيلي أيّ شيء، وأمامَ هذا الوضع، كان البابُ العالي يفكّر في تعْيين متصرّف أشقودة إبراهيم باشا واليًا، وإرساله إلىٰ مصر.

(١) Cevdet, Tarih VII. 242-243.

ويُفهَم من صورة التّحريرات المرسَلة بتاريخ ٢٤ جمادىٰ الأول ١٢١٨هـ/ ١١ سبتمبر ١٨٠٣م، أنّه تمّ توجيهُ ولاية مصر إلىٰ إبراهيم باشا، وجاءَ في صورة هذه التحريرات: *«إنّه لَمِن الضّروري تعيين وزير صاحب قوّة واقتدارٍ علىٰ مصر؛ لإنقاذها من الصّعوبات التي تمرّ بها الآن، لكنْ لا بدّ أن يكون واحدًا من الأرناؤوط، يستطيع حلَّ أمر خروج الأرناؤوط من مصر بسهولةٍ وسرعة، ثمّ جاء أيضًا: بمجرّد سماع أنّ كافّة عساكر الأرناؤوط -كما هو شائع في مصر- قد عزمت وتوجّهت إلىٰ إسكندرية مصر، تمّ توجيهُ ولاية مصر إلىٰ عهدتِك، مع عهدة مشيرية الولاية المذكورة؛ لأنّ من الظّاهر والعَيان أنّك سوف توفّق في حلّ هذا الأمر بسهولةٍ بعوْن الباري، وتجعل الأمراء يلتجئون إليك، ويتبعونك»*[١].

وهكذا، وبينما علي باشا الطرابلسي لم يُعزل بعد، وكان واليًا رسميًّا علىٰ مصر، كان هناك تفكير في تعْيين والٍ ثانٍ، وبناءً علىٰ طلب التّعيين هذا، كتبَ إبراهيم باشا رسالةً إلىٰ الصّدارة، فقال: *«إذا كان مِن الضّروري الذهابُ إلىٰ مصر؛ من أجل إبعاد الأرناؤوط عن أمراء مصر، فإنّي أريد عسكرًا لهم رواتبُ في معيّتي بصلاحياتٍ كاملة، ينفّذون أوامر السّر عسكر، وأريد أسطولًا صغيرًا في النّيل، وقاليون، ومهمّات»*[٢]، تعدّ المطالبُ

(١) H.H, No: 11886.

(٢) H.H. No: 3629/E.

التي طلبها الباشا لتحقيق أوامر الدّولة طبعيّةً وضروريّةً في الوقت نفسه، لكنّ الإمبراطورية العثمانية كانت مشغولةً بالصّراع في أكثر من مكان؛ لذلك كان توفيرُ هذه المطالب بسرعةٍ أمرًا صعبًا، فلو كانت هناك عساكر أو مهمّات أو أقجة وخلافه، لكانت أعطتْها إلىٰ علي باشا؛ لأنّه طلبَ الشيء نفسَه، ومهْما يكنْ، كان البابُ العالي يريد تحقيقَ النّظام في مصر، عن طريق الباشا الذي كان له نفوذٌ كبير علىٰ الأرناؤوط، لذلك أراد تعيينَ إبراهيم باشا، لكنّ هذا التعيين -أيضًا- لم يكنْ له تأثيرٌ علىٰ الإطلاق في مصر؛ فاضطرّ البابُ العالي صرفَ النّظر عن هذا التّعيين بعد ذلك؛ لأنّه بسبب زيادة حركات تمرّد أشقياء الجبال في الروم إيلي؛ عُين إبراهيم باشا علىٰ إيالة الروم إيلي بعنوان سرّ عسكر، وكُلف بالتنكيل بأشقياء الجبل[1].

أمّا بخصوص العفو عن المماليك وإسكانِهم من جديد، فكما ذكرنا سابقًا نبذة عن ذلك، أنّه تمّ العفوُ عنهم وإسكانُهم، قبل خروج الإنجليز من الإسكندرية في عام ١٨٠٣م، لكنْ بعد فترة جاءوا إلىٰ القاهرة، وحكموا مصرَ فعليًّا مع محمد علي، وهكذا يكونون قد عصوا الدّولةَ مرّةً أخرىٰ بمخالفتهم شروط العفو، وعندما أدرك إبراهيم بك هذا الوضع؛ أرسل عريضةً إلىٰ الدولة يرجو فيها العفوَ عنهم؛ بسبب تدخّلهم في شئون ولاية

(١) Cevdet, Tarih VII. 243.

مصر، لم تردّ عليهم الدولة في طلبِهم هذا إلا بعد ذلك، بسبب استيلاء الباشىٰ بوزوق والمماليك علىٰ رشيد.

ولقُرب الخطر من الإسكندرية من جانب، وعدم جدوىٰ محاولة إخراج الأرناؤوط من مصرَ من جانبٍ آخر؛ أصدرَ البابُ العالي قرارَ العفو عن المماليك، بعد أنْ كان يماطل فيه، وجاء في تلخيصٍ عن هذا الأمر: «*سيتمّ مناقشةُ الأمر في مجلس الشّورىٰ؛ من أجل بيان جدية الوضع في الإسكندرية، وإمكانية دفع الاضطراب بإسكان الأمراء*»[1]، وجاءَ عن هذا في تلخيص آخر: «*أيّ والٍ مضطرّ لاستخدام عساكرَ كثيرة، لذلك فإنّ الواردات لا تكفي إدارةَ العساكر، ونظرًا لأنّه مِن المُمكن أن يظهر فسادٌ مِن هذا، فإنْ لم يكن هناك تدبيرٌ أهون من دفع الخطرِ بالعفو عن الأمراء بشفاعةِ الوالي*»، وكتب السّلطانُ بخطّه علىٰ هذا التّلخيص: «*لتقدم علىٰ دفع الاضطراب من مصر، ولتكتب بموجب التّحرير*»[2]، وكانتِ الدّولةُ تحاول إيجادَ حل بالعفو عن المَماليك، أو التّفكير في ضربهم عن طريق الصراع بينهم وبين الباشىٰ بوزوق.

وفي نهاية المباحثاتِ التي أجْريت، تمّ إصدار قرارٍ بالعفو عن أمراء المماليك بمجموعة من الشّروط[3]، ووفقًا لهذه

(١) H.H. No: 6425.

(٢) H.H.No ; 6446.

(٣) بعض الخطوط الهمايونية، والتلخيصات الخاصة بالعفو الثاني عن المماليك H.H. No: 3661 H.H. No: 3638 H.H. No; 3611.

الشّروط: «*بقاء شيخ البلد السّابق إبراهيم بك في مشيخة البلد كما هو، وتعيين عثمان بك البرديسي رئيسًا للأمراء، بدلًا من المرحوم مراد بك، وعدم زيادة عددُ الأمراء عن اثني عشر أميرًا، وأن يصبح عددُ الكشّاف والعبيد الموجودين معهم محدودًا، وإعطاء القرىٰ والمقاطعات الجديدة التي كان يمتلكُها الأمراءُ منذ القدم إليهم، بشرط عدم التعرض أصلًا إلىٰ الجمارك والضرائب والضربخانة، أو التدخل فيها، وعدم مباشرة أيّة عمل دونَ إذن الوالي، وعدم التّدخل بواسطة الأمراء، كما حدثَ من قبل في شأن الولاة، طالما لم يُعزلوا من طرفِ الدّولة*»[1]، وأُخبر الوالي علي باشا بالقرارات المأخوذة بحقّ العفو عنِ المماليك، ولإن علي باشا كان يعرف أنّ هناك تنافسًا وصراعًا حقيقيًّا بين الأرناؤوط والمماليك، كان يبحثُ عن طريقة يُوقع بها الأرناؤوط مع المماليك.

وجاء في تحريرٍ يشرحُ فيه علي باشا الدّورَ الذي أداه؛ من أجل التفريق بين الأرناؤوط والمماليك بوضعِ مصرَ ومحمد علي علىٰ خاصة، برسالتين أرسلهما، كانت توجد مادّةٌ سريّة في إحدىٰ الرسائل: «*إذا أصرّ الأمراءُ المصريّون بشدة، وقالوا لك: لتكنِ الشئون المصرية في يدِنا كما كانتْ من قبل، وطلبوا منكَ القدوم، وفي معيّتك مائتا نفرٍ لتقيم في القلعة؛ فلا تقطعْ طرفَ الخيط، فلتجلب محمّد علي والبقية بطريق النّصيحة إلىٰ جانبك، ولتكسب*

(١) H.H. No: 3642/A.

ثقته واعتمادَه بمعسول الكلام، وتعلُهم بتخصيص راتبٍ لهم قدرُه مائة إلىٰ مائة وخمسين كيسة أقجة، وإذا تمّ القضاءُ علىٰ عثمان بك البرديسي؛ ستسهلُ المصلحة، ووصول ساجلي عثمان بك إلىٰ ناحية جرجا؛ فإنّ نتيجة هذه الحركة ستكون وخيمة، وبسببِ سماع النّصيحة للأمراء الآخرين؛ صدرَ الفرمانُ أيضًا بجلب ساجلي عثمان بك»، وحكىٰ علي باشا عن محاولته في جلبِ محمّد علي إلىٰ جانبه، فقال: «ولم أصرفِ النّظر أيضًا عنْ محمّد علي بكباشي، وعن عمر بك، بالتّأكيد سوف أجلبُهم إلىٰ صفّي، لقد تمّ الإحسانُ عليكم بمأمورية في ناحية الحرمين من ولايةِ مصر، وعندَ عودتكم مع خسْرو باشا ستكونون محايدين، والآن هو وقتُ خدمة الدولة، وبناءً علىٰ أنّ كلّ شيء يجب أنْ يكون له إذنٌ من الدّولة، فأيّ رتبةٍ أو منصب تريدوه فسيوجّه إليكم، وفي حال كونكم مُحايدين في الخلل الذي حدث فىٰ مصر؛ فإن الأمراء وسائر عباد الله سيستريحون، ولنخدم الدّولةَ في موضوع الحرمين، وبعد أنْ يتمّ دفعُ علوفاتكم المتراكمة من طرفي، ويتمّ دفعُ الاحتلال، سيتمّ إكرامُكم، ولقد ذكرتُ ذلك كثيرًا فلم يهتمّوا، وبسببِ أنّ الأمراء -أيضًا- كانوا تحت سلطة الباشىٰ بوزوق؛ كان محمّد علي يريد مصرَ بكلّ الوجوه، وكان الوضعُ في مصر بأكمله في يد محمّد علي».

وذكر علي باشا: أنّه كتب -أيضًا- إلىٰ ساجلي عثمان بك الأمر نفسه، لكن لم يأخذ ردًّا منه إلىٰ الآن، وقال: «نظرًا إلىٰ

سلوك الرجال الواردين من طرف إبراهيم باشا؛ فإنّه من الواضح لم ينفعوا في هذا العمل؛ لأنّه لم يكنْ لطائفة المماليك نفوذٌ، كان النفوذُ والغلبة في يد الأرناؤوط، ولمّا كان محمّد علي صاحبَ صيتٍ وشهرةٍ مثل والي مصر؛ فمِن أجل إزالة الخلل مِن مصر هناك طريقتان فقط، ولا توجد طريقةٌ غيرهما»:

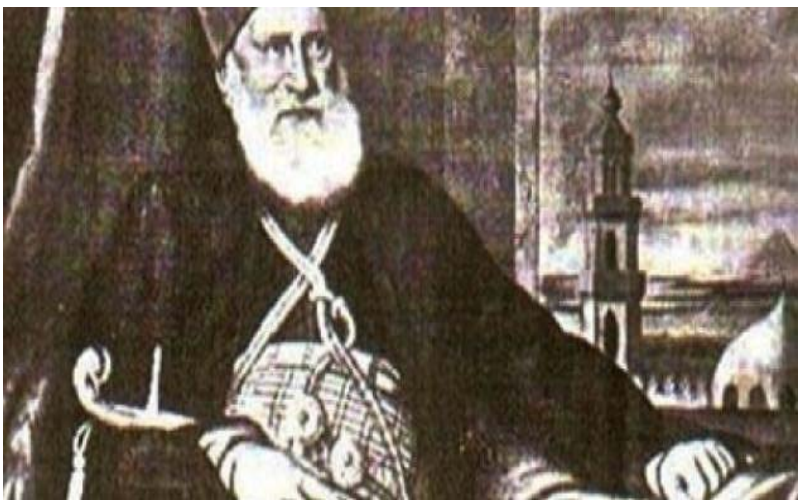

محمّد علي باشا.

غلافُ كتاب «مصر في عهد محمد علي»، طبعة جامعة كامبريدج، لعفاف لطفي السيد مارسو.

الطريقةُ الأولىٰ: إصدارُ فرمانٍ عالٍ، يبيّن أنّ المطلوب السلطاني هو التأكيدُ علىٰ وزراء الأرناؤوط، بإخراجِ عساكر الأرناؤوط من مصر، وإرسال باشوات مجرّبين ومعتمدين ومُعْتبرين؛ لإخراج الأرناؤوط من مصر، وعندئذٍ سيُهزم أمراءُ

مصر، أمّا الطريقةُ الأخرىٰ: قهر كافّة الأشقياء، وتدميرُهم بكافّة الإجراءات الممكنة[1].

هذه الوثيقةُ علىٰ وجه الخصوص بها بعضُ الأشياء اللافتة للنّظر، فقد أدركت الدّولةُ -قبل كلّ شيء- أنّ محمّد علي قائدٌ ذو كلمةٍ نافذة، فكانت تفكّرُ في إبعاده عن المماليك وعن عثمان بك البرديسي، بتوجيهِ رتبةٍ ومنصب له، وراتب من مائة إلىٰ مائة وخمسين كيسة أقجة، وممّا لا شكّ فيه، أن محمّد علي ليس الشّخص الذي يُمكن خداعُه بوعدٍ صغير هكذا، أو اصطياده برتبةٍ مثل هذه، لكنْ بسبب أنّ مركز الدولة لم يعرفْ حقيقة محمد علي جيدًا، كان يظنّ أنّه يمكن أن يلهّيه بوعود مُختلفة كهذه، لكنّ الشيء المهمّ في هذا التّقرير، هو معرفة علي باشا الطرابلسي وضْعَ محمّد علي، ودرجة قوّتِه بسرعة، فقال: *«إنّ محمّد علي هو صاحبُ الكلمة المطلقة في مصر»*.

وقوله: إنّ محمّد علي ذو شأنٍ وشهرة مثل والي مصر تمامًا، خيرُ دليلٍ علىٰ هذا الكلام، وبالرغم مِن أنّ علي باشا قد عرف قوة الشخص الحقيقي الذي له دورٌ كبير في مصر، إلّا أنّه لم يتمكّن من الوقوف ضدّه، أو منعه، حتّىٰ إنّه ضحّىٰ بحياته مثلما سنرىٰ بعد ذلك.

---

(١) تقرير علي باشا، بتاريخ ٢٦ جمادىٰ الآخرة ١٢١٨هـ/ ١٣ أكتوبر ١٨٠٣م

H.H. No: 3467.

وبعدَ ذلك أرسل علي باشا مجموعةً من التّحريرات الأخرىٰ مُختصرةً، تحدّث فيها عن العفو عن المماليك، وإعطائهم حرّيتهم، وبسببِ أنّه لم يتحدّث عن كيفية تحرّكه بهذه الأوامر؛ كانت أوامرُ العفو مازالت معه، فقال: «*ليس هناك فائدةٌ من العفو عنْ أمراء مصر، أو تركهم بحريّة، فهُم لم يكونوا محايدين عند حدوثِ الخلل في مصر؛ لأنّ الحكومةَ تعلم أنّ النفوذ في الوقت الحالي مع قادة العسكر، بقيَ أنْ نقول: إنّه من الواضح حدوثُ تنافس بين طائفة المماليك والأرناؤوط علىٰ السّلطة، والتنافس بينهم يزدادُ يومًا بعد يوم، بخلاف ذلك، كلّ المدافع والجبخانة الموجودة في رشيد ودمياط، وخاصّة في قلعة القاهرة، تحتَ يدِ العسكر، وخادمكم منذُ فترة يحاول جاهدًا بذلَ الغيرة في هذا الموضوع، وفي الوقت الذي رأيتُ فيه المصلحة في إلقاء بذرةِ التّنافس بينهما، احترتُ مِن قدوم أوامر بهذه الصّورة، وترك الأمراء بحريّتهم هكذا، سيكون بالنّسبةِ لي أنْ أصبحَ عاجزًا عن تحقيق النظام في مصر، وبينما أنا أسعىٰ جاهدًا ليلَ نهار في تحقيق النّظام، لم أجدْ هناك داعيًا للعفو عنهم وإطلاقهم فجأةً هكذا؛ لهذا فإنّ التحرّك بهذه الصورة يعدّ مِن قبيل العجز، وسوف أخفي أوامر العفو هذه بجانب؛ي حتّىٰ مجيء خبرٍ جديد*»[1].

وبناءً علىٰ ما سبق، وجد علي باشا أنّ قرار العفو عن المماليك ليس مناسبًا حاليًا، فكان يؤمن أنّ الصداقة بين الباشىٰ بوزوق والمماليك ستنتهي قريبًا، وكان يثقُ في محاولة جذبِ

(١) H.H. No: 3639/C keza Va.s1f, Tarih T.Y. sf, 203 vd.

محمّد علي خاصّة إلىٰ جانبه؛ لذلك انتظر الباشا فترةً من الزّمن بالتّحريرات التي معه، وبأوامرِ العفو عن المماليك، ثمّ بعدها أرسلها لهم، وجاء في الفرمان المرسَل أواسط جمادىٰ الآخرة ١٢١٨هـ/ سبتمبر ١٨٠٣م العفو عن إبراهيم بك، وإبقائه في وظيفة مشيخةِ البلد، وأنْ يتحرّك وفقًا لأمر علي باشا والي مصر، ورأيه[١].

وبخلافِ ذلك، أكّدت الأوامرُ المرسَلة إلىٰ والي مصر، بتاريخ رجب ١٢١٨هـ/ أكتوبر ١٨٠٣م علىٰ معاملةِ المماليك جيدًا في مصر[٢]، لكنْ لم نصادف وثيقةً حتّىٰ الآن عن سلوك المماليك، بعدَ صدور العفو عنهم، ووفقًا لما ذكرَه كاتبُ الوقائع جودت باشا: أنّه عند وصول فرمان العفو عنِ المماليك في مصر، في شعبان ١٢١٨هـ/ نوفمبر ١٨٠٣م، امتنّ المماليك منه وكتبوا رسائلَ شكر[٣]، وبعدَ أن أُرسلت الأوامرُ بالعفو عن المماليك من جديد، وإطلاق حريتهم، بدأتِ الدّولة تتحرّك مِن جديد في إبعادِ الأرناؤوط مِن مصر، ومِن هذه الفعاليات: إرسال رسالة إلىٰ قادة الباشىٰ بوزوق، وعلىٰ رأسهم محمّد علي، تطلب منهم العودةَ إلىٰ بلادهم، ولن يتعرّض أحدٌ لهم، سواء في الطريق، أو في بلادهم بالضّرر قطّ[٤]. بالإضافة إلىٰ ذلك، جاءَ في الفرمان المرسَل إلىٰ تبه دلنلي علي باشا: «*بسببِ العفو عن المماليك، ووفقًا لتحرير*

(١) Vesikan1n sureti M. Mısır No: 11 sf. 89 iceza H.H. No; 11802.

(٢) M. Mısır. No: 11,sl'. 89: H.H. 11805; H.H. 1 1870.

(٣) Cevdet, Tarih VII. 243.

(٤) M. Mısır No: I I sf. 89.

كدكلي صالح أغا، الذي يأتي ويذهبُ إلىٰ مصر، فإنّ بقاءَ الأرناؤوط في مصر يسبّب عصياناً، وبسببِ ما فهمته من حالهم وتصرّفاتهم، أنّهم لن يذهبوا إلىٰ بلادهم إذا لم يكنْ برضاهم، وإذا تأكّدوا أنّه لن يحدث لهم ضرر؛ لذلك، يجبُ إصدار الأوامر علىٰ وجه الخصوص، برسائلَ مؤكّدة إلىٰ الأشخاص الموجودين في مصر من قبل، والتّأكيد عليهم بأنّه لن يحدثَ لهم ضررٌ قطّ، وأنه سيتم إرسال رجال مُعْتمدين جُدد؛ من أجل تحقيقِ إخراجهم بسلام من مصر، وإرسالهم إلىٰ بلادهم، وعدمِ إبقاء أيّ فردٍ منهم في مصر»[1].

لم تُحقّق الدولةُ نتيجةً عمليّة من باشوات الأرناؤوط، ولا الرجال المعتمدين الذين أرسلوهم (الباشوات) في إخراج الأرناؤوط من مصر، وفي الأساس، كان يُرىٰ أنّ طلب الأرناؤوط الذهاب إلىٰ بلادهم، وخوفهم من التعرّضِ للخطر في الطّريق؛ عبارة عن خدعة، فكان قائد الباشىٰ بوزوق محمّد علي يقدّم تنازلاتٍ مزعومةً للباب العالي، بالإضافة إلىٰ ذلك، ذكرَ الوالي علي باشا في تحريراته التي أرسلها: *«أنّ مصر أصبحت مثلَ المورة يمتلكها الأرناؤوط، ويُديرها محمد علي»*[2].

---

(١) تقرير الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا بنفسه، المرسل بتاريخ ٢١ رمضان ١٢١٨هـ. No: 12521، كذا انظر:

M. Cevdet Dahiliye.

(٢) H.H. No: 3639/D.

٢- مقتلُ الوالي علي باشا، والاختلافُ بين المماليك والباشى بوزوق

يتبين مما سبق، أن الدولة إذا كانت قد بدأتِ اتّخاذَ تدابيرَ في تحقيق النّظام والأمن في مصر؛ من أجلِ إرسال مساعداتٍ إلىٰ الحرميْن ضدّ الوهابيّين، عن طريق مصر؛ فإنّ هذه التدابير لم تحقّق نتيجةً إيجابية، والوالي علي باشا لم يستطعِ الذّهاب إلىٰ القاهرة، مركزِ الولاية، بل كان محصورًا في الإسكندرية، بقيَ أنْ نقول: إنّ علي باشا كان يأملُ أنْ يتحرّك بشكل مستقلّ، كما وعد الدّولةَ في إستانبول، لكنّ العفوَ عن المماليك لم يغيّر من الوضع في مصر شيئًا، فأرسل المماليكُ خبرًا إلىٰ علي باشا، يقترحون عليه المجيء إلىٰ القاهرة، والحكم في مصر، وفقًا للأصول القديمة، ودفْع معاش (رواتب) وتعْيينات عساكر الأرناؤوط من جانبه، ويتعايش هو مِن الحصّة المخصّصة للولاية من

المحلولات، ويأتي إلىٰ القاهرة بمائتي إلىٰ ثلاثمائة شخصٍ، من عساكر الخدم، ويجلس في مقرّ الولاة القدماء رسميًّا[1].

لم يقبلْ علي باشا هذه الشروطَ القاسية، التي تُعاكس آمالَه في ولاية مصر، وبدأ يستخدمُ بعضَ طرق المؤامرة؛ فقام بالتخابر -سرًّا- مع سرچشمه محمّد علي، وقادةِ الأرناؤوط الآخرين، ومشايخ العرب والبدو، وحاول جذبَهم لصفّه بالوعود المختلفة، فأُرسل وضعُ قادة الأرناؤوط إلىٰ أمراء المماليك، بواسطة محمد علي؛ وبناءً عليه، اتّفق المماليكُ مع محمّد علي -فيما بينهما- علىٰ عمل مكيدةٍ لعلي باشا، فرَدّ محمّد علي وقادة الأرناؤوط الآخرون علىٰ رغبةِ علي باشا بشكلٍ مناسب، فقالوا: تعالَ أنتَ إلىٰ القاهرة بمقدارٍ من العساكر الشّجعان، وعند وصولك إلىٰ شلقان أو شَلَقان، أنتَ من جانبٍ ونحنُ من جانبٍ آخر، ونحصر المماليكَ وننهي أمرَهم، وكان علي باشا -الذي وثقَ واعتمدَ علىٰ محمّد علي، وقادة الأرناؤوط الآخرين، بناءً علىٰ جوابهم هذا، والجوابات الأخرىٰ- ليس لديه علمٌ بالمكيدة المدبّرة له، فخرج من الإسكندرية، وتحرّك إلىٰ القاهرة، ووصلَ رشيد بكثيرٍ من العسكر، وتحرّك من هناك بطريق النيل إلىٰ القاهرة، وكان جيشُ

(١) Kâmil Paşa, Tarih-i Siyasi-i Devlet-i Aliyye-i Osmaniye, İstanbul 1327 C.11, 298, keza Cevdet, Tarih VII. 245.

علي باشا يتشكّل من القابوقوللي (عبيد الباب)، ومن الينكچرية، الذين طُردوا من القاهرة من قبْل، وكان عددُ قوّاته جميعًا ألفين وخمسمائة، إلىٰ ثلاثة آلافِ جنديّ[١].

وجاء في التّحرير المؤرّخ بـ٧ رمضان ١٢١٨هـ/ ٢١ ديسمبر ١٨٠٣م، الذي كُتب في الأيام التي خرج فيها علي باشا من الإسكندرية: *«إنّ أمراء المماليك الذين عُفي عن جرائمهم، لم يسحبوا عساكرهم من رشيد التي سيمرُّ منها، وأجابوا عليه بردٍّ سُلْطويّ، وبينما يعد تعيين الأمراء (المماليك) من صلاحيةِ الوالي؛ إلّا أنّهم اختاروا ١٥ أميرًا منهم، مخالفين شروط العفو، ووضعوا يدَهم علىٰ الجمارك، بالإضافةِ لذلك، لم يأمنوا من محافظِ الإسكندرية خورشيد باشا، وأرسلوا ابنَ أخيه صالح بك إلىٰ محافظة الإسكندرية، وفي النهاية، وبالنّظر إلىٰ حال الأمراء، فإنّهم لن يطيعوا الدولةَ؛ فهُم يتحكّمون كليًّا في مصر كما في السّابق، والواضح أنّهم لن يعطوا أهميةً للدولة»*[٢].

في تلك الأثناء، عرفت الدولةُ أنّ علي باشا سيتحرّك إلىٰ مركز الولاية في القاهرة، فأرسلت إلىٰ علي باشا، وإلىٰ شيخ البلد إبراهيم بك، وإلىٰ عثمان بك بالرديسي؛ فرمانا جاء فيه: *«بسبب عدم جواز بقاء خسْرو باشا المقبوض عليه في القاهرة في ذلك الجانب، يجبُ إبلاغُه، بأنّه سيتمّ توجيهُ منصب مناسبٍ له،*

---

(١) Mouriez. Paoul. H, de ia M. Ali I. 128.

(٢) H.H. No; 3556.

وستبقىٰ رتبةُ الوزارة في عهدته، وعليكم بإرساله مع كافّة أمواله ومتاعِه إلىٰ رودس»[1].

وصل علي باشا الطرابلسي، في الأيام الأولىٰ من شوال ١٢١٨هـ/ أواسط يناير ١٨٠٤م إلىٰ شلقان، بالقرب من منوف، وكان محمّد علي وقادة الباشىٰ بوزوق ينتظرونه هناك، بموجب المعاهدة السريّة التي بينهم. ومن جانبٍ آخر، كان محمّد علي والمماليك علىٰ علم بكلّ حركةٍ لعلي باشا؛ لذلك حاوطت عساكرُ المماليك المكانَ؛ بحجّة أنّ علي باشا خرج بعساكر كثيرة، وبالرغم من أنّ علي باشا قد أخبر أنّ جزءًا كبيرًا من العساكر الموجودة معه سوف تذهبُ إلىٰ الحجاز؛ إلّا أنّه لم ينْجُ من هذا الموقفِ الصعب، وفي الوقت نفسه، أظهر المماليكُ لهم مكاتباتِه السّريةَ التي كتبها من قبْل؛ فاضطرّ علي باشا -أمامَ هذا الوضع- إلىٰ الانفصال عنْ عساكره الموجودة معه، وبناءً عليه، أرسل بعضَ جنود خدمِ الباب إلىٰ بلبيس، وفي الطّريق هجم المماليكُ فجأة عليهم، فقتلوه وقتلوا كتخداه، وكثيرًا من رجاله، وذمَّ كاتبُ الوقائع واصف أفندي هذه الحركةَ كثيرًا، فقال في وصفِ المماليك والباشىٰ بوزوق: الذين نقول عليهم أمراء؛ هُم سفهاءُ وأراذلُ العسكر، ثمّ قال: فعندما وصل -المُشار إليه- علي باشا

---

(١) صورة الفرمان المرسل، بتاريخ أوائل رمضان ١٢١٨هـ.

Ali Emiri III. Selim Defterleri No: 207.

كذا انظر: No: 1889.

إلىٰ بلبيس، قتله الخونةُ الذي نسمّيهم أمراء بغدر السّيف والظلم، وسلّوا سيفَهم علىٰ جميع الموجودين معه دونَ ذنبٍ، والمظلومين، وقتلوا الجميعَ، فسكنوا دارَ الحق[1].

وهكذا، ذاق علي باشا الطرابلسي مِن سمّ محمد علي، وفقدَ روحَه في الطريق. لكنْ إذا انتبهنا؛ نجدُ أنّ محمّد علي غيرُ موجودٍ في الساحة، وقتل علي باشا كان من طرفِ المماليك، وعندئذٍ يمكن أنْ نقول: إنّ قتْل علي باشا وقتْل باشوات مصر يمثّل ستارةً ثانية للمأساة، وبقتْل علي باشا الطرابلسي، يكون محمّد علي قد اقتربَ خطواتٍ كثيرة من الحصولِ علىٰ ولاية مصر، وفي الوقت نفسه، كان محمّد علي قد اكتسب ثقةَ البرديسي وإبراهيم بك تمامًا، واعتبارًا من بداية عام ١٨٠٤م، كان محمّد علي والبرديسي يتقاسَمَان النفوذَ في مصر.

وتظهرُ الحركاتُ التي قام بها سرچشمه محمّد علي، والتصرّفاتُ؛ أنّه قائدٌ عسكري محنّك، نال ثقةً وقبولًا لدىٰ البرديسي، وكان عثمان بك البرديسي كذلك يعتمدُ عليه أكثر من مماليكه وإخوتِه، وكان يعتبر محمّد علي أكبرَ سندٍ له.

بعدَ مقتل علي باشا، عاد محمّد علي وعثمان بك البرديسي إلىٰ القاهرة، وفي أوّل ذي القعدة/ ١٢ فبراير ١٨٠٤م، نزل -تقريبًا- ٤٠٠ عسكريّ من الأرناؤوط الموجودين؛ للحفاظِ علىٰ

(١) Vas1f, Tarih (yazma) sf. 225-226.

القلعة، نزلوا من القلعة واستقرّوا في بولاق، وهكذا أصبحت القلعةُ تمامًا في يد المماليك، وبهذه الحركةِ؛ اكتسب محمّد علي ثقةَ المماليك لأبعَدِ حدّ، ووفقًا لكلام جودت باشا: إنّ المماليك استأمنوا محمّد علي علىٰ أنفسهم، ومهْما يكنْ، إذا كان المماليكُ يمثّلون قوّةً كبيرة، مقابلَ عساكر الروم إيلىٰ؛ إلّا أن البرديسي كان يثقُ تمامَ الثّقة في محمد علي، وكان يعدّ عساكرَ الباشىٰ بوزوق الذين دخلوا مصر ضمنَ عساكره[1]، وهكذا، كان محمّد علي يظهر علىٰ أنّه مُنقادٌ ومُطيعٌ للمماليك، وكما نالَ ثقةَ المماليك، نجح في إخراج خسْرو باشا من مصر، وإيقاع علي باشا -الذي تعيّن مكانه- في الفخّ، ثمّ قتله.

والآن، لنتحدّث عن موقف البابِ العالي عند سماعه بمقتل علي باشا، والتّدابير التي اتّخذها، الوثائقُ التي بأيدينا بعدَ أنْ ذكرت أنّ علي باشا تحرّك إلىٰ القاهرة، يعني في أوائل رمضان، هناك أربعون يومًا فراغًا بين الوثائق، وأعتقدُ أنّ الدولة قد قطعت علاقاتِها بمصر رسميًّا في هذه المدّة؛ عند سماع موت علي باشا في هذا الوضع المُتداخل في مصر، علاوةً علىٰ ذلك، يوجد خطّ همايوني للسّلطان سليم الثالث علىٰ بياضٍ جاء فيه: *«لقد نسينا مصرَ منذ فترة، ولم يأتِ خبرٌ عنها، والمعلوم أنّ علي باشا هذا لن ينجحَ في عمله، وكنت قد قلتُ له لكنّه لم يسمع الكلام، وأقول: إنّ علي باشا لن يوفّق في تأليف قلوبِ المماليك، وأقول*

(١) Cevdet, Tarih VII. 247.

الآن: إنّ من الضروري تغييرَه من الولاية، هل سيبقىٰ وضعُ مصر هكذا علىٰ هذا الحال؟ لتنظروا في هذا الأمر!»[1].

المُلاحَظ هنا، أنّ السّلطان سليم الثالث بذل جهدًا كبيرًا في تأسيس النّظام والأمن في مصر، وخاصّة كان دائمًا ما ينبّه علىٰ رجال الدولة، وبناءً علىٰ ما جاء في تلخيصٍ آخرَ، نفهمُ أنّ الدولة كانت علىٰ علمٍ بأنّ علي باشا قد سقطَ في يد أمراء المماليك، وجاء في هذا التّلخيص ما نصّه: *«بناءً علىٰ ما كتبه باترونة بكير إلىٰ القبطان باشا، أنّ بعضَ الأتباع والأمراء قد أخذوا والي مصر -علي باشا- إلىٰ مصر، وأرسلوا العساكرَ الموجودة معه إلىٰ العريش، وإذا ظهرت تحريرات بعد ذلك فلا ينظر إليها؛ لأنّها لن تكون إلّا مكتوبةً من رأيه، ومندرج ومسطور أنّه تمّ إخطارُ علي باشا»*.

واستندَ الصدرُ الأعظم لرسالةِ والي مصر علي باشا هذه، في الاجتماع الذي أقامه من أجلِ بعض الأمور، وبينما كان يحملُ تأخّر مجيء رسائل جديدة منه، إلىٰ تعرّضِه لحادث في الطريق، فالآنَ من المعلوم أنّ علي باشا سيقول: لا، ينظر إلىٰ تحريراتي من بعدِ الآن، وسواء سينظر إلىٰ تحريراته بعيْنِ الاعتبار

(١) خط همايون علىٰ بياض: هو الاسم الذي يُطلق علىٰ الخط الهمايوني، الذي يصدر مباشرة دون الحاجة إلىٰ كتابة عريضة، أو تلخيص يعرض علىٰ السلطان. انظر:

H.H. No; 3618.

أم لا، ينظر، إلّا أنّها من الموادّ المعروفة، وقد ذكر عن الأمراء جيدًا، وشهد في حقّهم بالفضْل، وفي التّحريرات القادمة منه، وإذا كانت في صورة ترويج للمطلوبات المماثلة، وإذا أُرسلت تحريراتٌ تشعر بعكسِ حقيقة الوضع، وقد كتبت جبرًا؛ فإنه يجبُ العملُ بموجبها، ويجب -حينئذٍ- تقويةُ الإسكندرية، والحفاظُ عليها، وكتبَ السّلطان سليم الثالث بخطّه، علىٰ التّلخيص الذي أخبرَ عن مصر، ووضْعِ علي باشا: *لم يذكر الخبرَ الصّحيح*[1].

بعد أنْ سقط علي باشا في يد الأمراء، أرسل رسولًا يُخبر عن وضعه إلىٰ خورشيد باشا محافظِ الإسكندرية، فقام خورشيد باشا بإرسال الخبرِ إلىٰ الدّولة، بواسطة باطرونه بكير بك وقبطان باشا، وعلىٰ الرغم من أن علي باشا كان في موقف صعب جدًا، وعلىٰ الرغم من وصفه بأنه وزير فاشل، فإنه كان يريد مصلحة الدولة، وكان يريد أنْ يترك ملاحظةً مُثبتة عنْ وضعه، ونفهمُ من التّلخيص الثالث، أنّ الدولة عرفتْ أنّ علي باشا قد قُتل، ووفقًا لما جاءَ في هذا التّلخيص، وما ذكره مترجمُ القنصل الإنجليزي لخورشيد باشا محافظِ الإسكندرية، أنّ أمراءَ مصر قد أنزلوا علي باشا -تقريبًا- خمسة إلىٰ عشرة مِن رجاله في الصّالحية وقتلوهم، وبسبب رغبةِ العصاة الاستيلاء علىٰ الإسكندرية، كان قد أخبر بضرورةِ تقويتها، وعرضِ نتيجةِ المباحثات في هذا الشّأن، وعبّر السلطان سليم الثالث عن فكْره في الخطّ الذي كتبه علىٰ هذا

(١) H.H. No: 3603.

التّلخيص: «يُقال في هذا الوضع حسبُنا الله، ويُفهم منذ فترة هذا الأمرُ من سلوك علي باشا، لتجدوا حلًّا لذلك، هل مناسبٌ منح ولاية مصر إلىٰ الجزار؟ فلتعْرضوا عليَّ قراركم»[1].

بدأ رجالُ الدولة المباحثاتِ في هذا الأمرِ، بناءً علىٰ أمر السلطان، وما اجتمعوا عليه وقرّروه نهاية المباحثات بشأنِ مصر، كتبوه في تلخيصٍ وعرضوه علىٰ السّلطان، وتحدّثوا في هذا التّلخيص بالتفصيل عن ضرورة تقوية الإسكندرية، والحفاظ عليها؛ بإرسال السّفنِ وترتيبِ العسكر وإرساله، أمّا عنْ موضوع تعيين جزار أحمد باشا علىٰ ولاية مصر[2]، فقدْ توقّفوا قليلًا عنده، وكتبوا ملاحظاتٍ عن إيجابيّات هذا التّعيين وسلبياته، وعن مؤيّدي هذا التّعيين ومعارضيه. ونجد أنّ رجالَ الدّولة -علىٰ وجه الخصوص- كانوا يتحركون سريعًا في نقطتيْن: وفقًا لهم أنّ جزار باشا شديدٌ وقاسٍ، ويستطيع السيطرةَ علىٰ أمراء المماليك جيدًا، كما يُمكنه منعَ حدوث احتلالٍ لمصر من طرف إنجلترا وفرنسا مرّةً أخرىٰ، وقالوا باللّفظ نفسه: إذا كان جزار باشا يفكّر في فتح مصر وإخافةِ المماليك؛ فعندئذٍ سيلجأ الأمراءُ إلىٰ إنجلترا، ويسبّبون خطرًا كبيرًا علىٰ الدولة، وفي ذلك الوقت سيزداد فسادُ

(١) H.H.No: 3616.

(٢) لمعلومات عن جزار أحمد باشا محافظ عكا ووالي الشام وطرابلس وصيدا؛ انظر:

Cevdei, Tarih VII 268-70.

فرنسا أكثر، وجاء في فقرةٍ أخرىٰ: السّلوكُ الذي سيتّبعه الجزار تجاه المماليك في السّحق، سيجعل إنجلترا تساعدُ المماليك، وعندها ستكون الساحةُ مهيّأةً للعدوّ الأساس فرنسا، وفي الأمر المرسَل إلىٰ أحمد باشا الجزار بالتحرّك بهذا الفكْر، أخبروه قبلَ كلّ شيء بالآتي: شرحوا له سلوكَ إنجلترا في مصر، والتجاء الأمراءِ المماليك إليها، ويجب أن يتحرّك وفقًا لهذا، ولا يعطي الأمانَ للمماليك، ولا يُخيفهم بشدّة، وأكّدوا عليه بالتصرّف وفقًا لوظيفتِه، باستخدام طريق الوسط بين هذا وذاك، وفي الوقت نفسه، نبّهوا عليه أنّ فرمانَ العفو عنِ المماليك جاري المفعول[1].

والشّيء اللافت للنّظر هنا؛ أنّ رجالَ الدولة -من أجل عدم إبعادِ أمراء المماليك، الذين قَتلوا علي باشا عن الدولة- أبقوا فرمانَ العفو كما هو، بمعنًى آخر؛ أرادوا إخبار جزار باشا أنّهم غضّوا الطرفَ عن مقتل علي باشا، وفي النهاية بعد أنْ ذكروا إيجابياتِ تعْيين جزار باشا وسلبياتِه، ومؤيّدي ومعارضي ذلك؛ تركوا الأمرَ للسّلطان، فكتب السّلطانُ سليم الثالث علىٰ التّلخيص بخطّه السلطاني: *«وزيري، فلتتوكّل علىٰ جناب ربّ العالمين، ولتعيّن جزار سريعًا، ولترسل التحريرات بخصوص تأمين تجاهلِ الأمراء، ولتُفهِم جزار باشا بضرورةِ أن يلتزم بالعفو عن الأمراء،*

(١) صورة التحريرات رقم H.H. No: 11925

وإبقائهم في مصر، وفّق اللهُ بالخير، إنْ شاء اللهُ سيكون خيرًا»[1].

وبناءً علىٰ هذا القرار، في الأيام الأولىٰ من ذي القعدة ١٢١٨هـ/ فبراير ١٨٠٤م، أُرسل فرمان جاءَ فيه: «*بسبب بقاءِ علي باشا والي مصر مدّةً طويلة في مصر من قبل، وحدوث ألفة وأنسٌ بينه وبين الأهالي والأمراء، وأنّ تعيينه علىٰ ولايةِ مصر كان بهدفِ دفعِ الخلل الواقع في مصر بسهولة، لكنْ بسبب أنّه لم يكن له نصيبٌ في تدبير الأمور الملكية، ولم يوفّق في التأليفِ بين طائفةِ الأمراء، وبين طائفة الأرناؤوط، أو إخراجهم من مصر، وفي النهاية تمّ قتلُه كما سبق، وأمام ذلك؛ يجبُ توجيهُ ولاية مصر إلىٰ وزيرٍ مُقتدر*»[2]. وهكذا، إذا كانت ولايةُ مصر قد وجّهت بالفعل إلىٰ أحمد باشا الجزار؛ إلا أنه كان مسنًّا، ومَريضًا في الوقت نفسه، (فلم يستلم وظيفته).

في الفترةِ التي كانوا يفكّرون فيها في تعيين أحمد باشا الجزار علىٰ مصر؛ حدثت بعض الوقائع الجديدة في الولاية، هي: قتل علي باشا الطرابلسي؛ ممثّل الدّولة الرسمي في الولاية،

(١) H.H. No; 3652.

M, Mısır No; 11 sf. 112-113; H.H. No: 11983 Keza Vasıf, Tarih (yazma)sfb 225-226.

(٢) M, Mısır No; 11 sf. 112-113; H.H. No: 11983 Keza Vasıf, Tarih (yazma)sfb 225-226.

واتحاد القوتان مع بعضهما البعض؛ المماليك والباشىٰ بوزوق، وبتعبيرٍ آخرَ؛ حكم عثمان بك البرديسي ومحمد علي في مصر.

وكان محمّد علي مطيعًا جدًّا، وبالتالي كانت تبدو مصر مستقرّةً بواسطة العصاة، في تلك الأثناء، حدثت حادثةٌ كانت سببًا في ظهور بعض التّطورات الجديدة في مصر من جديد، هذه الحادثةُ هي: عودة محمّد بك الألفي -من زعماء المماليك- من إنجلترا إلىٰ مصر، فقد أخبر يحيىٰ بك المحافظُ الموجود في رشيد؛ أنّ محمد بك الألفي وصل أبا قير في ١٥ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ ١٦ فبراير ١٨٠٤م. وكما ذكرنا سابقًا، أنّ محمد بك الألفي أحدَ زعماء المماليك مثل إبراهيم بك ومراد بك، قد ذهبَ في نهاية مارس ١٨٠٣م من الإسكندرية مع قوات الإنجليز العسكرية إلىٰ إنجلترا؛ بهدف إجراء بعضِ المصالح السّياسية، وكان الإنجليز قد أخذوا الألفي الذي هو أقوىٰ الأمراءِ المماليك في مصر؛ أخذوه إلىٰ إنجلترا؛ من أجل التقرّب من الإنجليز، وتحقيق مصالحِهم في مصر من خلاله، والإفادةِ منه في المستقبل، وبينما كان الوضعُ في مصر يسير داخل مجموعة من التطوّرات والتمرّدات، جاء محمد بك الألفي إلىٰ مصر، وهو الذي يمتلك قوةً ونفوذًا في نصف الأراضي المصرية، ونصفُ الأمراء المماليك تابعون له، والنّصف الآخر كان تابعًا للبرديسي؛ ولذلك لم يُعجِبْ كثيرًا من أمراء المماليك -وخاصّة عثمان بك البرديسي - قدومُ الألفي إلىٰ مصر قطّ، لكنّ الذي فرح كثيرًا

بقدوم الألفي بك (الكبير)؛ هو مملوكه كوجوك ألفي بك (الألفي بك الصغير)، وبينما الوضعُ هكذا، كان البرديسي محقًّا في قلقه؛ لأنّه عندما وصل الألفي مصر، كان سيأخذ منه النفوذَ، وربّما يأخذ نفوذَ المماليك في يده؛ لذلك كان من الطّبيعي أنّ عثمان بك البرديسي -الذي لم يتوقّع قدومه- يتصرّف علىٰ هذا النّحو من عدم الارتياح.

فقرّر (البرديسي) إعدامَ الألفي، أو إعدامَ الذين يؤيّدونه، وإزالتهم؛ لذلك كان من المتوقّع حدوثُ معركةٍ كبيرة بين أمراءِ المماليك علىٰ النّفوذ والسّلطة في مصر، والذي يعرف الوضعَ جيدًا ويفهمُه هو محمّد علي؛ فقام بتحريضِ البرديسي وتأليبِه علىٰ الألفي بك، وكان محمّد علي صاحبَ مبدأ الإفادة القصْوىٰ لصالحه؛ بضرب القوّاتِ العسكرية بعضها البعض، كان يعلم جيدًا أهميةَ حدوثِ معركةٍ بين المماليك علىٰ النّفوذ لصالحه؛ لذلك كان حدوثُ مثل هذه المعركة تخدم مصالحَه، فاتّفق محمّد علي والبرديسي علىٰ حيلةٍ؛ للخلاص من الألفي بك ومؤيّديه وقتلهم؛ هي أنْ يخدعوا أمراءَ المماليك التّابعين له الموجودين في القاهرة؛ بحجّة أنّهم سيخرجون ليلًا لاستقبال الألفي بك، وفي تلك الليلة يتمّ قتلُ رجل الألفي بك -وهو «شاش حسين بك»-، فحاصر محمّد علي والباشىٰ بوزوق منزل كوجوك ألفي بك؛ أهمّ رجلٍ للألفي في مصر، والذي تركَ له حكمَ المماليك أثناءَ تواجده في إنجلترا، فاضطرّ كوجوك ألفي بك إلىٰ الفرارِ من القاهرة،

فنهب الباشىٰ بوزوق منازلَ الألفي الصّغير، ومنازلَ الأشخاص الموجودين معه.

وبعدها قرّر أتباعُ الألفي بك -الموجودون في القاهرة- الدّخولَ في معركة ضدّ البرديسي ومحمّد علي، وكان شيخُ البلد إبراهيم بك ليس لديْه علمٌ بما يحدث، وأصابتِ الدّهشةُ الناس الذين لم يدركوا سببَ النّهب والقتل الذي يسمعونَ به، لدرجةِ أنّهم لم يفتحوا دكاكينهم.

جامع السلطان حسن بالقاهرة

وبينما كان عثمان بك البرديسي يحاول القضاءَ علىٰ أتباع الألفي بك الموجودين في القاهرة من جانب، أرسل رسالةً إلىٰ يحيىٰ بك محافظِ رشيد، الذي أخبرَ بقدوم الألفي بك إلىٰ مصر من جانبٍ آخر؛ أمرَه بإيجادِ فرصةٍ مناسبة، وقتْل محمد بك الألفي، أو إعدامه، في تلك الأثناء، كان محمد بك الألفي يستعدّ للخروج من رشيد، متّجهًا إلىٰ القاهرة مِن طريق النيل، وهدفُه الدخولُ إلىٰ القاهرة فجأة، لكنْ كان -سواء يحيىٰ بك، أو البرديسي ومحمّد علي- قد تحرّكوا من الجانبيْن؛ للقبض عليه وقتلِه، لكنْ عندما علمَ الألفي بك بالمكيدةِ المدبّرَة له؛ حاول أنْ يهرب دونَ تركِ أثر، وبينما كاد يسقطُ في يدِ عساكر المماليك والباشىٰ بوزوق مرّةً أو مرتين، نجا منهم، ونجح في الهروب، وبالرّغم من أنّهم بحثوا عنه جيدًا في كلّ مكان، إلّا أنّهم لم يعْثروا عليه، وعندما علم البرديسي أنّه لم يتمكّن من القبض علىٰ الألفي بك؛ أصابَه الذّعر؛ لأنّ البرديسي كان يعلم أنّه لو نجح في الفرارِ، سيذهب إلىٰ الصّعيد وفقًا لعادة المماليك القديمة، ويجمع مؤيّدين له من هناك، وهذه القوة الجديدةُ ستكون خطرًا كبيرًا عليه؛ لذلك أرسل رسائلَ إلىٰ كُشّاف جرجا وقنا، أمرهم بالتنكيل بالألفي الكبير، والألفي الصّغير، وقتلهما إذا جاءَا الصّعيد، وفي الوقت نفسه، نشر البرديسي عساكرَ المماليك في شكلِ جماعاتٍ؛ للقبض علىٰ منافسه.

في تلك الأثناء، كان الألفي الصّغير -الذي هربَ من الجيزة- قدْ فرض ضرائب باهظة علىٰ الناس؛ الذين يمرّ عليهم في طريقِه، فقد ذكر كاتبُ الوقائع جودت باشا، أنّ الوقائع المتعلقة بمجيء الألفي بك، وخاصّة فراره، مثيرةٌ للجدل كثيرًا[١].

ومِن جانبٍ آخر، عندما سمع البابُ العالي بعودة محمد بك الألفي، قد قلقَ من تدخل إنجلترا علىٰ وجْه الخصوص في شئون مصرَ من جديد، لذلك أجرىٰ مباحثاتٍ مع سفراء الإنجليز والرّوس في هذا الشّأن، ويفْهَم من ذلك، أنّ هذه المباحثات كانت بخصوص تقوية الإسكندرية، وبعض الأمور الخاصّة بإرسال عسكرٍ وأسطول إلىٰ هناك[٢].

كان H. Deherain محقًّا جدًّا في قوله: إنّ محمّد علي استخدم عثمان بك البرديسي في مواجهة محمّد بك الألفي بمهارةٍ كبيرة، وبتعبيرٍ آخرَ: إنّه استخدم مملوكي ضدّ مملوكيّ آخر. وهكذا يكون محمّد علي قد غيّر أساليبه، لكن كلّها كانت تسير نحْو تحقيق هدفه[٣]. فمِن أجل أن يقضي علىٰ القوىٰ في البدايةِ؛ استخدمَ منافسًا ضدّ منافسٍ آخر، وكما ذُكر سابقًا؛ أنّ محمّد علي

(١) Cevdet, Tarih VII. 247 vd; EIIT Beyin Gelişi Hakk1nda bkz. H.H. No: 3623.-keza İbnüiemin Ktb, T.Y. 2730 varak 5 vd.

(٢) Bu hususla bkz. H.H. No: 3625; H.H. No: 4424; H.H. No: 3593.

(٣) Historie de la Nat. Egyptienne T. VI. p. 22.

قضىٰ علىٰ الباشىٰ بوزوق بالينكچرية، وعلىٰ الينكچرية بالمماليك، وعلىٰ المماليك بالمماليك، وبعد ذلك بدأ يفيد مِن الوضع لصالحه بشكلٍ عظيم، وفي النهاية، وقع المماليكُ في بعضهم، وانقسموا إلىٰ فريقين، وكان محمّد علي يفكّر في الإفادةِ من معركة النّفوذ الواقعة بين المماليك؛ لأنّه كان يرىٰ أنّ جذب البرديسي لجانبِه سيحقّق له فائدةً من بعد الآن، بقيَ أنْ نقول: إنّ توزيعَ قوات المماليك في البلاد والنّواحي (لتتبّع الألفي)؛ قلّلَ من القوات المملوكية في القاهرة.

وأمامَ هذا الوضع، لم يبْقَ للمماليك هيبةٌ في أعين الباشىٰ بوزوق، ومهما يكنْ من أمر، إذ كان ظاهر الأمر أنّ القواتِ العسكرية الموجودة في القلعةِ، أو الأبراج، أو في الاستحكامات الأخرىٰ، هي تحت خدمةِ البرديسي؛ إلّا أنّ الحقيقة هي؛ أنّ جميعَ هذه القوّات العسكرية من عساكر الباشىٰ بوزوق، لم تكن تابعة سوىٰ لمحمّد علي، ولم يفكّرِ عثمان بك البرديسي-علىٰ الإطلاق- أنّه سوف يأتيه خطرٌ من محمّد علي، وربّما لأنّه يثقُ فيه لأبعدِ درجة؛ كان يستخدم في حمايةِ منزله عساكر من الأرناؤوط، وكان البرديسي يعتقد أنّ محمد علي مثل أخيه، من المُمكن أن يستخدمَه مثل الآلة في أي وقت، لكنّ الحقيقةَ التي ظهرتْ من الأفعال التي قامَ بها محمّد علي، أظهرتْ له أنّه لم يكنْ يعلم أنّ محمّد علي كان يعملُ من أجل مصالحِه فقط، فقدْ كان محمّد علي يتحرّك بحرص وتدبيرٍ شديديْن، ويزن الأشياء،

لدرجةِ أنّ عثمان بك البرديسي كان بعيدًا جدًّا عن فهْم مثل هذه التدابير الخفية، وهكذا، كان البرديسي مغيّبًا جدًّا (في سباتٍ عميق) من طرف محمد علي؛ صاحبِ الذّكاء الشيطاني.

وجدَ محمّد علي الفرصةَ سانحةً -عند إرسال البرديسي قوّاتٍ كثيرة من المماليك- للبحث عن محمد بك الألفي؛ بسبب عدم معرفةِ مكانه؛ فقام بتحريض الباشىٰ بوزوق الموجودين تحت طوعه، وحثّهم بشدّة علىٰ المطالبة بعلوفاتهم المتأخّرة.

وفي يوم ٢٢ ذي القعدة ١٢١٨هـ/ نهاية مارس ١٨٠٤م، طلب الباشىٰ بوزوق من الأمراءِ علوفاتهم التي تأخرت كثيرًا، وأخبروه بأنّه إذا لم يدفعوا؛ فسوف تحدُث مشكلة علوفة من جديد، كما حدثتْ مع الوالي خسْرو باشا، الذي طُرد من الولاية، وهذه المرّة، كان في الساحة البرديسي بك مكان خسْرو باشا.

ومن جانبٍ آخر كان محمّد علي يقف -من جديدٍ- من وراء الستار مع الباشىٰ بوزوق، وبناءً علىٰ إصرار عساكر الباشىٰ بوزوق وعنادهم في طلب العلوفة، كان محمّد علي يلعب دورَ الوسيط بين المماليك وهذه القوات، وأخمدَ الفتنةَ بوعْدهم بدفع هذه العلوفات في خلال عدّةِ أيّام، وفرّقَ الجميع، ومن أجلِ حلّ مشكلة العلوفة، أو المشكلة المالية الباقية من عهد الوالي خسْرو باشا، فكّر أمراءُ المماليك في فرض ضرائب جديدة، فكانوا يريدون أخذ ضرائب علىٰ الأملاك والعقارات لمدّةِ سنة مقدَّمَة،

نصفُها علىٰ المالك، والنّصفُ الآخر علىٰ المستأجر، وعندما بدءوا في تنفيذ ذلك، خرجَ أهالي القاهرة ضدّ زعماء المماليك، وخاصّة ضدّ عثمان بك البرديسي، واشتكوا كثيرًا من ذلك؛ فاستغلّ محمّد علي فرصةَ غضب الأهالي، وأرسل بعض جنودِه إلىٰ الأهالي؛ ليخبروهم أنّ عساكر الباشىٰ بوزوق معهم، ويقفون بجوارهم، وكانت هذه العساكرُ تقول للأهالي: نحنُ معكم، أنتم رعايا ونحنُ عساكر، ونحنُ غير راضين عن هذه الضّريبة، فعلوفاتنا علىٰ الميري، ولن نأخذَ منكم شيئًا. وكانوا يسيرون وسطَ الناس. وفي الوقت نفسه، ذهب كتخدا محمّد علي إلىٰ الجامعِ الأزهر، وقال الكلام نفسه، وطيّبَ خاطرَ الناس[1].

نجد أنّ الجبرتي في «تاريخه»، وكاتبَ الوقائع جودت باشا في «تاريخه»، قد أثبتَا الدورَ الذي كان يلعبه محمّد علي منذُ البداية حتّىٰ هذه اللحظة من وراءِ الستار، وأساسَ السياسة التي كان يسير عليها. ونتحدّث أوّلًا عنْ ما ذكره الجبرتي من معلوماتٍ مهمّة في هذا الشأن: «كان في ذهن محمّد علي منذُ فترةٍ طويلة أنْ يصبح واليًا مستقلاّ في مصر، لكن لم يقذفْ نفسه مثل طاهر باشا فجأة في الوسط، فكان عليه أوّلًا أن يتخلّص من الصّعوبات المحتَمَل وقوعُها واحدةً إثر واحدة؛ حتّىٰ لا يقع في الخطر في النّهاية، فكان يريد أنْ يؤمّن ويثبّت قدمَه جيدًا؛ في سبيل الأمل الذي يسعىٰ خلفه، فكان يتحرّك بحرصٍ شديد واحتياطٍ كبير

(١) Cevdet, Tarih VII. 250; Keza İbnülemin Ktb. T.Y. 2730 vk. 8.

بشكل سريّ نحو آماله وأهدافه، وفي الوقت نفسه، كان يتحرك بشكلٍ سريع نحوَ الأمام. وبناءً عليه، قام -في البداية- بتحريضِ العساكر ضدّ خسْرو باشا، فأخرجه بقوّةِ طاهر باشا من مصر، ثمّ أعدم طاهر باشا بواسطة الينكچرية، وحارب أحمد باشا، وبسبب أنّه لا يريد رؤية الينكچرية في مصر؛ لأنّه يعرف قوّتهم، ويعرف أنّهم إذا ثبّتوا قدمهم في مصر؛ فلنْ يحقّق بعساكره الاستقرار في مصر؛ بسبب ذلك، أحضرَ أمراءَ المماليك -من دون أن يضيّع وقتًا- إلىٰ القاهرة، ومثلما كسر قوّةَ الينكچرية، تمكّن من إخراج أحمد باشا من مصر، وأمرَ بإعدام الدّفتردار والكتخدا؛ اللّذيْن كانا غيرَ راضيَيْن عن سياسته، واتّفق مع المماليك في القبض علىٰ خسْرو باشا الموجود في دمياط؛ لأنّه يمثّل تهديدًا لمصر، فساروا علىٰ دمياط، وقبضوا علىٰ خسْرو باشا، وحبسوه في قلعة القاهرة، ثمّ خدعوا علي باشا الطرابلسي المعيّن واليًا علىٰ مصر، وأخرجوه من الإسكندرية، وقتلوه في الطريق، وعندئذ أصبحت القوةُ والقلعة والأبوابُ في يد المماليك تمامًا، وكان ينبغي علىٰ المماليك أن يُدخلوا جميع قواتهم إلىٰ القاهرة؛ لكسْرِ قوّة محمّد علي؛ من أجل تأمينِ مستقبلهم، لكنّهم لم ينتبهوا لذلك؛ لأنّ محمّد علي كان يُظهر نفسَه علىٰ أنّه مُخلص لعثمان بك البرديسي، وكان البرديسي يعتمدُ عليه ويشاوره في كلّ شيء، وكان يرىٰ البرديسي أنّ عساكر محمّد علي هي عساكرُه، كان يظنّ ذلك؛ لأنّ محمّد علي كان قد اقتربَ من إبراهيم بك من قبلُ، وحدثت

ألفةٌ بينهما، وفهِمَ أنّ إبراهيم بك محتاط وكَتوم، ولن ينجح في عملٍ معه، وبناءً عليه، أظهر محمّد علي نفسَه للبرديسي علىٰ أنّه أخوه، وأنّ عساكره تعمل في خدمته؛ فاعتمدَ البرديسي علىٰ محمّد علي، ووثقَ فيه للغاية، وظنّ أنّه صديق صدوق وأنيسٌ له، يعني: انخدَعَ بحيَلِه. وكان البرديسي يعتقد أنّ عساكر محمّد علي -التي استخدمها في التنكيل بمنافسه محمد بك الألفي- هي قوّةٌ يمكن الاعتمادُ عليها، والوثوق بها، لكنّ هدف محمد علي هو وضعُ البرديسي تحت قوّةِ عساكره، وتمكّنهم من السّلب والنهب في خضمّ الأحداث المتنوعة، وكسب المال من جانب، وضرب المماليك بعضهم في بعض، وإضعافهم من جانبٍ آخر، وهكذا كان محمّد علي يسيرُ نحو هدفه بطرقٍ غير مباشرة، وبحرصٍ شديد، ويتّبع سياسة المكر والحيلة[1].

لنأتي إلىٰ حركة محمّد علي ضدّ عثمان بك البرديسي؛ كان الأهالي غيرَ راضين عن الضريبة الجديدة؛ التي بدأ أمراءُ المماليك جمْعَها منهم، فمالوا إلىٰ عساكر الباشىٰ بوزوق، وحوّلوا ظهورهم عنْ أمراء المماليك، ونجح محمّد علي بالحيلِ التي عملها في جذبِ العلماء خاصّة، والأشخاص المُعتمدين إلىٰ جانبه، والناس التي ذاقت الويلَ من الأرناؤوط من قبلُ، اقتربت هذه المرّة من الباشىٰ بوزوق، وهكذا كان التوازنُ السياسي يسيرُ في غير صالح المماليك، وبتعبيرٍ آخر: اتّحدت عساكرُ الباشىٰ بوزوق مع أهالي القاهرة ضدّ المماليك.

---

(١) Cevdet, Tarih VII. 251-252.

كان عثمان بك البرديسي لا يعلم شيئًا عن المؤامرات التي يحيكُها محمد علي، فسخط علىٰ تصرّفات الأهالي هذه، وذهب إلىٰ مصرَ القديمة يلعنُ النّاس، في الوقت نفسه، كان إبراهيم بك والبرديسي بك قد أرْسَلَا خطاباتٍ إلىٰ المماليك؛ الذين ذهبوا للبحثِ عن الألفي بك يستعجلونهم بالعودةِ إلىٰ مصر، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، أرسلوا أوامرَ إلىٰ أمراء المماليك الموجودين في رشيد ودمياط والصّعيد، بالمجيء بعساكرهم سريعًا، وبناءً علىٰ ذلك، تحرك محمّد علي ضدّ إبراهيم بك والبرديسي بك.

وفي ٢٩ ذي القعدة ١٢١٩هـ/ مارس ١٨٠٤م، اجتمع الباشىٰ بوزوق فجأةً في الأزبكية، وانقسموا إلىٰ قسميْن: أحدهما ذهبَ للهجوم علىٰ البرديسي، والآخرُ ذهبَ للهجوم علىٰ إبراهيم بك، تحت قيادة حسن بك، فحاصروا منزلَ إبراهيم بك، وجاءت جماعة أخرىٰ فحاصرت منازل أمراء المماليك الآخرين وبيوتهم، وكان علىٰ رأس الغافلين عمّا يحدث من أمراءِ المماليك؛ عثمان بك البرديسي، وتمكن إبراهيم بك وآخرون من النّجاة بأرواحهم بصعوبة، ولم يجدِ المماليكُ الموجودون في القلعة حيلةً أخرىٰ سوىٰ الهروبِ؛ عندما سمعوا بهروبِ أمرائهم، ونُهبت في تلك الأثناء كافّةُ بيوت المماليك، مثلما قُتل كثيرٌ منهم[١].

(١) بخصوص الوثائق التي تتحدث عن هذه الواقعة انظر:
H.H. No: 3649/A; H.H. No: 3450; H.H. 3649/b, H.H. No: 3447/B; H.H. No: 3447/E Keza Vas1f, Tai'ih (yazma) sf. 226-227.

محمد علي باشا

(La Nouvelie Egypte, Paris 1905, s.l8)

وقعتْ كلّ هذه الأحداث في خلال يوم، وانْهار حكمُ البرديسي من قوّات الباشىٰ بوزوق؛ التي كان يعتمدُ عليها، وهكذا أصبحت إدارةُ مصر تحتَ يد محمّد علي تمامًا.

لكنّ محمّد علي لم يكن في وضعٍ يسمح له بالتعيين في هذا المقام من قِبَل البابِ العالي، فكان محمّد علي يعرف أنّه إذا جلس علىٰ مقامِ الولاية الآن، فسينُظر إليه علىٰ أنّه عاصٍ ومُغتصبٌ للولاية، لذلك كان يريدُ أن يصل لهذا المنصبِ بشكلٍ شرعيّ قبل كلّ شيء؛ لذلك كان يتحرّك بخطًى ثابتة، وبحرص، وبالرّغم من أنّ محمّد علي -الرجلَ الدّاهية، الذي يعرِفُ جيدًا

كبحَ جماح طموحه الشّديدة عندَ اللّزوم- هو الحاكمُ الوحيد في مصر آنذاك؛ إلّا أنّه لم يُردْ أنْ يُظهر هذا، وتحرّك علىٰ النّحْو الآتي: عندما هربَ المماليكُ من مصر، وأصبحت القلعةُ فارغة؛ أخذ محمّد علي خسْرو باشا -الوالي السّابق المحبوس في مصر منذُ ثمانية أشهر- وصعدَ به إلىٰ القلعة، وأخبر الناس بأنّه أعطاه الأمان، وعادَ محمد علي إلىٰ منزلِه الموجود في الأزبكية، وبعدها شاع خبرٌ؛ أنّ خسْرو باشا عادَ من جديد إلىٰ ولايةِ مصر، حتّىٰ إنّ كثيرًا من المشايخ ووجهاءِ الولاية هنّأوه بالمنصب، وهكذا، لم يكتفِ محمّد علي بإنقاذ خسْرو باشا من يدِ المماليك فحسب؛ بل جعله يمتنّ له علىٰ موقفِه ذلك.

والحقيقةُ، أنّ خسْرو باشا لم يعرفْ كيف يشكر محمّد علي؛ الذي أعاده من جديد إلىٰ ولاية مصر، وكيف يُكرمه، لكنّ كاتبَ الوقائع جودت باشا، ذكرَ هذا الموقف بوضوحٍ، فقال: ليس مناسبًا ما فعله محمّد علي؛ مِن تعيين خسْرو باشا علىٰ ولاية مصر من جديدٍ؛ لأنّ معظمَ القوات التي كان يعتمدُ عليها من الأرناؤوط، الذين كانوا أتباعَ طاهر باشا المقتول، وهؤلاء وأهالي مصر كانوا ضدّ خسْرو باشا ويُخالفونه، وعندَ جلوس خسْرو باشا علىٰ مقامِ الولاية، فمِن المحتَمَل أنّ عساكر الباشىٰ بوزوق الأرناؤوط سيكونون ضدّه، المهمّ، بدأ خسْرو باشا مباشرةَ عمله، وبدأ محمّد علي في السياسة التي يتّبعها منذُ البداية، وبعدَ هذه الأحداث المتتابعة، كان من الصّعب علىٰ محمّد علي -الذي يريدُ

الاستحواذَ علىٰ مصر- أنْ يدخل تحتَ أمرِ وزيرٍ كان موجودًا تحت معيّته من قبْلُ، ويسلّمه الولاية، وبينما الوضعُ علىٰ هذا النّحو، وبالرغم من عدم مرور وقت طويل، حدث أنّ خسْرو باشا -الذي لم يدركْ آمالَ محمّد علي وأهدافه- راح ضحيةَ لعبةٍ جديدة منه[1].

كان هذا الوضعَ في الحقيقة، تدبيرًا مؤقّتًا؛ لأنّ محمّد علي -قبل بداية حربه مع المماليك- كان قد اتّفق مع خورشيد باشا محافظ الإسكندرية، ودعاه إلىٰ مصر، ووقّع هذا الاتفاق وفقًا لتحريراتٍ مختلفة من خورشيد باشا محافظِ الإسكندرية، وصالح أفندي أمين بناء السدّ، بتاريخ ٢٣ ذي القعدة ١٢١٨/ ٤ نيسان ١٨٠٤م علىٰ هذا النّحو: ذهب عمر بك من قادة الأرناؤوط الموجودين في رشيد، وصالح قوريجا (قوج)، وحسين المذكور بـ «طاغلي كور سليمان» أو «علي خوجا»؛ ذهبوا إلىٰ خورشيد باشا، وعرضوا عليه الوضعَ، فقالوا: *«لقد اضطُررنا إلىٰ اللّجوء إلىٰ المماليك من قبْلُ؛ لتخليص أنفسِنا؛ بسبب الحركة التي قُمنا بها بجهالةٍ ضدّ خسْرو باشا من قبل، وبتحريضٍ منهم، شاركنا في أحداثِ دمياط ورشيد، وبعد أنْ جاء علي باشا إلىٰ الإسكندرية، تمّ السّماحُ لنا بالعودة إلىٰ بلادِنا، مع العفو عن جميعِ جرائمنا السابقة، من طرف الدّولة العلية، وإذا كان قد جاء رجالٌ من ولايتنا، لم نثقْ في علي باشا؛ بسبب مجيء رسائل يومًا بعدَ يوم،*

(١) Cevdc1, Tarih VII. 254.

فلم نتجرّأ علىٰ الخروج من مصر، ولو كنّا نعلم أنّ الأمراءَ هذه المرّة سيقومون بطرد علي باشا، أو أنّهم سوف يعْدِمونه؛ لم نكنْ نرضىٰ بهذا، حتّىٰ إنّه بعد هذه الواقعة، قلنا لهم: لماذا هذه المعاملة مع وزيرِ الدّولة؟ هذا عملٌ ليس جيّدًا البتّة، فظهرت العداوةُ بيننا، وكنّا نعلم أنّ وجودَنا بينهم بعدَ هذه الأحداث؛ سوف يسبّب لنا تهمة، ويؤدّي إلىٰ غضب السلطان علينا، وبينما نحنُ علىٰ هذا الفكر، جاء محمد بك الألفي من إنجلترا، فبدأتْ معركة الاستحواذ علىٰ السلطة بين الأمراء، فقلْنا: طائفةُ المماليك التي لم تستطِعِ العيشَ والانسجام مع بعضها، وهُم أبناءُ جنسٍ واحد؛ هل سيتّفقون معنا نحن؟! ومِن المُمكن أن يوقعونا في مكيدةٍ في النهاية، لهذا لا يجوز الاتّفاقُ مع طائفة علىٰ هذا الوضع، وتشاورنا فيما بيننا سرًّا، وقرّرنا أنّ الفرصة سانحةٌ الآن، بعد خروجِ جزءٍ كبير من المَماليك من مصر، فلم يعطونا علوفات تسعةِ أشهر بقيت في ذمّتهم، ولو أعْطونا العلوفات، أو لمْ يعْطونا، مهْما يكن؛ فلابد من الهجوم عليهم وإخراجهم من مصر، ومِن أجل إقامةِ الحكومة في مصر؛ يجب تعيينُ علينا باشا عثمانيّ من الدّولة العلية، وثقتنا فيك واعتمادُنا عليك -خورشيد باشا- لأبعَدِ درجة، ولم يظهرْ منك حتّىٰ الآن ردُّ فعْل، فعندما أبعدنا المماليكَ نحن، هل تتعهّد وتُقْسم علىٰ الدّخول بيننا، وأن تصبح قائدًا علينا، دون النظر إلىٰ مجيء خبرٍ، أو فرمان من الدّولة العليّة؟ فالآن ليس هناك داعٍ للمجيء والدّخول بيننا،

فعندما طردنا المماليكَ أخبرناك، وعندئذٍ، هل تُقْسم وتتعهّد لنا بأنّك ستأتي سريعًا (إلىٰ مصر)؟ ونحن نثقُ فيكَ في حلّ هذا الأمر، والدّولةُ ستكتب بناءً علىٰ مُرادنا عندما يتحقّق الأمر، ونحن سنكتبُ محضرًا بذلك، ونرسلُه للدّولة، وإنْ شاء الله حتّىٰ تحسن عليك الدّولةُ بولاية مصر، نأملُ أن نكون تابعين لك بكلّ أحوالنا، هل تتعهّد بحمايتِنا بهذا الشّكل؟ إذا تمّ توجيهُ مصر إلىٰ شخصٍ آخر؛ فلن نقبلَ نحن، فلتعتمدْ علينا؛ فقد اتّفق كلّ الأرناؤوط وعساكر الجبلِ؛ علىٰ ألّا يخرج خورشيد باشا من بيننا، وسنكون معًا في كلّ الأحوال»[1].

وبسببِ أنّ حسين خوجا من الباشىٰ بوزوق؛ قامَ بإرسال تكليف محمّد علي إلىٰ خورشيد باشا، فرَدّ خورشيد باشا علىٰ هذا التّكليف قائلًا: *«أوافق تمامًا علىٰ هذا، لكن إذا كانوا قد تخلّصوا من خطرِ المماليك؛ أقسِم وأتعهّد بالتحرّك في الحالِ من الإسكندرية والذّهاب إلىٰ مصر»*، وفي الوقت نفسه، أرسل خورشيد باشا إلىٰ إستانبول، يطلبُ من الدّولة إرسالَ رسالة شكرٍ وإحسانٍ إلىٰ قادة الباشىٰ بوزوق.

وهكذا، كان سرچشمه محمّد علي -قبل أنْ يواجه المماليك- أرسل للاتّفاق مع خورشيد باشا بواسطةِ عمر بك الموجودِ في رشيد، وقادةٍ آخرين، وأخذ ضماناتٍ منه، الشّيء

(١) بخصوص تقارير الباشي بوزوق بشأن اقتراحهم علىٰ خورشيد باشا انظر:
H.H.No; 3623, Keza H.H, No: 3623/A Sed-bina Eminin tahriri H.H. No: 3450/B.

اللافت للنّظر هنا؛ أنّ عمر بك وآخرين، قدْ أدوا دورًا مهمًّا، في عدمِ ذكر اسم محمّد علي في التّكليف المقترح لتأمين خورشيد باشا، وبسبب قربِ محمّد علي مِن رشيد آنذاك؛ كان يُفهَم أنّه سيتوجّه في طريقه علىٰ هذا النّحو؛ لذلك بعد أنْ خرج خسْرو باشا من القلعةِ، نزل إلىٰ بولاق بعد عدّة أيام، أي: في ٢ ذي الحجّة ١٢١٨هـ/ ١٤ مارس ١٨٠٤م، ومِن هناك أُرسل إلىٰ الإسكندرية، وكانت ولاية خسْرو باشا الثّانية مثل ولاية أحمد باشا بالضّبط؛ لم تستمرّ سوىٰ يوم أو اثنين[١].

ومن جانبٍ آخر، كان المماليكُ -كما ذكرنا سابقًا- قد هربوا خوفًا من القتل، فذهب بعضُهم إلىٰ نواحي حلوان، فأرسلَ محمّد علي -كخطوة أولىٰ- إلىٰ خورشيد باشا دعوةً بأسماء القادة المذكورين سابقًا، يدْعوه بالحضور إلىٰ القاهرة سريعًا؛ لتحقيق غايته، ورجاه بأسلوبٍ جميل، وجاء في هذه الدعوة؛ أنّ المماليك قد تشتّتوا في خلال ٦ ساعات، أي: في فترةٍ قصيرة جدًّا، وأصبحوا في حالة مُزرية[٢]، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، تمّ استدعاء عمر بك -الموجود في رشيد- والقادة الآخرين بالقدوم إلىٰ القاهرة، بعدَ أن ينال جميعِ المماليك عقابهم، ومناداة الدّلّالين بأنّ الحكمَ للسّلطان في مصر[٣].

---

(١) Cevdet, Tarih VII. 254.

(٢) 188H.H. No:3646/A.

(٣) H.H. No: 3450/D; H.H. 3623/C.D

وبناءً علىٰ هذه الدعوة، وبعد أنْ تعهّد خورشيد باشا في البداية، ترك عثمان أغا علىٰ محافظة الإسكندرية، وخرج متوجّهًا إلىٰ القاهرة، في ٥ ذي الحجة ١٢١٨هـ/ ١٧ مارس ١٨٠٤م[١]، وبعد عدّةِ أيّام من خروج خورشيد باشا من الإسكندرية، ذكرَ في خطابه؛ أنه التقىٰ بخسْرو باشا الوالي السّابق؛ الذي كان يجلس في رشيد، وطمأنَه[٢]، وجاء في تحرير خورشيد باشا الآخر، الذي أرسله إلىٰ الصّدارة، بتاريخ ١٧ ذي الحجة ١٢١٨هـ/ ٢٩ مارس ١٨٠٤م: «*عندما خرجتُ من رشيد، ووصلتُ إلىٰ شلقان بالقرب من القاهرة، كان في استقبالي جميع البكباشية (القادة)، علىٰ رأسهم محمّد علي، والعساكرُ الأخرىٰ، وأعرب الجميعُ عن رضاهم بأنْ يكونوا أتْباعي، وأخبرَ بعدَ ذلك العلماء، ووجهاء البلدة، والشيوخ والفقراء بأنّهم سعداء للغاية من قدومي؛ لتخْليصهم من ظلم الأمراءِ الذي حلّ بهم، ودخلتُ المدينة في* ١٤ *ذي الحجة* ١٢١٨/ ٢٦ *مارس* ١٨٠٤م». كما تحدّث في خطابه هذا بالتفصيل عمّا حدث له[٣].

وعندما وصلَ خورشيد باشا إلىٰ المدينة، تمّ تسليمه إدارة الأعمال العسكرية والملكية، فأصبحت في يده، وبتعبيرٍ آخر؛ كان محمّد علي في ذلك الوقت قد قبِلَ الدّخولَ تحت إمْرة خورشيد

(١) H.H. No: 3646 Keza H.H. No: 3450/G.

(٢) H.H. No: 3450/A.

(٣) H.H. No; 3447/H, H.H. 3471.

باشا، وبمجرّد دخول خورشيد باشا القاهرةَ، تمّ إعلان قائمقاميّته، وفي الوقت نفسه، أخبرَ -سواء زعماء الباشىٰ بوزوق، أو أوجاقات العسكر الأخرىٰ -في محضرٍ باسمهم ما نصّه: *«بناءً علىٰ الوقائع الأخيرة في مصر، ومن أجل العفو عن جرائمنا التي ارتكبناها سابقًا؛ بذلنا الجهدَ في طرد المماليك ودفْعِهم، وأنّنا سنطيعُ خورشيد باشا الذي دعوناه إلىٰ مصر، ونكون تحتَ طوْعه، ومِن بعد الآن، ما يأمرُ به سنكون طوعًا له، ونتصرّف بناءً علىٰ ذلك»*[1].

وهكذا، بسببِ أنّ المماليك هُمُ الذين قتلوا علي باشا، تمّ القضاءُ عليهم، والتخلّص منهم، بواسطة عساكر الباشىٰ بوزوق الأرناؤوط. وذكر محمّد علي بعد ذلك في العريضةِ والمحضر الذي أرسله إلىٰ مركزِ الدّولة: *«وهكذا تمّ إنقاذُ مصر من شرّ المماليك وضررهم، وتعيين خورشيد باشا علىٰ ولاية مصر، وسيأخذ خسْرو باشا -الوالي السابق- خمسين كيسة أقجة من الخزينة المصرية كمصاريف سفر، ويُرسَل إلىٰ رودس، ونرجو تعْيينه في منصبٍ مناسب له، كوالٍ في نواحي الروم أو الأناضول، وفي النهاية، نرجو منكم توجيهَ منصب «إمارة الأمراء» إلىٰ حسن بك -أخِ طاهر باشا المقتول- الذي بذل جهدًا كبيرًا في طرْدِ أمراء المماليك من مصرَ، في الأحداث الأخيرة»*[2].

---

(١) H.H. No: 3447/A Keza Vas1f, Tarih (yazma) sf. 227-228.

(٢) H.H. No: 3447/t, H.H. No: 3323, H.H. No: 3649, H.H. No: 3447/J Kamil Paşa, Tarih-i Siyasî, III, 300.

نرىٰ أنّ محمد علي يريد أنْ يُظهر نفسَه صادقًا ومُطيعًا للدولة لأبعدِ درجة، وذكر القائمقامُ الجديد في تحريرٍ له: «*يأتي علىٰ رأس الذين بذلوا جهدًا كبيرًا في تحقيق الأمن في مصر؛ قائد الباشىٰ بوزوق محمد علي، وكان يريد -خورشيد باشا- الإحسان إلىٰ جميع قادة الجند، وطلب توجيهَ منصب «إمارة الأمراء» إلىٰ حسن بك، أخِ طاهر باشا المقتول*»[1].

لقد اطّلع البابُ العالي علىٰ التّقارير، سواء القليلة، أو الكثيرة، الواردة من مصر عن الأحداثِ الأخيرة، لكنّه كان ينتظر نهايةَ هذا الأمر، وكتب السّلطانُ سليم الثالث بخطّه علىٰ التّقرير، الذي أخبر بطردِ أمراء المماليك من مصر، ودعوة خورشيد باشا (إلىٰ القاهرة) معربًا عن سعادتِه، فقال: «*ليكنْ جناب الحقّ لك مددًا ومُعينًا في كلّ الأحوال، وأشعر أنّ الوضع سيكون جيدًا*»[2]، بالإضافة إلىٰ ذلك، جاء في مسوّدة التحريرات التي تخاطب قادةَ الباشىٰ بوزوق فردًا فرْدًا: أنّ خورشيد باشا يثني عليهم؛ للجهدِ الذي بذلوه في وقوفهم ضدّ المماليك، وإذا أرادوا الذّهاب إلىٰ أوطانهم، فلنْ يتعرّض أحدٌ لهم بالضّرر قط، وقد أخبر بذلك مرّة أخرىٰ، كما أخبر سابقًا[3].

---

(١) H.H. No: 3447/L

(٢) H.H. No: 3450.

(٣) H.H. No: 11984.

ومن جانبٍ آخر، عند الحديثِ عن ولاية مصر: كنّا قد ذكرنا من قبل؛ أنّ الدولةَ -بعد مقتل علي باشا الطرابلسي- رأتْ أنّ أحمد باشا الجزار مناسبًا كوالٍ علىٰ مصر، وعيّنته بالفعل، وكان جزار باشا قد أخبرَ قبلَ عدّة أعوام في خطابه الذي أرسله: أنّه من أجل تحقيق النّظام ومنعِ الخلل في مصر، والقضاءِ عليه؛ يجب إرسالُ أموالٍ كثيرة، ومهمّات، وترتيبات، وعندئذ يتحقّق النظام، ويتوفّر الأمن في مصر[1]، وعندما فهِمَ رجالُ الدولة أن جزار باشا مسنٌّ ومَريض؛ عرفوا أنّ حلّ المسألة المصرية سيكون صعبًا جدًّا، وبينما كان رجال الدولة في حيرةٍ؛ بسبب قضيةِ مصر، وعلىٰ غير دراية بما يتوجب فعله؛ علموا -سواء من محاضر محمّد علي، أو تحريرات خورشيد باشا- أنّ خورشيد باشا -محافظَ الإسكندرية- ذهبَ إلىٰ القاهرة بدعم الباشىٰ بوزوق، وتمّ اختيارُه قائمقامًا، والشّيء الوحيد الذي ستفعله الدولة -أمامَ هذا الوضع الأخير-؛ هو النّزولُ لرغبةِ أهالي مصر والعسكر، وتحقيقُ ما أرادوا، فقام البابُ العالي بتوجيه رتبةِ الوزارة إلىٰ خورشيد باشا، وتعيينه واليًا علىٰ مصر، وتعيين خسْرو باشا -الوالي السابق- واليًا علىٰ ديار بكر[2]. وكُتبت الأوامرُ عن ذلك، وبدأ عصرٌ جديد لمصر، ولمحمّد علي.

---

(١) H.H. No: 11891, H.H. No: 3468..

(٢) جاء توجيه ولاية مصر إلىٰ خورشيد باشا، في التحرير المرسل إلىٰ جزار باشا، بتاريخ ٢٨ ذىٰ الحجة ١٢١٨هـ/ ٩ أبريل ١٨٠٤م. لكن وصل أمر إلىٰ مصر بعد ذلك في هذا الشأن. انظر:

H.H. No: 11914.

العلاقاتُ بيْـن خورشيد باشا ومحمّد علي، والصّراعات

أ- علاقاتُ الصّداقة بين خورشيد باشا، ومحمّد علي:

كان مَجيء خورشيد باشا إلىٰ القاهرة، واستلامَه شئون الولاية، يبدو أنَّه سيحقّق النظامَ والأمن، حيث إنّ القواتِ العسكرية والأهالي، كانوا راضين عن الوالي الجديد[1].

فقد كانَ محمّد علي، وقادةُ الباشىٰ بوزوق الآخرون، يطيعون خورشيد باشا تمامًا، وهكذا رأتِ الحكومةُ أنّ جلوس خورشيد باشا علىٰ مقامِ الولاية في مصر، ومباشرة عمله، سيحقّق الأمنَ مِن جديد، لكنّ الوضعَ كان يبدو كذلك فقط؛ لأنّ الحقيقة أنّ كلّ القوّة والسلطة كانت في يدِ محمّد علي؛ الذي يتحكّم في

(١) H.H. No: 3447/N; Keza H.H. No: 3447/D.

قوات الباشىٰ بوزوق، أمّا القوة التي كان يعتمد عليها خورشيد باشا، فهي بضعةِ آلاف من عساكر القابو خلقي (عبيد الباب)[1].

وفي الأساس، الذي أمّن جلوسَ خورشيد باشا علىٰ ولاية مصر؛ ليس أحدٌ سوىٰ محمد علي، فكان يرىٰ أنّ تعيينَ خورشيد باشا حاليًا مناسبٌ؛ حتّىٰ لا يُنظر إليه علىٰ أنّه غاصبٌ للولاية، وواجَه خورشيد باشا -مثل أسلافِه تمامًا- في موقعِه الجديد مجموعة من المشكلات يجب حلُّها، وعلىٰ رأسِ هذه المشكلات؛ الصّراعُ مع المماليك، ثمّ دفع علوفات عساكر الباشىٰ بوزوق المتأخّرة؛ من أجل تحقيق النّظام، وفي النهاية، وبعدَ جلوس خورشيد باشا علىٰ مقام الولاية، وإخبار إستانبول بالوضْع؛ بدأ يتحرّك ضدّ المماليك الموجودين في نواحي القاهرة، كخطوةٍ أولىٰ له؛ لأنّ المماليك الذين هربوا من القاهرة، ونجوا بأنفسهم، بعد هجوم محمد علي علىٰ عثمان بك البرديسي وإبراهيم بك؛ قد اختبأوا فترةً في الصّعيد، ولم يريدوا الظهور في الوسطِ؛ بسبب صاجلي عثمان بك الذي لم يعجبْه الوضع من جانب، ولوجود الألفي بك الكبير، والصغير؛ اللذين أراد المماليك قتلَهما قبلَ ذلك من جانبٍ آخر، فمكث المماليك في حلوان نواحي الجيزة، وفي نواحي جبل الأهرام، وكانوا يتجوّلون في قرىٰ الجيزة بهمجيّة فينهبونَها تارةً، ويخْربونَها تارةً أخرىٰ.

(١) جاء في جريدة إيلرىٰ رقم ٦٨٩ عن محمّد علي باشا ما نصه: أصبح خورشيد باشا ظلًّا، أمّا محمّد علي فهو شمس أمّ الدنيا.

وأخبر خورشيد باشا في أوّل تحريراته من القاهرة إلىٰ مركزِ الدّولة: *«أنّه وعدَ أميرًا أو اثنيْن من المماليك، طلبوا العفو، أمّا العاصيَان إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي، فسوف يؤدّبهما جيدًا، ووعد بأنّه سيخلّص مصرَ من ظلمهما»*[1].

لذلك كلّف خورشيد باشا محمّد علي، ومعه حسن بك وبعض القادة الآخرين، بتأديبِ المماليك الموجودين في الجيزة، والتّنكيل بهم، فذهب محمّد علي وجزءٌ من الباشىٰ بوزوق إلىٰ الجيزة، وانهزمَ المماليكُ في المعركة التي وقعت هزيمةً منكرة، وقُتل عددٌ منهم. واضطرّ كثيرٌ من الباقين إلىٰ الهربِ إلىٰ الجنوب، وذلك في آخر أيّام ذي الحجة ١٢١٨هـ/ ١ إبريل ١٨٠٤م[2].

وبناءً علىٰ ذلك، جمع المماليكُ بعضَ عصاة العربان من قبائل البدو العرب؛ مثل «هنادي»، و«جميعات»، الموجودين في تلك الجوار، والذين كانوا يؤيّدونهم، وبدءوا -اعتبارًا من محرم ١٢١٩هـ- يتحرّكون في التّضييق علىٰ مصر، وهذه المرّةُ ذهب محمّد علي بقوات كثيرة، ونصبَ المتاريسَ في إنبابة (إمبابة)، بالقربِ من الجيزة، فهجمَ المماليكُ بقوة كبيرة علىٰ قوات محمّد علي بهدف دحْرِهم، لكنْ تمكّن محمّد علي -في المعركة التي استمرّت حوالي أربع ساعات- من قتْل

(١) H.H. No; 3447/E Keza H.H. No; 3447/H.

(٢) H.H. No; 3447/M Keza H.H. No; 3447/E.

٥٠-٧٠ شخصًا من الرجال المهمّين؛ من أمراء المماليك والكشّاف، لكن لم يستطعِ الباشىٰ بوزوق الخروجَ من المتاريس، والمشاركة في المعركة، وانهزم المماليكُ هذه المرّة، وخسروا كثيرًا، ثمّ فرّوا ناحيةَ الفيوم، وبعد هزيمةِ البرديسي بك، وإبراهيم بك، أرسل محمد بك الألفي -الموجود في الصّعيد، والمنافس للأمراء المماليك المذكورةُ أسماؤهم سابقًا- أرسل رسوليْن مُعتبرين إلىٰ خورشيد باشا، وطلبَ القربَ منه قائلًا: مهْما يأتِ من أوامر منك لي، أتحرّك بناءً عليها، فأرسل خورشيد باشا ردًّا عليه قائلًا: أريد المماليك الذين فرّوا من الجيزةِ إلىٰ الصعيد، فأخبره الألفي بك أنّه سيعملُ في هذا الأمر، وهكذا منح خورشيد باشا الألفي بك -الذي أراد الاتّفاقَ معه ضدّ منافسيه- منحَه متصرفيّة جرجا، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، كان خورشيد باشا يريد جذبَ بعضِ الأمراء إلىٰ صفّه، فقام بمنح عثمان بك -من عبيد حسن بك الذي تراسلَ معه مثلَ الألفي- منحَه متصرفيّة قنا، بخلاف ذلك، استخدم خورشيد باشا قبيلة عربان -أولاد علي- التي كانت تطيعُ الدّولةَ العثمانية، وفي الوقت نفسه علىٰ عداوةٍ مع قبيلة بدو عرب هنادي التي ساعدتِ المماليك؛ استخدمَها في مواجهة هذه القبيلة[1].

(١) H.H. No; 3478/B Keza H.H. No; 3654, Cevdet, Tarih VII. 227.

قوله لي محمّد علي باشا.

مجموعة فليب مانسيل، لوندرة.

وذكرَ خورشيد باشا في تحريرِه الذي أخبرَ به مركزَ الدّولة، عن معركتي الجيزة وإمبابة، فقال: *«لقد كانتِ المعاركُ مع المماليك مستمرّةً، لم تتوقف حتّىٰ يومًا واحدًا، وستستمرّ هكذا، وفي كلّ معركة يفقدُ المماليك حوالي عشرين إلىٰ ثلاثين شخصًا علىٰ الأقلّ»*[1]. وذكر خورشيد باشا في تحريره بتاريخ ٩ صفر

(١) H.H. No; 3532.

١٢١٩هـ/ ٢٠ مايو ١٨٠٤م بعضَ الأوضاع الإداريّة، حيث قال: *«إنّه أرسل الأمراء الأرناؤوط -الذين أُرسلوا من قبْل- لإخراج عساكر الأرناؤوط من مصر؛ أرسلهم إلىٰ إستانبول، وأرسل خسرو باشا -الوالي السّابق- إلىٰ رودس، وعيّن أمين بناء السدّ -صالح أفندي- في دفترداريّة مصر؛ بسبب أنّه لا يوجد دفتردار في مصر، بعد مقتل رجائي أفندي، وقام بتوجيه رتبةِ إمارة الأمراء إلىٰ حسن بك، كما ذكرَ منْ قبل، وفي النهاية طلب إرسال خلع إلىٰ الأمراء، وعلىٰ رأسهم محمّد علي، الذين بذلوا جهدًا حسنًا في التّنكيل بالأمراء المصريين (المماليك)، فكتب السّلطانُ سليم الثّالث فوقَ هذا التحرير: لقد اطّلعت عليه، وسيتمّ إرسالُ الخلع المناسبة بناءً علىٰ طلبك، ولتبادر في الإحسان عليهم ومكافأتهم، ولتمنح كذلك رتبة إمارةِ الأمراء»*[١].

في نهاية صفر ١٢١٩هـ/ مايو ١٨٠٤م، جاء الأمرُ بتعيين خورشيد باشا علىٰ ولايةِ مصر، وبعد أنْ قُرئ أمرُ الولاية، أخلتْ عساكرُ الباشىٰ بوزوق القلعة تمامًا، فصعد خورشيد باشا إلىٰ القلعة، وجلسَ علىٰ مقام الولاية، وهكذا انتقل من قائمقام إلىٰ والٍ علىٰ مصر[٢].

---

(١) H.H. No; 3447.

(٢) Ali Emin'i Tsf, Selim lII. Devri Defterleri No: 34094 Keza M, Mısır. No: 11 sf. 118.

ومِن جانبٍ آخر، كان المماليكُ الموجودون تحت قيادة البرديسي بك، وإبراهيم بك، -اللذين هُزمَا في إمبابة وفرَّا إلىٰ الفيوم- قد أخذوا ضرائبَ باهظة من القرىٰ، مثلما خربوا زروعَ بعض العُربان، وأغلقوا الطرقَ المؤدّية إلىٰ القاهرة، وقطعوا الاتّصالَ بالمدينة، وبهذا يكونون قد منعوا مجيء الذّخيرة من الصعيد إلىٰ مصر، ممّا تسبّب في حدوث قحط، بالإضافةِ إلىٰ وجودِ أزمةٍ ماليّة في صندوق المال، وبناءً عليه، قام خورشيد باشا من أجل تدبير المال؛ بوضْعِ عساكر علىٰ بيوت حريم أمراء المماليك الموجودات في القاهرة، وضيّق عليهم؛ من أجلِ أخذ مقدارٍ من المال مقابلَ الجريمة، فاعترضتْ علىٰ ذلك حرمُ مراد بك المتوفّىٰ؛ «ست نفيسة خاتون»، كما اعترض أيضًا محمد بك الألفي، وعثمان بك، اللّذان تقرّبَا من خورشيد باشا عليه، فأرسل محمد بك الألفي -الذي احتجّ بالتّضييق علىٰ حريم الأمراء- إليه قائلًا: هذا لا يشبه شيئًا سوىٰ دعوىٰ العِرْض، لقد قرّرت أنا وعثمان بك المجيء إلىٰ القاهرة؛ من أجل إيجاد حلٍّ لمثل هذا السّوء، فلتخلِ لنا الجيزة والقصرَ العيني[1]، فرَدّ خورشيد باشا قائلًا: إذا كُنتم تُطيعونني، فاحْكموا في الوجْهِ القبلي، وأرسلوا المال الميري من هناك، فليس لكم عملٌ هنا، وبناءً عليه، تحرّك الألفي الكبير والصّغير إلىٰ القاهرة، في بداية ١٢١٩هـ/ يونية ١٨٠٤م، ونهبوا الأهالي، واغتصبوا أموالَهم بالضّرائب، حتّىٰ

(١) Mengin, F. Ayn1 Eser 1. 106 vd.

وصلوا بالقرب من الجيزة، فاستغلّ البرديسي بك وإبراهيم بك هذه الفرصةَ المنتظرة، فساروا هُم كذلك من ناحية الشّرق بنفس الهدف، وبخلافِ هؤلاء، كان صاجلي عثمان بك قدْ وصلَ إلىٰ موقع طران (طره)، علىٰ بعد ٤-٥ ساعات من مصر، ويُفْهَم من ذلك، أنّ هؤلاء المماليك المتنافسين، كان كلٌّ واحدٍ منهم يأملُ دخولَ القاهرة، والاستيلاء علىٰ السلطة من منافسِه الآخر[١].

وهكذا، أصبحت القاهرةُ محاصَرَةً من جانب الألفي الكبير، والألفي الصغير، ومن جانبٍ آخر من طرفِ المماليك، وأشقياء العربان، تحتَ قيادة البرديسي بك، وإبراهيم بك، وكان المماليك يُرونَ أنّهم متّحدون ومتّفقون علىٰ هدفٍ واحد، وأمامَ هذا الوضع، أرسل خورشيد باشا من جديدٍ محمّد علي وعساكرَه المسلّحين، وحسن بك عليهم، فهزم المماليك فرسان محمّد علي، في المعركة التي وقعتْ في بداية ربيع الأول (١٢١٩هـ)، وبهجومهم من ناحية طره، استولوا علىٰ المنطقة (المعسكر) الموجود هناك.

وفقًا لما ذكرَه كاتبُ الوقائع جودت باشا: أنّ خورشيد باشا -في الوقت الذي أخرج فيه جماعةَ محمّد علي من مصر- تخابرَ مع المماليك سرًّا، بخصوص الجلوس بأريحية في مصر، لكنّ هذا التخابرَ لم يغيّر من الوضع شيئًا؛ لأنّه كان هدف الدولة

(١) H.H.No: 3798/A.

الأساس؛ هو تخليصَ مصر من بلاء المماليك، وكما ذكرنا نبذةً فيما سبق، في تلك الأثناء، لم يكنْ في يد خورشيد باشا أيّ شيء، كانت السلطة والقدرةُ جميعًا في يد محمد علي، أساسًا، كان محمّد علي قد بدأ في تنفيذِ حيلةٍ عسكرية جديدةٍ لهزيمة المماليك، وهذه الحيلةُ هي: أنّ محمّد علي يتصرّف كأنّه عاجز، ويطلبُ من أمراء المماليك الصّلح، فينخدع المماليكُ، ويظنّونَ أنّ محمّد علي ضعيف، ويتركون الحيطةَ والحذر من أيديهم.

وفي ١٠ ربيع الآخر ١٢١٩هـ/ ١٩ يوليو ١٨٠٤م، قام محمّد علي -الذي ينتظرُ الفرصة- بهجوم مفاجئ علىٰ الألفي الكبير والصّغير، وصاجلي عثمان بك، الموجودين نواحي طره، وشتّت شملهم، وهزمَهم بأربعة آلاف عسكريّ، وقتلَ معظمَ قوّات الألفي بك، وأغرق جزءًا منهم في النيل، وفَرّ الباقون منهزمين إلىٰ الصّعيد، في ١٠ ربيع الآخر ١٢١٩هـ[١].

وبعدَ ثلاثة إلىٰ أربعة أيام من ذلك -يعني في ١٤ ربيع الآخر ١٢١٩هـ/ ٢٣ يوليو ١٨٠٤م- وقعت معركةٌ دامية -في الصّالحية بجوار شبراق- بين قوات عثمان بك البرديسي وإبراهيم بك -التي تقدر بثلاثة آلافِ شخصٍ- وبيْنَ محمد علي، وحدثت

(١) معظم التحريرات المتعلقة بتضييق المماليك علىٰ القاهرة كانت في ربيع الآخر ١٢١٨هـ/ تموز ١٨٠٤م، انظر:

H.H.No: 1918/A; H.H.No:6652; H.H.No:3566/A ;H.H.No: 3455 ;H.H.No: 1821.

خسائرُ كبيرة في كلا الطّرفين، وانسحبوا إلىٰ معسكراتهم، ولم يُعرَف بالتّحديد مَن المنتصر ومَن المهزوم، وفي تلك الليلة، هجم محمّد علي فجأةً علىٰ متاريس المماليك، وضربهم بالمدافع والقذائف لمدّة خمس إلىٰ ستّ ساعات، فلم يتحمّل المماليكُ، وقُتل بعضُهم، وانهزم البعضُ الآخر، ولم يجدوا سوىٰ الفرار، وهكذا، اجتمع المماليكُ المهزومون في نواحي الخانكة وأبي زبيل(زعبل)، وانسحبوا إلىٰ الصعيد من خلف جبل «جوش»[١].

والحقيقة، أنّ المماليك قد تلقوا ضربةً شديدة وثقيلة من محمّد علي والباشىٰ بوزوق، وبهذا تكون القاهرة قد تخلّصت من تضييق المماليك، وحصارهم[٢]، وبعض القوات العسكرية التي اقتربت من القاهرة -بإذنٍ من أمراء المماليك- قد انسحبتْ إلىٰ أماكنها، وفقدتِ الأملَ في الدّخول إلىٰ القاهرة، وبناءً علىٰ ما جاء في وثيقة: *«أنّ خورشيد باشا قام بتعيين محمد علي قائدًا علىٰ عساكر ترك أوشاغي، وحسن بك علىٰ عساكر الأرناؤوط، وكان حتّىٰ الآن الاتّفاقُ مستمرًّا بينهم، وفي وضْع جيّد»*[٣].

وأظهرَ الصّدرُ الأعظم امتنانَه علىٰ التّحرير؛ الذي يحكي عن الضربة الثقيلة الأخيرة التي تلقّاها المماليك، فذكرَ ما نصّه: *«إنّ الهزيمة التي تلقّاها أمراءُ المماليك هذه المرّة، لن تشبه*

---

(١) H.H. No: 3455; H.H. No: 3642; H.H. No: 1821.

(٢) M. Mısır, 11 sf. 153-158 emir suretleri vekâyii anlatır.

(٣) H.H. No: 3455; H.H. No: 3798/A.

الهزائمَ السابقة، فقد تفرّق -أيضًا- شبحُ العربان الذين كانوا يساعدونهم، وأصبحَ نفوذُ الحكومة في يدِ خورشيد باشا»[1].

وكذلك أعرب السّلطانُ سليم الثالث عنِ امْتنانه من التحريرات القادمة، بخصوص طردِ خورشيد باشا المماليك إلىٰ الصّعيد، وفتح طريق السّويس، ومِن ثمّ، سيتمّ إجراءُ ترتيبات الحرميْن، ولن يحدثَ قصورٌ في أعمال الحجاز بعد. وأوضَحَ السلطانُ شعورَه في الخطّ الذي كتبَه فقال: *«لقد سعدتُ كثيرًا مِن إقْدام خورشيد باشا، ليكنْ سعيدًا موفّقًا، وليسلمه الحقُّ سبحانه، لتكنْ في غاية الدقّة والاهتمام»*[2].

وهكذا، نَجَا خورشيد باشا -لأوّل مرّة- مِن هجوم المماليك بفضل محمد علي، لكن لبقاءِ منطقة الصّعيد تحتَ سيطرة المماليك بعد؛ بدأ القحطُ ونقصُ المأكولات يظهر في القاهرةِ من جديد، بخلاف ذلك، اشتكىٰ أهالي مصرَ لخورشيد باشا من سوءِ معاملة عساكر الأرناؤوط، والباشىٰ بوزوق، لكنّ خورشيد باشا لم تكنْ لديه القدرةُ في منع ذلك؛ لأنّه كان يجدُ صعوبةً في دفع معاشات وتعْيينات هذه العساكر، وذكر خورشيد باشا في تحريره عن دفْعِ معاشات هذه العساكر قائلًا: «إذا لم يحدثْ نظامٌ بخصوص ضبط علوفات طائفة العساكرِ الموجودة في مصر؛ فإنّ هذا الأمر لا يمكن حلّه». وقال للعساكر التي طلبت

(١) H.H. No;3566/B.

(٢) H.H. No: 3798.

منه علوفاتِها المتأخّرةَ منذُ تسعة أشهر: «إذا كان مقصدُكم وأمنيتكم الحصولَ علىٰ العفو والسماح من الدّولة، وتحقيق السّلامة لأنفسكم؛ يجب عليكم الطاعةُ، وصرفُ النظر عن المطالبة بهذه العلوفة. وأشار أنّه أوصاهم في هذا الشّأن، وكتب أنّه لم يتمّ تنزيل كافّة العلوفات، حتّىٰ يتمّ دفعُ العلوفات المتراكمة، وبعد أن يتمّ دفعُ العلوفات المتعهّد بها؛ سيقرّر تنزيل كافة المصاريف، وربط العلوفات بالنظام، أمّا الوضع الحالي، فبسبب أنّه لم تُدفع العلوفات لجميع العساكر، من تاريخ مجيئهم إلىٰ مصر؛ فإنّهم يدبّرون أمرَهم بالخبز وسائر التعيينات الأخرىٰ»[1].

ومسألةُ العلوفات المتراكمة هذه التي واجهتْ ولاة مصر، كانت هي وسيلةَ الضّغط علىٰ الوالي من طرف عساكر الباشىٰ بوزوق، وذلك بسبب أنّهم يعانون من الناحية المالية، ولا توجد أقجة في جيوبهم؛ لأنّ محمّد علي كان -أثناء المعارك والحروب التي وقعت، والتي حسبَ لها جيدًا- قد وجدَ فرصةً في دفع بعض المال لهم، عن طريق النّهب والسلب، ولذلك -في تلك الفترةِ- استخدم محمّد علي العلوفات المتأخّرةَ هذه كورقةٍ رابحة، يخرجها عندما يريدُ تعجيز رجال الإدارة العثمانية، ويظهرهم في

(١) تقرير خورشيد باشا، بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٢١٩هـ/ ٢ يوليو ١٨٠٤م. H.H. No: 1892، بخصوص أن سبب القحط والخلل في مصر؛ هو عدم إمكانية دفع العلوفة. انظر: H.H. No: 3566/D

موقفِ ضعف، والذي يُلفت الانتباهَ هنا؛ أنّ الباشىٰ بوزوق كانوا يتحرّكون بالمطالبةِ دائمًا بدفع العلوفة؛ في التمرّدات التي أحدثوها ضدّ خسْرو باشا، وطاهر باشا، والبرديسي بك، وعثمان بك، ونجحوا في إنزال هؤلاء الأشخاص عن مناصبهم.

ومِن جانبٍ آخر، كان البابُ العالي المطّلع علىٰ هزائم المماليك الأخيرة هذه، مثلما هو سعيدٌ من هذا الوضع، كان يريد -أيضًا- إنزالَ ضربة قوية ضدّ المماليك؛ لذلك أكّد -من خلالِ أمرٍ صادر- بمنْع إدخال العبيد إلىٰ مصر، وعقاب مَن يتجرّأ علىٰ فعل ذلك، وأرسل نُسخًا من هذا الأمرِ الجديد، إلىٰ محافظي وباشوات سواحل بحر إيجة وآق دكز (البحر الأبيض)[1]، ويُفهَم من ذلك، أنّ البابَ العالي قد منعَ إدخال المصدر الوحيد لجماعة المماليك، وهو العبيد، من الخارج إلىٰ مصر، وأنْهىٰ هذا الأمر، فقد كان يأتي إلىٰ مصر -بطرقٍ سليمة أو ملتويةٍ- كثيرٌ من العبيد، ويُباعوا في مصر، ومع هذا لم يُنفّذ هذا الأمر كثيرًا.

وبعدَ المراقبة والتّفتيش الذي قام به الوالي خورشيد باشا جيدًا، فهِمَ بمقدارٍ قليلٍ أنّ كافّة التمرّدات وحركاتِ العصيان التي وقعتْ في مصر، كانت بتحريضٍ من سرچشمه محمد علي[2].

(١) M. Mısır, 11 sf. 150 keza M. Cevdet, Dahiliye, 10350.

(٢) يذكر مصطفىٰ نوري في كتابه: (نتايج الوقوعات): أن كافة الوقائع التي حدثت، هي من أفعال محمّد علي أغا. انظر:

M. Nuri, Netayicii'l Vukuat IV. sf. 85

لذلك كان خورشيد باشا -الذي يطمح أنْ يكون واليًا مستقلًّا في مصر- يبحث عن طريقة لإبعادِ محمّد علي في أوّل فرصةٍ تظهر له، ومِن أجل إبعاد محمّد علي عن مصر، يجبُ قبل كلّ شيء أنْ يمتلك قوّةً عسكرية مُحْكمة، بالرّغم من ذلك، لم يكنْ خورشيد باشا يمتلك إلّا قوة صغيرةً من عساكر القابو قولي (خدم الباب)، تقدّر بحوالي بضعة آلاف شخص؛ لذلك شعرَ خورشيد باشا بضرورةِ امتلاك قوة كافية تحت طوعه، فقد ذكر في التحرير الذي أرسله إلىٰ الدّولة -أثناءَ محاربة محمّد علي للمماليك، في ربيع الأول ١٢١٩هـ/ يونيه ١٨٠٤م- أنه بحاجة إلىٰ إرسال ٣-٤ آلاف جنديّ من المركز، ومن جانبٍ آخر، طلب إرسالَ مقدارٍ من عساكر الدّليل من نواحي عكا وصيدا والشام[١]، وأخبر خورشيد باشا أنّ هذه العساكر يحتاجها للصّراع مع المماليك علىٰ وجْه الخصوص، ووفقًا لمَا فُهم من تلخيصٍ ما، أنّ الباب العالي لم يكنْ لديه قدرةٌ في إرسال عساكر منظّمة؛ تلبيةً لرغبات خورشيد باشا، لكنّه أرسل أوامره إلىٰ رؤساءِ عساكر الدّليل الموجودين في سوريا؛ مِن أجل إرسال عساكر الدّليل فقط إلىٰ مصر، وأخبرَ خورشيد باشا أنّه اطّلع علىٰ رغبته، وسيعملُ علىٰ إرسال العساكر له[٢].

(١) H.H. No: 3598 keza H.H. No; 3473.

(٢) Bu hususta iki telhis H.H. No; 3537; H.H. 3657.

وهكذا، وبينما خورشيد باشا كان يفكّر من داخلِه في إبعاد محمّد علي من مصرَ بهذا الشكل، ظهرتْ أمامَه فرصةٌ علىٰ هذا النّحو: أرسل البابُ العالي مير آخور ثاني (أمير الإسطبل الثّاني) صالح أغا (في بعضِ المواضع صالح بك) إلىٰ مصرَ؛ بشان الحرمين والوهابيّين، وأخبرَ صالح أغا -من خلال أحدِ الأوامر التي أحضرها- أنّه يلزمُ إرسالُ مقدارٍ من العساكر معَ قائدٍ؛ للحفاظ علىٰ ينبع[1]، وأنّ اسمَ القائد الذي سيتمّ تعيينُه برتبة أمير أمراء تُرك فارغًا في الأمر.

وكانَ إرسالُ قائدٍ من مصر إلىٰ ينبع، قد رُتّب علىٰ هذا النّحو: كان قد كُلّف ولاةُ بغداد والشام للتّنكيل بالوهابيّين الذين يُحاصرونَ الحرمين، وكان محمّد باشا -الذي عُين واليًا علىٰ جدّة- علىٰ وشكِ التحرّك إلىٰ الحجاز من ناحية الشّام بكثيرٍ من القوات، لكن في ذلك الوقت، كانت المدينةُ والحرمان يعانونَ من نقص الذّخيرة والمأكولات، ومن أجل إرسال ذخيرةٍ ومأكولات وأشياء أخرىٰ من مصر؛ كان مِن الضّروري -بمقتضىٰ الحال- الحفاظُ علىٰ ميناء ينبع علىٰ وجْه الخُصوص، وتأمينه؛ لذلك أمرَ البابُ العالي خورشيد باشا بإرسال قائدٍ ومقدارٍ من العساكر، فصمّم خورشيد باشا منحَ هذه المأمورية لأحد قادة الباشىٰ بوزوق، واقترحَ عليهم هذه الوظيفة، وكان خورشيد باشا يمكنُ أن يتحرّك بحرية، إذا ما أبعد محمّد علي من مصر، لكنْ

(١) H.H. No; 3566.

حدث عكسُ ما توقّعه، فلم يلتفتْ محمّد علي أو القادة الآخرون قطّ لهذه الوظيفة (أمير أمراء)، وكما ذكرنا سابقًا، أنّ الأملَ الوحيد لمحمّد علي هو الحصول علىٰ ولايةِ مصر، فكان يتصرّف بوقارٍ وثقةٍ بما تقتضيه المصلحة، وينتظر تعيينَه علىٰ ولاية مصر، فلو قلنا: إنّ إبعاد خسْرو باشا، وإحضارَ خورشيد باشا، من تفكيره في الأساسِ؛ لكنّا مُحقّين؛ لذلك لم يرغبْ في رتبةِ إمارة الأمراء، والذّهابِ إلىٰ بلاد العرب، وبسببِ أنّ إخوةَ طاهر باشا المقتول -حسن بك، وعابدي بك- وقادة الباشىٰ بوزوق الآخرين، كانوا مرتبطين بمحمّد علي، وتحتَ طوْعه؛ كان من الصّعب كذلك الابتعادُ عنه، وعندما رأىٰ خورشيد باشا، أنّه لا يوجد أحدٌ يطلب وظيفةَ مُحافظ ينبع مِن بين قادة الباشىٰ بوزوق؛ أعطىٰ الوظيفة إلىٰ مير آخوره (الرجل التّابع له) علي أغا، وأرسله مضطرًّا إلىٰ هناك[1]، وهكذا، الورقة الرابحة التي أراد خورشيد باشا استخدامَها لإبعاد محمّد علي عنْ مصر -وهي رتبة إمارة الأمراء-، لم تجدِ نفعًا.

بعدَ ذلك، بدأ خورشيد باشا الصّراعَ من جديد مع المماليك؛ الذين يتجوّلون -بعنادٍ- في الصعيد، بالرّغم من إبعادهم عنْ نواحي القاهرة، ويمنعون مجيء الذّخيرة من هذه

(١) بخصوص تعيين أمير أمراء علىٰ ينبع انظر:
Vas1f, Tarih (yazma), sf. 295, cevdet Tarih VII. 278-279; Mengin, F.l. 226; H.H. No; 3486.

المنطقة (الصّعيد)، التي تعدّ بمثابة مخزنِ ذخيرةِ مصر، فأرسل بعض القوات العسكرية عن طريق نهر النّيل من جانب، ومن جانبٍ آخر، أرسل بعضَ القوّات الأخرىٰ من البرّ، بواسطة سلحداره، وذلك في رجب ١٢١٩هـ/ أكتوبر ١٨٠٤م[١]، وكان خورشيد باشا قد قرّر إرسالَ محمّد علي مرّةً أخرىٰ إلىٰ الصّعيد، خلف سلحداره، وبعد فترةٍ قصيرة من هذا القرار، جاء من البابِ العالي -عن طريق موظّفٍ خاصّ، في أوائل شعبان ١٢١٩هـ/ ٥ نوفمبر ١٨٠٤م- أمرٌ بمنحِ رتبةِ إمارة الأمراء إلىٰ حسن بك؛ أخِ طاهر باشا المقتول، وكما هو معلوم، أنّ محمّد علي -بعدَ طرد أمراء المماليك من مصر- طلبَ في العريضة والمحضر اللذين أرسلهما إلىٰ عاصمةِ الدّولة؛ منحَ رتبة إمارةِ الأمراء إلىٰ حسن بك[٢].

كما أخبرَ خورشيد باشا البابَ العالي بهذا الطّلب نفسه، فردّتِ الدّولة علىٰ هذا الطّلب بشكلٍ إيجابي، ومنحتْ حسن بك رتبةَ إمارة الأمراء، فصعد حسن بك إلىٰ القلعة، وأُلبسَ خلْعَة إمارة الأمراء من طرفِ خورشيد باشا، وهكذا أصبح حسن بك في مقام أخيه طاهر باشا. وفي هذا الوضع، كان يجبُ علىٰ محمّد علي -كما هو معروف- أنْ ينقاد لأمرِ حسن باشا، علاوةً علىٰ ذلك، كان خورشيد باشا يعتقد أنّ محمّد علي لن يدخل

(١) Vas1f, Tarih (yazma), 296.

(٢) H.H. No: 3447/A.

تحت سلطة حسن باشا، ولهذا سوف يظهر خلافٌ بين الباشىٰ بوزوق، وهذا الخلافُ سيعمل علىٰ انْفصالهم، ممّا يجعله يتحرّك بعزمٍ واستقلال في مصر، لكنّ حسن بك لم يكنْ يطمح في الحصول علىٰ أعمالٍ كبيرة، مثل محمد علي، كما أنّه لن يعود عن اليمينِ الذي قطعه لمحمد علي، ولنْ ينفصل عنه، وبقيَ كما هو صديقه القديم، ووفقًا لما ذكره كاتبُ الوقائع جودت باشا: وبينما كان يُعتقد أنّ حسن باشا سوف يضرّ بقوّةِ محمّد علي بعدَ رتبته الجديدة، إلّا أنه زادَ شأنُه واعتباره، من جهةِ استخدام رتبةِ أمير الأمراء في معيّته[1]، والحقيقة أنّ هذا الوضعَ قد أعلىٰ كثيرًا من حظوةِ محمّد علي، خصوصًا كما هو مُنتشر بين الأهالي، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، بعد فترةٍ قصيرة من توجيه هذه الرّتبة، أخذ محمّد علي حسن باشا وعبدي بك بجانبه، وذهب للتّنكيل بالمماليك إلىٰ الصعيد، وتحرّكوا إلىٰ الصعيد في شعبان ١٢١٩هـ/ نوفمبر ١٨٠٤م، خلف سلحدار خورشيد باشا، الذي ذهب من قبْلُ إلىٰ هناك[2]، وبينما كان محمّد علي يذهبُ إلىٰ هذه المأمورية، كان يشعرُ بأنّه سينالُ رتبة الوزارة من خورشيد باشا؛ إذا نجحَ فيها.

من جانبٍ آخر، كان البابُ العالي يظنّ أنّ الوضع في مصر قد استقرّ، وأنّ الأمان قد تحقّق، وأنّ محمّد علي والباشىٰ بوزوق

(١) Cevdet, Tarih V 1 l. 179-180.

(٢) M. Cevdet, Dahiliye 6642.

-علىٰ وجْهِ الخصوص- قد انْقادوا لخورشيد باشا تمامًا، وأطاعوه؛ لأنّ خورشيد باشا ذكرَ في التّقارير التي أرسلها، أنّه أرسل علي باشا إلىٰ ينبع، ومحمّد علي إلىٰ الصّعيد؛ لقتال المماليك، وفي فترةٍ قصيرة سيتمّ إرسالُ المساعدات إلىٰ الحرمين، وبسبب أنّ الدّولة لم تكنْ تعلم الوضعَ الدّاخلي في مصر، كما هو ينبغي، اعتقدت أنّ خورشيد باشا قد أخرج المماليكَ من مصر، وباشر ولايتَه في مصر كوالٍ مستقلّ، علاوةً علىٰ ذلك، وبهذا الفكْر لم يستلمْ صالح أفندي -أمين بناء السّد، الذي عيّنه خورشيد باشا دفتردارًا- وظيفته رسميًّا، وعيّنت أحمد أفندي في دفتردارية مصر[١]. أمّا الحقيقة، فكانت مثلما قال جودت باشا: إنّ أمير (والي- حاكم) مصر الفعلي هو محمّد علي، أمّا خورشيد باشا فهو -فقط- المُحصّل لتعيينات عساكره[٢]، بخلاف ذلك، جاءَ في الأمر المؤرخ بأوائلِ شوال ١٢١٩هـ، يناير ١٨٠٥م، بإبقاء خورشيد باشا في ولاية مصر، والاعتراف بفضله في الأعمال التي قام بها[٣].

في تلك الأثناء، بدأ البابُ العالي يفهمُ مقدارَ قوّة محمد علي؛ لذلك كان يريد منحَه الوزارة، وإبعادَه عن مصر، وقد لمّح إلىٰ ذلك خورشيد باشا في أكثرَ من تقريرٍ له، فذكر في أحدِ

---

(١) Vas1f, Tarih (yazma) 297 : كذا من أجل تعيين دفتردار جديد انظر. H.H. No:1951.

(٢) Cevdet, Tavih VII. 280.

(٣) M. Mısır 11. sf. 180; Keza M. Cevdet. Dahiliye 2467.

تقاريره: «أنّه سمع أنّه قد تمّ توجيه إيالة جلّة برتبة الوزارة إلىٰ سرچشمه محمد علي، وإذا تمّ بالفعل توجيه إيالة جلّة إلىٰ محمّد علي؛ فإنّه سيكون هناك بعض المحذورات؛ بسبب أنّ محمّد علي ليس لديه قدرةٌ ماليّة علىٰ دفع المصاريف اللازمة لعسكره؛ من أجل الخروج من مصر، ويجب أن تُدفَع كافّة المصاريف اللازمة الخاصّة به من خزينة مصر، ولهذا، فإنّ توجيهَ هذا المنصب، مع رتبةِ الوزارة لشخص في الأناضول أو الروم إيلي، سيكون مناسبًا أكثر، وفي الأساس، لقد تمّ إعدادُ محمّد علي، وتعيينُه للذّهاب خلف سلحدارنا إلىٰ الصعيد، ولن يحصل علىٰ الوزارة حتّىٰ ينهي مأموريتَه ويعودَ من الصعيد، وبعد ذلك من المُمكن إرساله.

فكتب الصّدرُ الأعظم تعليقًا علىٰ هذا التّقرير فقال: إن منح حسن بك -أخِ طاهر باشا- رتبةَ إمارة الأمراء، دون منحِها إلىٰ سرچشمه محمّد علي؛ ليس جيدًا، ويجب منحُه -أيضًا- رتبة إمارة الأمراء، وواصل قائلًا: وبسبب كثرةِ الوزراء في الروم إيلي والأناضول -كما عرض خورشيد باشا- لم يوجدْ منصبٌ فارغ، وفي النهاية، وبينما محمّد علي في مصر، ونظرًا إلىٰ أنّ عليه بعض الملاحظات، بشأن منحِه الوزارة، فبعد أنْ يخرج من مصر من أجل مصلحة الحجاز، فإذا مُنح الوزراة فسيكسب قوّةً داخل الحرمين، وهذا مناسب، ومنحه الوزارة من جانب الروم إيلي لا يكون له معنًى، أو غير لائقٍ علىٰ الإطلاق لشخص مثله،

وسننتظرُ جوابَ الاستعلام، وأساسًا، كان محمّد علي في تلك الأثناء يحاربُ المماليكَ في الصعيد»[1].

وجاء في تقريرٍ بتاريخٍ قديم لخورشيد باشا، أنه يطلب توجيهَ رتبة إمارة الأمراء إلىٰ حسن بك، وقد أُرسل للأمراء بوعْد محمّد علي، بأنّه لديه أمل في الحصولِ علىٰ رتبة الوزارة، وبعد أنْ ضمن مصلحة الأمراء، سيتمّ منحه منصب مناسب له في نواحي الروم إيلي، أو الأناضول، من وظائف الجُزر، وأنّه أرسل -سرًّا- الأوامرَ الضّرورية بمنحه الوزارة، ومنصبًا له[2].

يُفهَم من هذه التحريرات، أنّ هدف خورشيد باشا وهدفَ الدّولة في ذلك الوقت؛ هو منحُ محمّد علي الوزارة، وإخراجُه من مصر، لكن هناك شيء بسيطٌ، لكنّه لافتٌ للنّظر، وهو أن خورشيد باشا لم يؤيّد -علىٰ الإطلاق- تعيينَ محمّد علي علىٰ جدّة القريبة من مصر، أمّا البابُ العالي، فكان يرىٰ أنّ إرسال محمّد علي إلىٰ جدّة مناسبٌ للغاية؛ لتخليص الحرمين من تسلّط الوهابيّين، وضغطهم في ذلك الوقت، لكنّ هذا الأمر كان قيْدَ التفكر فقط، ولم ينفّذْ بعد.

---

(١) H.H.No: 1998. 13 Receb 1219/18 Ekim 1804

تقرير خورشيد باشا بتاريخ:

(٢) H.H, No: 3453/D

تقرير خورشيد باشا بتاريخ ١٣ شعبان ١٢١٩/١٧ نوفمبر ١٨٠٤م

وأريدُ أنْ أشير إلىٰ وثيقةٍ مهمّة جدًّا، ولافتة للنظر، متعلّقة بهذا الموضوع، وهذه الوثيقة هي: التّقريرُ المكتوب بتاريخ ٢١ شوال ١٢١٩هـ/ ٢٣ يناير ١٨٠٥م، عند عودة مير آخور ثاني صالح أغا (بك)، المرسَل من مصر من قبل لتعيينِه قائدًا علىٰ ينبع؛ من أجل إرسال الذخيرة والعسكر -المذكورة آنفًا- قبل عودتِه إلىٰ دار السّعادة، وهذا التقريرُ يعطي معلوماتٍ لافتةً جدًّا، عن العلاقةِ بين محمّد علي وخورشيد باشا علىٰ وجْه الخصوص، فقد رأىٰ صالح أغا، سواء خورشيد باشا، أو محمّد علي، عنْ قُرب، وعرف ما بداخل الاثنين جيدًا، وقرأه، فيقول صالح بك في بندٍ من التقرير ما نصّه: «*إنّ خورشيد باشا -والي مصر- في الأصلِ صائبٌ وصادقٌ وخادمٌ صريح، لكنّ استمرارَ الخلل في مصر، كان بسبب أنّ النفوذ والسلطة كانت في يدِ رؤساء العساكر، وهؤلاء الرّؤساء جميعًا تابعون إلىٰ محمد علي، وإنْ كان خورشيد باشا قد حصلَ علىٰ رتبة الوزارة، وإنْ كانوا قدِ انْقادوا إلىٰ خورشيد باشا في الظّاهر، إلّا أنه لم يتمكّن من الحدّ من سلطتهم، وكان يشعرُ أنّه عاجزٌ من داخله، ويُفْهَم مِن حاله وحركته أنّه يريد القضاءَ علىٰ الخلل بكلّ قوّته، ويفكّر في تنظيم مصر دائمًا، لكنْ بسبب أنه يشعر أنّ محمّد علي يطمحُ للوزارة، وذو عقلٍ فاسد؛ التقىٰ معه أكثرَ من مرّة سرًّا، وقال له: أريد نشرَ الألفة معك، وحصولَ المحبّة فيما بيننا، ولا أريد أن يحدثَ لك سوء، وأقول لك*»

-بمقتضىٰ طبيعتي الخيّرة- الكلامَ الصحيح، أنّه مهما كان هدفُك الذي تسعىٰ له، فلن يحقّق نتيجة جيّدة»[1].

وهكذا نصحَ خورشيد باشا محمّد علي كثيرًا، وحاول كثيرًا من أجل تحويله عن هذا الطريق، وأخبر صالح بك أنّه حاول إقناع محمّد علي بالعودة إلىٰ مملكته، وفي فقرة أخرىٰ: ذكرَ هذه المعلومة التي تتطرّق إلىٰ إرساله إلىٰ الأمراء في المرّة الأخيرة. إذا كان خورشيد باشا قد تحدّث مع محمّد علي عدّةَ مرّات، ونجح في تعيينه قائدًا علىٰ الباشىٰ بوزوق، وإرساله علىٰ الأمراء، إلّا أنّه تعهّد له بمنحه رتبة الوزارة، وقرّر إخراجه من مصر، وقد وُعد بشفاعةِ خورشيد باشا إعطاءه منصبًا من الروم إيلىٰ، وأُرسل محمّد علي إلىٰ الصعيد لقتال الأمراء، وكان كلّما تحدّث (محمد علي) عنْ هذه الوزارة مع خورشيد باشا، قال: يسر الله لي، وتسمح الدّولةُ العلية بمنحي هذه الوزارة، وبهذه الطريقة سنخرج من هنا، ويقول كذلك: والحقيقة، إذا ظهرَ أيّ فساد فإنّه -بعون الله- لنْ يصيبنا شيء، لكنّ أهالي مصر سيتعرضون للنهب والسّلب، وهذا هو خوفُنا الوحيد، وصالح أغا الذي كتبَ ما قاله، وأخبر صالح بك، أنه في حين إرسال فرمانٍ بتعْيينه علىٰ جدّة، أو منحه منصبًا؛ فإنّه سيتحرّك وفقًا للوضع في مصر، وإذا كانت الفرماناتُ في المركز لن تنعكسَ علىٰ محمّد علي، أو تكتَبَ

(١) H.H. No; 3474

تقرير بتاريخ ٢١ شوال ١٢١٩هـ.

في السرّ بصورة، لن تضرّه، مِن المُحتمل أن يقبلَ الطردَ، أو الخروجَ من مصر، وإذا لم يخرجْ محمّد علي من مصرَ، لن ينتهي الخللُ منها، هكذا أخبر صالح بك في تقريره.

وجاءَ في فقرةٍ أخرىٰ من هذا التّقرير، الذي هو طويلٌ للغاية: «*كان من الصّعب علىٰ حسن باشا -الذي ذهب مع محمّد علي لقتال المماليك- أنْ يخرجَ عن طوْع محمّد علي، أو ينفصل عنه؛ بسببِ أنّه أعلىٰ منه في الرّتبة، وإذا تمّ توجيهُ فرمان الوزارة لمحمد علي، فأظنّ أنّه سيتمّ توجيهُ منصبٍ من الروم إيلىٰ لحسن باشا، ومن المصلحة إخراجُهم سويًّا من مصر*».

يبدو أنّ هناك بعضَ الموضوعات المهمّة التي تهمّنا، قد ذكرها صالح أغا في تقريره هذا، وأنّه فهمَ الوضعَ الدّاخلي في مصر، وفهِمَ موقفَ محمّد علي علىٰ وجْه الخصوص مِن ذلك، وهذا الوضعُ -أيضًا- قد لفتَ انتباهَ السّلطان سليم الثالث؛ حيث كتبَ علىٰ هذا التقرير بخطّه: *لقد اطّلعت عليه . . .، وعلىٰ صالح بك أنْ يمسك لسانَه، ويتقيّد بكتْم ذلك، وإخفائه*».

ذكرَ جودت في تاريخه: أنّه وجدَ في دفتر تشريفات قديمٍ وقعَ في يده سجلًّا (قيدًا)، يوضّح أنّه تمّ منحُ رتبة الوزارة إلىٰ محمّد علي، بتاريخ ٢٣ شوال ١٢١٩هـ/ ٢٥ يناير ١٨٠٥م[١].

(١) Cevdet, Tarih VII. 280.

ومن جانبٍ آخر، كانت الحروبُ التي قام بها محمّد علي، وحسن باشا، وسلحدار خورشيد باشا، ضدّ المماليك، قدْ أعطت نتيجةً إيجابيّة، وحقّقت نجاحات، علاوةً علىٰ ذلك، بعد إبعاد المماليك من منطقتي الفيوم وبني سويف، حاصر محمّد علي المنيا الموجود بها كثيرٌ من المماليك، وحاول السيطرةَ عليها، وكلّ شخصٍ في مصر كان ينتظرُ انتهاءَ هذه الحرب، فقد ذكرَ جودت باشا عن هذا الألم -وكان محقًّا فيما كتبه- فقال: إنّ أهل مصر -علىٰ وجه الخصوص- كانوا يكرهون المماليك، وبسبب ما لاقوه من أذىٰ وجورٍ كذلك من عساكر الباشىٰ بوزوق، كانوا لا يعرفون لمَن يدعونَ بأنْ ينتصر ويحكُمَهم، هل المماليك أو الباشىٰ بوزوق؟

وبينما كان الوضعُ في مصر علىٰ هذا النّحو، وصلت مصر -في نهاية عام ١٢١٩هـ/ مارس ١٨٠٥م- قوّةٌ عسكرية من عساكر الدّليل، مكوّنة من بضعة آلاف شخصٍ من نواحي الشّام، كان خورشيد باشا قد طلبَها من قبلُ؛ بهدف إبعاد محمّد علي من مصر، لكي يتحرّك كحاكمٍ مستقلّ، وقد خُصّص لهؤلاء -من أجل إعاشتهم ومصروفاتهم- ٦٠٠ كيسة شهريًّا، وبمجيء عساكرِ الدّليل إلىٰ مصر، حدثتْ بعضُ الأحداث الجديدة[١].

(١) Cevdet, Tarih VII. 280; Mengin F. I. P. 139 vd; H.de la Nat Egyptienne VI.p. 23-24.

٣- الاختلافُ والصّراع بين خورشيد باشا وسرچشمه محمد علي على ولاية مصر

في الفترةِ التي جلبَ فيها خورشيد باشا عساكرَ الدّليل من نواحي الشام وعكا إلىٰ مصر، كان محمّد علي قد حقّق نجاحًا كبيرًا ضدّ المماليك في المنيا، في ١٨ ذي الحجة ١٢١٩هـ/ ٢٠ مارس ١٨٠٥م، واضطرّ المماليكُ -الذين لاقوا هزيمةً ساحقة- إلىٰ الهرب إلىٰ نواحي سيوط (أسيوط) ومنفلوط، وهكذا تمّ السّيطرة علىٰ موقع عسكريٍّ مهمّ جدًّا مثل المنيا، وكان مِن الضّروري -في ذلك الوقت- الذّهابُ خلفَ المماليك الهاربين إلىٰ نواحي جرجا وما بعدها؛ للتّنكيل بهم وتأديبهم، لكنْ عندما سمع محمّد علي بمجيء عساكرِ الدّليل إلىٰ القاهرة، فهِمَ سريعًا أنّ إحضارهم كان للوقوف ضدّه، واستخدامهم في مجابهته؛ فترك مجابهةَ المماليك في الحال، وخرجَ مع حسن باشا للعودةِ إلىٰ القاهرة، وكان محمّد علي الأستاذُ في فنّ خداع الناس، سيبرّر

عودتَه إلىٰ القاهرة لخورشيد باشا؛ أنّه جاء يطلب رواتبَ الباشىٰ بوزوق المتأخّرة، وأنهم ضيقوا عليه -وعلىٰ حسن باشا- في المطالبةِ بها، وبسبب أنّهم لم يقدروا علىٰ تهدئتهم، تركوهم في الصّعيد بصعوبةٍ، واعْتذروا لهم، وكان خورشيد باشا في الوهلة الأولىٰ سيصدّق ذلك[1].

أمّا ما ذكره كاتبُ الوقائع جودت باشا: أنّ محمّد علي وحسن باشا عادَا من الصعيد دون أخذ إذنٍ من أحد، وأنّ خورشيد باشا قال: بسببِ أنّ نيّتهم سيئة، وأصحاب فتنة، إمّا أن يعودوا للحرب مع المماليك، أو يذهبوا إلىٰ بلادهم، وإذا أرادوا أعطيهم ولايةً، أو وظيفة خارج مصر، ولديّ صلاحيةٌ لفعْل ذلك من الدولة، وأمَرَ عساكرَ الدّليل والينكچرية، بالخروجِ بالمدافع والجبخانة إلىٰ منطقتي طره والجيزة[2].

وعندما وصلَ محمّد علي وحسن باشا إلىٰ طره، تردّدت قواتُ الدليل في الهجوم علىٰ قوات محمّد علي، فلم يتركْ محمّد علي هذه الفرصةَ، واستخدم المعروفَ مع عساكر الدليل، وأرسل لهم قائلًا: نحن أتينا لطلبِ العلوفة فقط، وليس لديْنا علاقةٌ مع أحد، ووُفق في خداعِهم والضحك عليهم، فقالوا فيما بينهم: يجبُ ألّا نقاتل هؤلاء، وانسحبوا إلىٰ أماكنهم في دير الطّين والقصر العيني، بعد ذلك نجح محمّد علي في دخولِ المدينة مع

(١) H.H. No; 3474/G.

(٢) Cevdet, Tarih VII. 23-24.

عساكره يهزّ يديه، فجرىٰ سلحدار خورشيد باشا -أمامَ هذا الوضع- إلىٰ عساكر الدّليل مُسرعًا، وعندما طلب منهم منعَهم من الدّخول وإيقافَهم؛ قالوا له: هؤلاء الرجال جاءوا يطلبون علوفاتهم كيف نتعرّض لهم؟! فهل عندما نطلبُ نحنُ علوفاتنا ستفعلون معنا هكذا؟![1]، ورفضوا الهجومَ علىٰ الباشىٰ بوزوق.

وفي خلال عدّةِ أيّام، نجحَ محمّد علي في السيطرة علىٰ رؤساء عساكر الدليل، وجعلهم علىٰ الحياد، وذهب محمّد علي -الذي دخلَ القاهرة- إلىٰ منزله في الأزبكية، واستقرّ به، فمنع خورشيد باشا العلماءَ والمشايخ والأوجاقات العسكريةَ من الاتّصال بمحمّد علي، وبناءً علىٰ ذلك، بدأ محمّد علي في التحرّك لإنزال خورشيد باشا من الولاية، وإخراجه من مصر، وفي تلك الأثناء، كانت عساكرُ الدّليل -الموجودةُ في القصر العيني ودير التّين- قد تعدّتْ علىٰ أهالي مصر بالظلم، ونهبِ أموالهم كثيرًا؛ لذلك قام محمّد علي بتحريضِ أهالي مصر القديمة في السّر، فذهبوا في اليوم الأوّل من صفر ١٢٢٠هـ/ ١ مايو ١٨٠٥م إلىٰ الجامع الأزهر، وبدؤوا في الشّكوىٰ والصّياح، وبدأ خللٌ يظهر في مصر من جديد، وقام فرسانُ الدّليل -الذين انسحبوا إلىٰ قليوب- بالتعدّي علىٰ الأهالي هناك بالظلم.

(١) Cevdel, Ayn1 Eser, VII, 24.

تحيّر خورشيد باشا كثيرًا، سواء من سرعةِ عودة محمّد علي إلىٰ القاهرة، وإقامته مع عساكره من جديد، أو مِن أنّه (خورشيد باشا) بقيَ مكتوفَ الأيدي أمام ذلك، ويُفهَم من ذلك، أنّ خورشيد باشا لم يكنْ يتوقّع حدوث مثل هذا الوضع، ولم يخطرْ حتّىٰ علىٰ باله، وأمامَ هذا الوضع الجديد، فهِمَ خورشيد باشا أنّه لن يستطيع إخراجَ محمّد علي وعساكرَه بالقوّة من مصر، أو فعل شيء له الآن، وبناءً عليه، أدرك الوالي أنّه يجب أنْ يحلّ الموضوع معه بشكلٍ جيد، ويفقد الأمل في إخراجِ محمّد علي من مصر، وقبلَ فترةٍ من ذلك، كما أشرْنا من قبل، أنّ خورشيد باشا كان قد طلبَ من الدّولة منحَ رتبة الوزارة لمحمّد علي، وإخراجه من مصر، وعندما جاء أمرٌ ومنشور في هذا الخصوص، كان خورشيد باشا قد خبّأ هذه الأوامرَ معه، فأخرج خورشيد باشا هذه الأوامرَ التي قد خبّأها من قبل، وكان يظنّ أنّه يُمكنه إبعاد محمّد علي من مصرَ بهذه الوظيفة الجديدة، لكنّ محمّد علي -في الأساس- كان يعلم أنّ رتبةَ الوزارة قد جاءتْ له من قبل، وأنّ خورشيد باشا لم يخبرْه بها عنْ قصد، ثمّ قام خورشيد باشا -في يوم ١٠ صفر- بجمع رؤساء العسكر، ووجهاء القاهرة إلىٰ مجلسِه، وبلّغ محمّد علي بمنحه رتبة الوزارة، وتعيينِه علىٰ ولاية جدّة، وأخبره بضرورة ذهابِه إلىٰ جدّة سريعًا، وفي الوقت نفسه الذي ذهب فيه محمّد علي -بعدَ لبس خلعة الوزارة- إلىٰ منزله، أوقفتْه العساكرُ، وطلبت منه العلوفة، فقال لهم: ها هو الوالي

باشا، اطلبوها منْه، واستمرّ في طريقه ناثرًا الذّهب علىٰ الناس، حتّىٰ وصل منزلَه في الأزبكية، فذهب العسكر مرّةً أخرىٰ إلىٰ خورشيد باشا، وألحّوا في طلب العلوفة، وضايقوه كثيرًا، ففرح الأهالي غير الراضين عن خورشيد باشا من ذلك، ووفقًا لمَا فهِمَ من تقرير خورشيد باشا: أنّه قبل إعطاء منشور ولاية جدّة لمحمد علي، التقىٰ سرًّا ببعض قادة العسكر، وسألهم عن موقفهم بعد أنْ يمنَح الوزارة له، إذا لم يخرج من مصرَ كيف سيتحرّكون، فكتب خورشيد باشا أنّهم قالوا: إذا لم يخرجْ محمّد علي من مصر -بعد منحِه رتبة الوزارة والوظيفة- فسيُقْدمون بالاتّفاق علىٰ إخراجِه، لكنْ لم يُعرف مَن هُم هؤلاء القادة[1].

لكنّ بعضَ المصادر ذكرت أنّه جاء في الوثائق، أنّ بعض قادة الأرناؤوط -مثل عمر بك وصالح قوريجه- قدْ تحرّكوا مع خورشيد باشا، وأنّهم اتّفقوا معه، وتقرير خورشيد باشا يقوّي هذا الأمر. ويُعتقد أنّ محمّد علي قد جعلَ بعضَ رجاله ينشقّونَ عنه، ويقتربون من خورشيد باشا؛ لكي يضربَه من الخلف. علاوةً علىٰ ذلك، عندما وقف محمّد علي ضدّ خورشيد باشا، لم تحدثْ أيّ مساعدةٍ فعليّة من هؤلاء القادة المذكورين لخورشيد باشا، فقد كان ذلك في الأساس عبارة عن لعبة من محمّد علي.

---

(١) تقرير تتار سليم، H.H. No: 3474/1 Keza H.H. N: 3474/K، من أجل تفاصيل عن الأحداث انظر: Cevdet, Tarih VIII, 24-25.

محمد علي (١٧٦٩-١٨٤٩)، الضابط ذو الرتبة الرفيعة في الجيش التركي، الذي تمّ اختياره عام ١٨٠٥م حاكمًا لمصر، وتحت قيادته تمّ الاستيلاء علىٰ البلاد، ورغم خطواته الأولىٰ التي اتّخذها نحو دولة قوميّة مستقلّة، إلّا أنّ مصر ظلّت لسنوات عديدة -بعدَ وفاة محمد علي- جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، وفي عام ١٨٤١م، أصبحَ الحاكمَ الوراثي لمصر، واحتفظت أسرته بالسلطة لأكثر من قرن، حتىٰ الإطاحة بالملك فاروق (من مصر بقلم ج. إبيرز G. Ebers).

حرّض محمّد علي الأهالي المُجتمعين في الجامع الأزهر ضدّ الوالي خورشيد باشا، أمّا خورشيد باشا -في اليوم التّالي- أرسل خبرًا للناس بأنّهم آمنون، وبأنْ يفتحوا دكاكينهم، وكان محمّد علي سعيدًا لأبْعَد درجةٍ؛ من أنّه قطف ثمارَ التّدبير والتّحريض، الذي فعله سرًّا مع الأهالي؛ لأنّ الأحداثَ كانت تسير في صالحِه، وفي الوقت نفسه، اتّفق سرًّا مع الشّيخ عبد الله الشرقاوي -من أفاضلِ العلماء-، ومع نقيب الأشراف السّيد عمر مكرم، وجذبَ قاضي مصر أيضًا لصفّه، وحدثتِ الاضطراباتُ من جديد بناءً علىٰ أمر خورشيد باشا، وكان أهالي القاهرة يقولون: الباشا يريد السّطوَ علىٰ الفقراء، ونشرَ الهرج والمرج في الولاية.

ونزلَ الأهالي والعلماءُ والأطفال، وجميع النّاس إلىٰ الشوارع، وصاحوا قائلين: النجدة مِن يدِ هذا الوالي الظّالم، وفي ١٣ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٣ مايو ١٨٠٥م، اجتمع الأهالي في المحكمة، ثمّ ذهبوا إلىٰ منزل محمّد علي في الأزبكية، وأخبروه بأنّ كلّ الناس -كبيرهم وصغيرهم- قد اتّفقوا علىٰ أنّهم لا يريدون خورشيد باشا في هذه الولاية، ويجبُ عزلُه في الحال، فقال لهُم محمّد علي: حسنًا! فمَن تريدون أن يكون واليًا؟ فقالوا: نريدُك أنت؛ لأنّنا نتوسّم فيك الخيرَ والعدل، في البداية، لم يردَّ محمّد علي قبولَ هذه الرغبة، تدلّل قليلًا، لكنْ عندما أصرّوا وافق، وأحضروا الكورك (غطاء الرّأس) والقفطان، وقام قاضي مصر بإلباسهما محمّد علي.

وهكذا في نهاية تمرّدات الشعب المرتّبة، حصل محمد علي علىٰ إدارة الولاية، وكلّ هذه الأحداث لم تكنْ شيئًا سوىٰ أنّها مكيدة مدبّرةٍ من محمّد علي، وبهذه الصّورة لم يكن محمّد علي غاصبًا، أو عاصيًا، عندما جلسَ علىٰ ولاية مصر، بالعكس كان يحكمُ بتفويضٍ من الشّعب والعلماء، وأخبروا خورشيد باشا بالأمرِ الواقع، وطلبوا نزولَه من القلعة، فرفض خورشيد باشا بشدّة قائلًا: أنا عُيّنت بأمر السّلطان، ولا أُعزل بأمْرِ الفلاحين، وطالما لم يأتِ أمرٌ من السّلطان، لن أنزلَ من القلعة، وفي الوقت نفسه، بدأ يستعدّ في الدّفاع عن القلعة، في تلك الأثناء، كان محمد بك الألفي قد وصلَ إلىٰ المنصورة، وتواصلَ مع بعض المشايخ، وفي اليوم نفسه الذي وقعت فيه هذه الحوادث، أخبرَ خورشيد باشا البابَ العالي عن طريق عريضة، أرسلها بتاريخ ١٣ صفر ١٢٢٠هـ. يقول خورشيد باشا في هذه العَريضة: *«بعدَ ثلاثةِ أيّام من تبليغ محمّد علي بالأوامر الخاصّة بمأموريّته علىٰ جدّة، بدأ في إظهارِ وإخراجِ الفتنة والفساد المستقرّ في ذاته، وقام بتحريضِ أهالي مصرَ والعساكر وإغوائهم، وفي النّهاية، كنت قد أصبحت قائمقامَ مصر، وقد استلمت عريضة من الدّولة العليّة بتعْييني علىٰ ولاية مصر، وحصلت علىٰ ولاية مصر، والآن أنا قائمقام مصر، لكنْ يصيح الناسُ الآن في مصر، ويقولون: إنّهم سيضبطون شئون الولاية، وأشارَ خورشيد باشا أنّ أوّلَ تدبيرٍ قام به؛ هو إرسالُ خبرٍ إلىٰ سلحداره الموجود نواحي جرجا، بالقدومِ*

إلىٰ القاهرة، وطلب إرسالَ أسطولٍ علىٰ وجه السّرعة إليه، كما معلوم أنّه يقيم في قلعة مصر، وطلب ألّا يُنظر إلىٰ مَحاضر وتقارير أهالي مصر والآخرين، ورجَا علىٰ وجْه الخصوص معرفةَ أنّ هذه العريضة هي الصّحيحة، وفي النهاية، طلب بشدّةٍ إرسالَ عساكر كثيرة وأسطولٍ»، وذكرَ خورشيد باشا في عريضةٍ أخرىٰ، بتاريخ ١٤ صفر ١٢٢٠هـ: *«أنّ محمّد علي قام بتحريض العلماء، وأوجاقات العساكر، وأهالي مصر، والقاضي أفندي، وإغوائهم؛ لذلك خرجوا عليه وحدث هذا التمرّد»*[١].

في تلك الأثناء، أمر محمّد علي أهالي مصر والعلماءَ بكتابة محاضرَ؛ من أجل طلب تعْيينه علىٰ ولاية مصر، وجاء في هذه المحاضر: لقد اختار الشّعبُ -الذي عانىٰ من الظلم والجوْر والتعدّي، الذي قام به خورشيد باشا- والي جدّة محمد باشا قائمقامًا لمصر مكانَه، وأنهم سيرجعون إليه، ومن بعد الآن لن يقبلوا خورشيد باشا واليًا عليهم، وطلبوا ورجَوا تعيينَ محمّد علي باشا واليًا علىٰ مصر[٢].

بعد اللّقاء الذي أُجريَ مع العلماء وزعماءِ المملكة؛ من أجل إمكانية إنزال خورشيد باشا الذي يقاوم في النّزول من القلعة، قرّروا -متّحدين في ١٩ صفر ١٢٢٠هـ/ ١٩ مايو ١٨٠٥م- حصار القلعة، وكُتبت فتوىٰ تشرعُ الحربَ ضدّ خورشيد باشا،

---

(١) H.H.No: 3474/J.

(٢) H.H.No: 3474/İ.

ونختصرُ الفتوىٰ المكتوبة باللغة العربية، وتوقيع قاضي مصر حافظ حسن أفندي، ومفتيي المذاهب؛ المالكية والحنفية والشافعية: لقد نصَّب السّلطانُ عبده واليًا علىٰ مصر، لكنّ هذا الوالي لم يحكمْ بالعدل، وظلم الأهالي وجلب الخرابَ للبلد، فقام الأهالي بالتحرّك ضدّه، مُستندين علىٰ الخطوط الهمايونية المتعدّدة الموجودة في أيديهم منذُ القدم، وأرادوا إخراجَه من قصره، وتعيينَ قائمقام مكانَه، حتّىٰ يأتي والٍ آخرُ من إستانبول، وبالرّغم من نصح شيخِ الإسلام ونائبه في مصر له علىٰ الدّوام، إلّا أنّ الوالي كان يستمرّ في ظلمِه أكثرَ من الأوّل، ويقاوم في عدم الخروج من القصر (القلعة)، فهل هناك إذنٌ شرعي في محاربتِه بالعساكر؛ من أجل إخراجه وعساكره من قصرِه، وحبسِه في مكانٍ آمن، حتّىٰ يأتي والٍ جديدٌ مكانه؟ الجواب: نعمْ يوجد[1].

وكتبَ مُفْتو المالكية والحنفية والشافعية أسفلَ هذه العريضة: أنّهم اطّلعوا عليها، وأرسلت الفتوىٰ نفسُها إلىٰ مركز الدّولة، وبعد إرسالها حاصروا القلعة، وبدأ الباشىٰ بوزوق مع الأهالي في التّضييق علىٰ أطراف القلعة، في تلك الأثناء، أحضر محمّد علي باشا عساكرَ الدّليل من قليوب، وأرسلهم علىٰ الألفي بك، لكنْ بسبب أنّ قلعة القاهرة مُحكَمة، وصعبٌ الاستيلاءُ عليها، كان الحصار كأنّه سيستمرّ طويلًا، وهكذا كانَ بالفعل، ولم تؤثّر قذائفُ المدفعية والهاون -التي ألقاها خورشيد باشا من القلعة-

(١) H.H. No; 3969.

في معنويّات الشعب؛ لأنّهم اعْتادوا ذلك منذ الاحتلال الفرنسي، وكان محمّد علي غير مهتم بهذه الفعاليات، التي قام بها خورشيد باشا، وواصل حصارَ القلعة، واستمرّ هذا الوضعُ لمدّة شهر، في النّهاية، نصَبَ محمّد علي مدفعًا كبيرًا أمام بابِ الوزير، وبدأ في ضرب القلعة، والآن لنتحدّث عن موقف البابِ العالي من الأحداث الأخيرة هذه[1].

(١) H.H. No; 4781 Arapça İlâm ve Fetva 1 Rebiülevvel 1220/30 May1s 1805.

٤- موقفُ البابِ العالي من الصّراع بين خورشيد باشا ومحمد علي باشا، وتعييـنُ محمّد علي باشا على ولاية مصر

قابلَ البابُ العالي -الذي اطّلع علىٰ تحريرات خورشيد باشا السّابقة عن الاضطرابات الجديدة التي حدثت في مصر، وعلىٰ محاضر الأهالي التي أعربتْ عن عدم رضاها عن الباشا، واختيارها والي جدّة محمّد علي باشا قائمقامًا- قابلها بقلقٍ وحيرةٍ شديدة؛ لأنّ الباب العالي كان يعتقدُ أنّ خورشيد باشا قد حقّق الهدوءَ والأمن في منطقةِ مصر، وتحكّم في الوضع تمامًا، معتمدًا علىٰ تحريراتِه السّابقة، وكانت الدولةُ قد فرحتْ كثيرًا من تحقيق الأمن والنظام داخل مصر، لكن هذه الاضطراباتِ التي حدثت فجأة، وبشكل غير متوقع، قد أوقعتِ البابَ العالي في حيرة؛ لأنّ أحد القضايا المهمّة بالنّسبة للدولة في ذلك الوقت؛ هي قضية الوهابيّين المتعلقة عن قربٍ بمصر، فكانت مصرُ تمتلك موقعًا

مهمًّا بالنسبة لأمْن الحرمين؛ لذلك كان أملُ الباب العالي هو تحقيق الأمنِ في مصر في أسرع وقتٍ، بسبب زيادة ضغط الوهابيّين علىٰ الحرمين، لكن في الوقت نفسه، لم يكنِ البابُ العالي يمتلك معلومةً واضحة وقاطعة بشأن ماهية هذه الأحداث الجديدة، فالشّيء الوحيدُ الذي يعرفه البابُ العالي؛ هو أنّه بعدَ منح ولاية جدّة إلىٰ محمّد علي، بدأ جميعُ أهالي مصر -ساخطين- يتحرّكون ضدّ ظلمِ خورشيد باشا وتعدّيه، وأنّهم اختاروا محمّد علي باشا قائمقامًا علىٰ مصر، وبدؤوا محاربة خورشيد باشا المُقيم في القلعة، لكنْ سبب حدوث ذلك ولماذا حدث، كان مجهولًا لدىٰ البابِ العالي، وهذا -مع الأسف- يدلّ بوضوحٍ علىٰ أنّ الحكومة لم تعْطِ أهميةً كبيرة لأحداثِ مصر، ومِن ناحيةٍ أخرىٰ كانت عاجزةً عن فعل شيء، وبهذا الاعتبار، اضطرّ البابُ العالي إلىٰ التحرّك، وفقًا لبعض الاحتمالات بخصوص التدابير التي سيتّخذها، ويُفهَم من تلخيص الصّدر الأعظم، أنّ تدابير الدولة التي اتّخذتها كانت علىٰ النحو الآتي: يقول الصدرُ الأعظم في تلخيصه: *«لقد تمّ سرًّا استدعاءُ مير آخور ثاني صالح بك الذي يعرفُ جيدًا، سواء الوضع في مصر، أو وضع محمّد علي، أو وضع خورشيد باشا، وأحوالهم، من أجلِ اتّخاذ التّدابير اللازمة ضدّ أيّ احتمالٍ يمكن أن يحدُث، مع عدم علمنا بوضع مصر، وأيّ حالةٍ وصلت لها، وسألتُه عن حالِ الاثنين؟ وما عاقبتهما؟ وما هدفهما من ذلك؟ فقال في جوابه: إذا*

لم يتّحد محمّد علي مع الأمراء، سينتصرُ خورشيد باشا؛ بسبب اتّحاده مع صالح قوج وعمر بك من رؤساء الجند، لكنّ وضعَ مصر يتغيّر كلَّ يوم، فلا يمكن إعطاء إجابة قطعيّة، لكن يجب توقّعُ كلتا الحالتين؛ من أجل مصلحة الدولة العلية، أمّا إذا غلبَ محمّد علي، فسيتمّ منح ولاية مصر له، وإذا غلب خورشيد باشا، يجب إرسال محمّد علي سريعًا إلىٰ جدّة، فيجب إرسال أحدِ هؤلاء الاثنين اللّذين يعرفان إدارة الأمر جيدًا، لكن إذا غلب محمّد علي، يجب استخدامُه مدّةً من الزمن، فمِن الممكن أن يعمل في خدمة الدولة، ويحقّق إرسال المساعدات إلىٰ الحرمين، والعكس أيضًا هكذا، لكن إذا اتّفق محمّد علي مع المَماليك، فيجب وضعُ خطّة جديدةٍ لهؤلاء، ونظام جديد، وبسببِ أنّ مقولة صالح بك كانت مناسبة لتدبيرنا، قلتُ للقبطان باشا: بأنْ يذهب بالأسطول، وفي الأصل كان القبطان باشا علىٰ علاقةٍ طيّبة مع الاثنين، وقلتُ له: لو وجدتَ أيًّا منهم هو الحاكم، تقول: إنّ القبطان باشا قد أرسلَك بأمره، مثلما هو مرسل من طرف السّلطان، وعندما يسأل عن إرسال صالح بك، تقول: هو سيبقىٰ في الإسكندرية، أنا عبدُ السّلطان، لو أرسلني إلىٰ أيّ مكان سأذهب، تجاوب هكذا، وبعد ذلك تعملُ الآتي عند وصولك إلىٰ مصر: إذا وجدتَ أيًّا منهم في مقام الوالي، تقوم بتسليمه الفرمان الذي يخصّ مأموريّته، وكأنّها إرادةٌ من السّلطان باختياره من طرف الدولة، مثلًا: لو وجدت محمّد علي هو الحاكم، تقول له:

إنّ الدّولة قد أحسنتْ عليك بولاية مصر من أجل مصلحة الحرمين، فلتبذلْ جهدَك في ذلك، ومن أجل تأكيد هذه الرّغبة، سيأتي القبطان باشا بعدي، ولا يوجد شيء يُمكن أن يُقال، أنتُم تعرفون ذلك، ويتمّ حلّ الأمر بسهولة، أمّا إذا وجدت أن خورشيد باشا هو الحاكمُ، يأتي الأسطولُ مع القبطان باشا، ويقول لمحمّد علي: لقد نلتَ الوزارة فلتذهب إلىٰ جدّة برضائك، وعندها يجبُ إبعادُ محمّد علي بالقوة، وهدفي أنْ يأتي الأسطول من خلفي، ويتمّ التجسّس دونَ إهمالِ ترتيبات البرّ، مثلما وصل القبطان باشا من البحر، ولا يهتمّون بالضجيج الذي سأحدِثُه أنا، لكنْ إذا جاء من الخلف؛ سيحدُث صخبٌ كثير[1]، وهكذا يصبح الأمر سهلًا[2]، وأخبر الصّدر الأعظم، أنّ ما قاله يعدّ موافقًا للعقل، فكتبَ السّلطان سليم الثالث علىٰ هذا التّلخيص: *«هذا الأمر يُعجبني كثيرًا، وليتمّ تبديل الفرمانات هذه الليلة، وإرسال صالح بك سريعًا، إنْ شاء اللهُ سيكون موفّقًا»*.

وفي هذه الحالة، كانت الدولةُ قد قرّرت إرسالَ أسطول في البداية، مثلما طلب خورشيد باشا من قبل، لكنّ الوضعَ الدّاخلي في مصر غيرُ واضحٍ جيّدًا، وبعد أنْ وصل الأسطول إلىٰ الإسكندرية، وقعَ في حيرة بشأنِ التّدبير الذي سيأخذه؛ لذلك تمّ

(١) Cevdet, Tarih V l. 24-25; Mengin, F. Ayn1 E.ser. 1. p. 160 vd; Brehiev, L. Egypte, p. 22-23.

(٢) H.H. No: 3640.

الاستفسارُ من صالح بك مير آخور ثاني، الذي يعرفُ جيدًا الوضعَ الدّاخلي في مصر، ويعرفُ -عن قُرب- محمّد علي وخورشيد باشا، وكان قد أقامَ في مصر مدّةً من قبل، وحدثتِ المقابلة بين الصّدرِ الأعظم وصالح بك في السّر، ورؤية صالح بك كانت معروفةً مَن سيكون الوالي بقوّة، وكان نجاحُ هذا الأمر مرتبطًا بمنحه هذه الوظيفة، وكان في قناعةِ صالح بك -في الوقت نفسه- أنّ الأسطول سيكون له تأثيرٌ كبير، لكنه طلبَ أن يأتي من بعده، وأُعجب البابُ العالي -الذي كان قد حشرَ في الزاوية، وأصبح دونَ قرار- أعجبَ بما اقترحه صالح بك من فكْر، حتّىٰ السلطان كان يرىٰ أنّ فكرتَه جيدة، وبناءً علىٰ ما فهِمَ من التّلخيص الآخر، أنّه تمّ إعدادُ فرمانيْن؛ أحدُ هذيْن الفرمانين: ببقاءِ خورشيد باشا في ولاية مصر، أمّا الفرمان الآخر: فليس بتوجيه ولاية جدّة إلىٰ محمّد علي، والي جدّة السّابق بالفعل كما هو معلوم؛ بل بتوجيه ولايةِ مصر إلىٰ محمّد علي، وهذه الأوامرُ أُعطيت لصالح بك، بشرط التحرّك (استخدامها) وفقًا للوضع في مصر. بالإضافةِ إلىٰ ذلك، جُهّزت أوامر أخرىٰ بتوجيه مشْيخة البلد إلىٰ رئيس الجماعة؛ التي تكون الأقربَ في الاتّفاق مع محمد علي مِن جماعة إبراهيم بك والألفي بك، وكتب السلطان سليم الثّالث بخطّه علىٰ التّخليص المتعلّق بهذه الأوامر التي سترسَل، مُعربًا عن رأيه قائلًا: يا وزيري، الفرمانات جيدة

للغاية، فلترسلها في الحال[1]، وتمّ إخبارُ الحاج محمد باشا قبطان البحر، الذي سيذهبُ إلىٰ مصر بهذا الأمر[2]. وهكذا، خرج صالح بك، ومعه سلحدار الصدر الأعظم، بهذه الأوامر، المذكورة آنفًا.

وفي أثناء وصول صالح بك وسلحدار الصّدر الأعظم إلىٰ مصر، وجدوا أهالي القاهرة وعساكر الباشىٰ بوزوق مستمرّين في حصار خورشيد باشا، الموجودِ داخل القلعة، وبعد وصول صالح بك إلىٰ القاهرة مباشرةً، اجتمعَ -في ١١ ربيع الأول ١٢٢٠هـ/ بداية يوليو ١٨٠٥م- العلماء والأوجاقات العسكرية، ووجهاء المدينة في الأزبكية، وفي هذا الاجتماع، وفقًا لما رُوي؛ أنّ صالح بك -الذي قد مالَ إلىٰ صفّ محمّد علي عن طريق الرّشوة والارتشاء- قد جاءَ إلىٰ مصر، وقرأ الفرمان الذي يخبرُ بعزل خورشيد باشا مِن ولاية مصر، وتعيينِه في وظيفةٍ أخرىٰ، وتعيين محمّد علي واليًا علىٰ مصرَ مكانه، وتكليفه بالقضاءِ علىٰ عصيان الوهابية، وبناءً علىٰ ذلك، يجب علىٰ الطرفين منعُ ضرب المدافع، لكنّ اللافت هنا؛ أنّ قراءة فرمان الولاية هذا كان لصالح طرفٍ واحد فقط، يعني دونَ أن يسمع خورشيد باشا بذلك، انتهىٰ الأمرُ الذي جاء مِن أجله، وفي

(١) صورة فرمان إبقاء مشيخة البلد المرسل إلىٰ إبراهيم بك:
H.H. No: 3610; H.H. No: 15386.

(٢) M. Mısır No:(I sf. 63.

الوقت نفسه، بموجب الصّلاحية التي حصل عليها محمّد علي بولاية مصر؛ أخبر صالح بك بإخبار خورشيد باشا -المحْصور في القلعة- بهذا الأمرِ، عن طريق مذكّرة تُعرَض عليه، لكنّ خورشيد باشا أصرّ علىٰ عدمِ النّزول من القلعة، وأرسل لهم قائلًا: أنا تولّيتُ مصر بموجبَ خطٍّ همايونيّ، ولا أُعزل بورقة مثلَ هذه، فليأتِ صالح أغا وسلحدارُ الصّدر الأعظم، ويبلغوني شفهيًّا، لكنّ محمّد علي لم يكنْ يسمحُ بوضعٍ هكذا، ولم يأذنْ بصعود هذيْن الشّخصين لمقابلة خورشيد باشا في القلعة، واستمرّ في حصار القلعة مثل السابق.

ومِن جانبٍ آخر، في تلك الأثناء، يعني في يوم ٢١ ربيع الآخر ١٢٢٠هـ/ أواسط يوليو ١٨٠٥م، وصلَ قبطان باشا الحاجّ محمد باشا بالأسطول إلىٰ الإسكندرية، فأرسل في الحال خبرًا إلىٰ خورشيد باشا بالنّزول من القلعة، وفي الجواب الذي ردَّ به خورشيد باشا علىٰ القبطان باشا، كان يحاول تجربةَ آخرِ ورقةٍ يمكن استخدامها ضدّ محمّد علي حتّىٰ الآن؛ حيث جاءَ في جوابِ خورشيد باشا: بسبب أنّ العساكر لها علوفات متأخّرة علي، ومقدارها كثيرٌ جدًّا، وبسبب عدم وجودِ أقجة كافية يمكن دفعُها لهؤلاء مقابلَ ذلك؛ لذلك لا يمكن النّزولُ من القلعة لهذا السبب.

لكنْ في الوقت نفسه، كان خورشيد باشا مع عدمِ خروجه من القلعة، يبحث عن طريقةٍ تخلّصه من محمّد علي، عن طريق

الاتّفاق مع بعض أتباعه من المماليك، لهذا السبب، تقدّم أمراءُ المماليك بالقوّات التي معهم حتّىٰ الجيزة، بناءً عليه، أرسل محمّد علي باشا مقدارًا كافيًا مِن عساكر الباشىٰ بوزوق علىٰ المماليك، فنجحوا في منْع تقدّمهم ودرأهم، وواصل هو حصارَ القلعة دون توقّف، في النّهاية اضطرّ خورشيد باشا -الذي بقيَ عاجزًا عنْ فعل شيء- إلىٰ النّزولِ من القلعة في يوم ١٠ جمادىٰ الآخرة ١٢٢٠هـ/ ٦ أغسطس ١٨٠٥م، وقبل يوم من نزولِه، كان قدْ أنزلَ كلّ أثقالِه إلىٰ بولاق، ثمّ نزل بنفسِه إلىٰ بولاق، وركب سفينةً، ورحلَ عن الأراضي المصرية[١].

وشرحَ مير آخور ثاني صالح بك عنْ هذا الوضع في تقريره المرسَل إلىٰ الصّدارة، فقال مصدّقًا بحالِ خورشيد باشا: «*لم يكنْ هناك ذنبٌ في عدم نزول خورشيد باشا من القلعة، فكان مجبورًا بسبب علوفة العساكر المعلوم حالها، لذلك لم يكنْ هناك قصورٌ، أو تكاسلٌ، من جانب خورشيد باشا في هذا الأمر*»[٢]، بالإضافةِ إلىٰ ذلك، كانت هناك شائعاتٌ؛ بأنّ الأمراء القادمين إلىٰ مصرَ علىٰ وشك الاتّحاد مع خورشيد باشا، وهذا لم يكن صحيحًا، وبناءً علىٰ فساد الأمراء كانوا يقولون: بسبب أنّ هناك خللًا في

(١) H.H. No: 3620; M. Cevdet; Dahiliye, 14988.

(٢) H.H. No: 3478/D Salih Bey'in Tahriri. Keza Cevdet; Tarih V ül, 26;mengin, F. Ayn1 Eser, I. p. 172 vd. vd; Histoire de la Nat. Egyptienne, T. VI. p. 25-26.

(٣) M. Mısır, No; 12 sf.2. كتبت بعض المصادر عن طريق الخطأ؛ أن تعيين

مصر؛ يجبُ أن نكون قريبين منها في هذه الفترة، فكانوا يتجوّلون بالقرب من القاهرة، لذلك لم يحدث الاتّفاق بين الباشا والأمراء.

وهكذا، وكما هو مفهومٌ ممّا ذُكر سابقًا، أنّ محمّد علي -الذي جاء إلىٰ الأراضي المصرية، قبل خمسة إلىٰ ستّة أعوام بعسْكره، من دون شيء علىٰ الإطلاق- استطاع -في نهاية الحيل والمؤامرات المتنوّعة التي حاكها، خلالَ هذه الفترة القصيرة- الإفادةَ من الوضع لصالحه، وجنىٰ الثمار النّاضجة، وهي ولاية مصر، وحصلَ علىٰ ما يريد، وبهذا الشّكل، اعتلىٰ محمّد علي مقامَ ولاية مصر، الذي كان قد عزمَ منذُ البداية في الحصول عليه، وكان يجهّز لذلك منذ فترة، وفي نظر خورشيد باشا، أنّ العلماء والشّعبَ المصري كان لهم دورٌ مهمٌّ في الاتّحاد مع محمد علي، وقِيل لمحمّد علي في فرمان ولاية مصر المرسَل مع صالح بك، بتاريخ أوائل ربيع الأول ١٢٢٠هـ/ نهاية مايو- بداية يونيه ١٨٠٥م: بسبب حمايتِك للفقراء والأهالي في فترة الخلل الذي وقع في مصر، ودفع الفتنة والفساد، والتحرّك وفقًا لرغبتي في تحقيق الأمن في البلاد، وبسبب رضا كافة العلماءِ والسّادات عنك؛ تمّ الإحسانُ عليك بخطّي الهمايوني، الذي صدرَ بتوليتك ولاية مصر، لذلك يجب عليك:

١- حماية الفقراء والعاجزين، وتحقيق الأمن والأمان في الولاية.

٢- الاهتمام بتحقيق الراحة، وتأمين البلاد؛ بإزالة الخلل والفساد الذي وقع، ومحْوه.

٣- إرسال الإمدادات والمساعدات للحرمين في كلّ الأحوال، عن طريق إرسال الذخيرة التي يحتاجها أهالي الحرمين.

٤- الاهتمام بإرسال مخصّصات الكيلار العامرة، والترسانة المعمورة، والعائد المرتب لخزينة الإيراد الجديد في الوقت المحدد. ومن بعد الآن، المطلوب منك الاهتمام بهذه الأمور المذكورة سابقًا، وبذل الهمّة في تحقيقها، وأنْ تكون بقدْرِ ما هو مأمولٌ منك[1].

وهكذا، بعدَ أن أصبحَ محمد علي واليًا من طرف البابِ العالي، كان يرىٰ أنّه يمثّل أكبر قوّةٍ موجودة في مصر، لكنْ مازال أمراءُ المماليك يهجمون علىٰ أطراف القاهرة، ولم يتخلوا عن تحركاتِهم المتسلطة، مما أدىٰ إلىٰ إزعاجه، وكما هو معلومٌ، أنّ قوات المماليك عبارة عن فرسان سريعةِ الحركة، وفي الوقت نفسه يعرفون صحارىٰ مصر وجبالَها جيدًا، وأنّ إرسال قوة قليلة ضدّهم لا يُجدي نفعًا البتّة، كما أنّ القوات الكثيرة التي ذهبت خلفَهم انسحبت في الحال، وعندما رأوا أنّ قواتِ محمّد علي قد

محمّد علي علىٰ ولاية مصر كان عام ١٨٠٤م.

(١) تقرير محمّد علي باشا، بخصوص أنه سيقوم بطرد الأمراء المماليك، الذين

انسحبتْ؛ جاءوا مرّةً أخرىٰ إلىٰ مصر[1]، وفهم محمّد علي أنّ المماليك سيستمرّون في عاداتهم القديمة هذه؛ لذلك أراد أنْ ينصبَ لهم فخًّا للقضاء عليهم علىٰ هذا النّحو:

قامَ محمّد علي بترتيب وتعليم بعض قادة الأرناؤوط، الذي يثقُ فيهم جيدًا، وأرسلهم سرًّا للمحاربة في صفّ الأمراء المماليك، وأن يتعهّد هؤلاء القادة للأمراءِ بالمساعدة، حتّىٰ إنهم وضعوا البنود؛ في أنّهم سيدخلون المالَ في الاتّفاق معهم، فصدقهم الأمراءُ المماليك، وطبقًا للخطّة السّرية التي اتّفق فيها القادة الأرناؤوط مع الأمراء المماليك؛ أنّه عند حدوث فيضانِ مياه النيل، وصعود الماء إلىٰ فم الخليج؛ يدخل المماليكُ القاهرة فجأة، ويحاولون الاستيلاءَ علىٰ الأبراج والمستحكمات؛ بوضْعِ فلان في مكانِ كذا، وفلان في مكان كذا، وصدق المماليك - أيضًا- أنّ هناك من أهالي القاهرة مَن هو غيرُ راضٍ عن محمد علي، وفي يوم ٢٠ جمادىٰ الأول ١٢٢٠هـ/ ٢٧ أغسطس ١٨٠٦م، خرج كلّ النّاس للتنزّه؛ بسبب وفاء النيل، فدخل كثيرٌ من المماليك والكشّاف إلىٰ المدينة، لكنْ بناءً علىٰ ما ذكره جودت باشا بالتّفصيل: أنّه تمّ إغلاق أبواب المدينة عليهم، وحشرهم في الزّاوية والقبض عليهم، وقُتل كثيرٌ منهم من القذائف

يتجولون نواحي الجيزة في أقرب وقت ممكن.

H.H. No; 3478/E ve Keza H.H. No: 3478/A.

(١) H.H. No; 3478/M Keza H.H. No: 3478/0 ve Keza H.H. No; 3483 Cevdet

النّارية، وقُطعت رؤوس ٥-٦ من الأمراء المهمّين في الأزبكية، وتمّ حشْو جلود الرؤوس المقطوعة تبنًا بعد سلخها، وإرسالها إلىٰ إستانبول؛ كعلامةٍ للنّصر وفقًا لأصولِ ذلك الوقت.

وهكذا، حقّق محمّد علي نجاحًا كبيرًا من المكيدة التي نصبها للأمراء المماليك، وهناك شيء آخرُ؛ هو أنّه منذُ تأسيس أوجاق المماليك، لم يحدثْ لهم حقارة أو عجز بهذا الشكل، فكانت حركةُ محمّد علي هذه ثقيلةً جدًّا عليهم، فانسحبوا مَقْهورين إلىٰ الصعيد[1]، ومن جانب آخر، كانت هذه المؤامرةُ -التي نصبتْ ضدّ أمراء المماليك- قد حقّقت نجاحًا كبيرًا، كبداية في القضاءِ علىٰ المماليك، وإزالة أوجاقهم مِن الوجود، أساسًا، أصبح مصيرُ المماليك وقدرُهم في يد محمد علي بعدُ؛ لأنّه كما هو معلوم، أنّ محمّد علي قبل أنْ يصبح واليًا علىٰ مصر، كان أحيانًا يحارب المماليك، وأحيانًا أخرىٰ يتّفق معهم وفقًا للوضع، فكان يعرف جيدًا استخدامهم كوسيلة في تحقيقِ أهدافه، لكنْ بعد أنْ أصبح كلُّ شيء في مصر -السّلطة والإدارة- في يده، كانت القوة الوحيدةُ التي يمكن أن تنافسَه هي قوّةَ المماليك الضّعفاء؛ لذلك كان أوّلُ عمل سيقوم به؛ هو التخلّص من منافسةِ المماليك، لذلك قام بالقبضِ علىٰ بعضهم، وقتلَ البعضَ الآخر، وكما هو معلومٌ، أنّه بعد قتل المماليك لأوّلِ مرّةٍ في

Tarih, VIII, 28; A. Rasim, Osmanl1 Tarihi, III. 1410 vd.

(١) H.H. No; 3453/A; Keza H.H. No; 3475; H.H. No; 3853/B.

عام ١٨٠٥م، قام محمّد علي في عام ١٨١١م بجمع أمراءِ المماليك -البالغ عددهم ٤٠٠- في القلعة، وقتَلَهم جميعًا. وهكذا يمكن اعتبارُ أنّ عام ١٨١١م؛ هو تاريخُ نهاية أوجاق المماليك في مصر.

بعدَ هذه المكيدة التي أُعدّت لأمراءِ المماليك، وبناءً علىٰ تعدّي عساكر الدليل الموجودين في نواحي الخانكة بالسّلب والنّهب علىٰ القرىٰ والنّواحي، قام محمد علي بإرسال عسكرٍ عليهم، وطردهم إلىٰ الشام. وهكذا، تمكّن محمّد علي من القضاءِ علىٰ كافّة خصومه ومُنافسيه، وبدأ يحكمُ في مصر كحاكمٍ مستقلّ، وتمّ إخبارُ الباب العالي -سواء من طرف محمد علي، أوْ من طرف التقارير المرسلة إلىٰ مركزِ الدّولة من طرف القبطان باشا- بأنّه قد تمّ تخليصُ مصر من الاضطرابات والخلل، والأمور تسيرُ علىٰ ما يُرام، وسيتمّ إرسال مساعداتٍ إلىٰ الحرمين في الوقت نفسه[1]. فاستقبل البابُ العالي هذا الأمرَ بترحابٍ كبير، ومهْما يكنْ من أمر، إذا كان محمّد علي قد استولىٰ علىٰ ولاية مصرَ بالقوّة؛ مُستفيدًا من ضعف الدّولة وعجزها الحقيقي آنذاك؛ إلّا أنّه كما ذكرنا من قبل، أنّ البابَ العالي كان يريد تحقيقَ الأمن في مصر؛ لأنّها الوحيدة القادرة علىٰ إرسال مساعدات إلىٰ الحرميْن الشّريفين، وفي الحقيقة قامَ محمد علي بتكليف ابن أخيه

-طاهر باشا من قادةِ الجند- بهذا العمل، وتوجيه رتبةِ أمير أمراء له، وإرساله من أجل مساعدة الحرمين[1].

وهكذا، بجلوسِ محمّد علي باشا علىٰ ولايةِ مصر؛ دخلت هي والتاريخ العثماني إلىٰ عصر جديد من حيث التأثير.

(١) تقرير محمد صالح أفندي أمين بناء السدّ، الموجود منذ أربعين شهرًا في مصر.
M. Mısır No; 12 sf 7-8, H.H. No; 3478.

الخاتمة

هكذا نرىٰ أنّ حصولَ محمّد علي باشا علىٰ ولايةِ مصر في فترةٍ قصيرة جدًّا، يرجع إلىٰ طبيعة شخصيّته؛ لأنّه عندما جاءَ إلىٰ مصر، كان لا يمتلك أيّ رتبةٍ رسمية علىٰ الإطلاق، فلما رأىٰ الوضعَ الداخلي لولايةِ مصر، وأنّها ولايةٌ غنية، ورأىٰ التنافسَ بين الولاةِ والمماليك، والصّراعات السياسية، وحال شعبِ مصر من الخمول والكسل، بدأ ينسجُ الآمالَ والأحلام في الحصول علىٰ إدارة الولاية، لكنّه كان يُخفي طموحَه وآماله جيدًا، ويعرف الإفادةَ من ذلك جيدًا، وفي الوقتِ المُناسب فىٰ كلّ فرصةٍ تظهر أمامَه، وفي الوقت نفسه، كانت الخصائصُ البارزة في السّياسية التي اتّبعها منذ البداية تتمحورُ في الآتي:

أوّلًا: المشاركةُ في الصّراع بين القوات العسكريةِ الموجودة في مصر، ثمّ الإفادة من هذا الصراع، وجاءَ ذلك من التّحريض والإغواء الذي قام به مع الباشىٰ بوزوق ضدّ الينكچرية، ثمّ الينكچرية ضدّ المَماليك، ثمّ الباشىٰ بوزوق ضدّ المماليك، وفي النّهاية ضربَ المماليكُ بعضهم بعضًا، فكان يستخدمُ التّكتيك

نفسه دائمًا، في تحريض القوّاتِ العسكرية علىٰ التمرّد والعصيان، وكان التحريضُ الوحيد والفعّال؛ هو موضوعَ طلب العلوفات المتأخّرة للجند.

ثانيًا: محاولةُ ترْجيح كفّة الباشىٰ بوزوق دائمًا، في التّوازن بين القوىٰ الثلاث التي كانت تؤدي دورًا أساسيًّا في مصر؛ وهي الينكچرية، والباشىٰ بوزوق، والمماليك، وجعل التّوازنَ بين اثنين دائمًا، وخيرُ دليلٍ علىٰ ذلك؛ أنه استخدم المماليك ضدّ الينكچرية، ثمّ استخدم أهالي مصر ضدّ المماليك، ثمّ أهل مصر من جديدٍ ضدّ خورشيد باشا.

ثالثًا: لم يدفعْ محمّد علي -مِن البداية حتّىٰ تولّيه مصر- نفسَه إلىٰ الأمام أبدًا؛ فقد كان دائمًا يعمل في الصّفّ الثّاني، وفي الخلف، وكان يرىٰ أنّ ذلك هو المناسبُ لتحقيق آماله، وتحرّك بناءً علىٰ ذلك، وهذا الوضعُ كان يسمح له بتأديةِ الدّور بسهولة من وراءِ الستار، وفهِمَ محمّد علي أنّه لا يريدُ أن يظهر غاصبًا أو عاصيًا الدولة، فكان يعملُ من أجل أن يحصل عليها حصولًا شرعيًا، ولأنّه ليس لديه رتبةٌ في نظر الدّولة، ولا يريد أن يخرجَ خروجًا مفاجئًا، كان يحسب كلَّ شيء جيدًا، وكلّ شيء، وسلك طريقًا مشروعًا أدّىٰ في النهاية إلىٰ انْتخابه من الشّعب، فقد كان يعرفُ جيدًا كسبَ ثقةِ الناس، واقترب من الأشخاص الذين اعتقدَ أنّهم سيساعدونه، ثمّ استخدمهم في تحقيقِ طموحاته، وفي الوقت نفسه، كان يقضي علىٰ الأشخاص والجماعات الذين يتوقّع أنّهم سيقفونَ ضدّ سياسته، أو يُضرّون بها، ويزيحهم من طريقه،

حتّىٰ إنه لم يتورّعْ عن فعل كل ما هو سيىء لهم، بالإضافة إلىٰ ذلك، كان ينظرُ إلىٰ آخر ولاة مصر علىٰ أنّهم ليسوا أصحابَ إدارة أو تدبير.

ومهْما يكنْ من أمر، حتّىٰ وعلىٰ الرغم من أن خسْرو باشا وخورشيد باشا شخصان معتبَران، وأدَّيا دورًا مهمًّا في المستقبل (في مركز الدّولة)، فإنه وبسبب أنّ فترة ولايتهم الأولىٰ علىٰ مصر كانوا بلا تجربة؛ لم يُضِعْ محمّد علي هذه الفرصة، بخلاف ذلك، كان لديه ذكاء خارق، وطاقةٌ رهيبة، وحرصٌ شديد، لكنّه يخفي طمعَه وحرصَه، ويعمل المستحيل من أجل الوصولِ إلىٰ أهدافه بعزمٍ، وقوّةِ شخصية.

نرىٰ أنّ مِن بين العوامل التي أوصلتْ محمّد علي إلىٰ النّجاح في مصر؛ تناسب الأرض والوقت، ومع أنّه كان صاحبَ حظٍّ وفير، وطالعٍ حَسَن، كان لديه قوّةُ شخصية وقابلية . . . إلخ. والشيء الذي يُلفت الانتباهَ؛ أنّه بالرّغم من الأوامرِ الكثيرة من الدّولة بمنع دخول الباشىٰ بوزوق والأرناؤوط إلىٰ مصر قطعيًّا، فإنّه كان هناك عساكر من الأرناؤوط والروم إيلي يأتون إلىٰ مصر بطرق مُختلفة، وهذا الوضعُ يُظهر العلاقةَ التي كانت تربط الباشىٰ بوزوق بالأرناؤوط دائمًا، ومن جانبٍ آخر، لم يكنِ البابُ العالي علىٰ علمٍ كافٍ وصحيح بالاضطرابات والتمرّدات التي كانت تحدث في مصر، وفي الوقت نفسه، كانت التّدابير التي اتّخذها البابُ العالي عند عدم مباشرة الوالي عملَه جيدًا؛ هي تعيين والٍ

آخرَ مكانه، وبخلاف ذلك، انحصرت التدابير فقط في إرسال أوامر شفهيّة، لكنْ في الوقت نفسه، كان من الواضح أنّ البابَ العالي لم يتّخذ سياسة حاسمة تجاه الأحداثِ المصرية، فعندما أسقط الباشىٰ بوزوق والشعب خورشيد باشا من الولاية، وعُين محمد علي؛ لم يكنِ البابُ العالي يعلمُ ذلك قطّ، وكان يسير خلفَ الاحتمالات، ويحاول الوصول إلىٰ نتيجة، ولعدم اهتمامه بمصرَ كما ينبغي في ذلك الوقت، كان يتصرّفُ بعجز تام، كما أنّ البابَ العالي وثِقَ كثيرًا في عقلية رجال الدولة (التي لم تكنْ علىٰ قدْر المسئولية). لكنّ السّلطانَ سليم الثالث -شخصيًّا- أظهر جهدًا كبيرًا نحو تأسيس نظام في مصر، وخطوطُه الهمايونية خيرُ دليلٍ علىٰ ذلك، لكنْ -مع الأسف- لم يغيّرْ في الواقع، ومع ذلك يمكنُ أنْ نقول: إنّه معَ عجز البابِ العالي تجاه الأحداثِ في مصر، لم تكنِ الاضطرابات في مصر هي مشكلة الدولة الوحيدة؛ فقدْ كانت هناك اضطراباتٌ كثيرة في كثيرٍ من بلاد الإمبراطورية، في مناطق الروم إيلي المختلفة، وفي الأناضول، وفي سوريا، وفي الحجاز، والحربُ الروسية كانت علىٰ الأبواب، فالدّولةُ كانت تواجه صعوباتٍ من كلّ مكان، وإصلاحاتُ السّلطان سليم الثالث لم تعجبِ الينكچرية، ولا الشّعب، فواجهوها بشدّة؛ ولهذا السّبب، لم تهتمّ الدّولةُ بأحداث مصر كما ينبغي، وبسبب زيادةِ الخطر الوهّابي، كانت تريد حلَّ المشكلة؛ لذلك اضطرّ البابُ العالي -في ظل ظروف

صعبة- إلىٰ الاعترافِ بمحمد علي واليًا علىٰ مصر، لكنْ بعد ذلك لم تستطعِ الدّولةُ أن تخرجه من مصر.

هذا، وهناك عدّةُ أسباب مكَّنت محمّد علي -قائد وحدات الباشىٰ بوزوق- من الجلوس علىٰ ولاية مصر، منها: ضعفُ الجيش العثماني الموجود في مصر، وقلة خبرتِه الإدارية مع الخبرات الشخصية العالية لمحمد علي، وقد لاحظ محمّد علي ذلك بسرعة؛ فقرّر البقاءَ في مصر للإفادة من ذلك، فكان يعملُ في الخفاء، ويخلق كثيرًا من الاضطرابات، ويعملُ علىٰ إبعاد الولاة المعيّنين من إستانبول عن وظيفتهم، وعندما فهمت الدّولةُ العثمانية أنّ كلّ ما حدث في مصر كان لمحمد علي يدٌ فيه، أرادت إبعادَه عن مصر بتعْيينه علىٰ ولاية جدّة، لكنه نجح في المماطلة، وأخيرًا حصل علىٰ ولاية مصر، بوعدِه للدّولة بالقضاء علىٰ عصيان الوهابيّة في الحجاز، وفي أثناء الأزمة في ١٨٠٤-١٨٠٥م، كان محمّد علي يُرىٰ للشّعب المصري أنّه المنقذُ والمصلح؛ ذلك لتحرّكه بالاتفاق مع أشراف القاهرة، خاصّة العلماء الكبار والتّجار، ومِن الناحية الاجتماعية؛ اكتسب دعمَ العلماء الذين كان لهم كلمةٌ مسموعة، وعلىٰ رأسهم عمر مكرم؛ الذي كان له تأثيرٌ ونفوذٌ كبير علىٰ الشّعب، كما أفاد من عائدات الأوقاف والالتزامات بشكلٍ كبير، فقد لعب عمر مكرم دورًا كبيرًا؛ في إظهار محمّد علي علىٰ أنّه مخلّص الشّعب، وأفاد محمّد علي كثيرًا من ذلك؛ بسبب رؤيةِ الدّولة له علىٰ أنّه ليس من المتغلبة، أو الغاصبين للحكم.

معاني بعض الكلمات الواردة في الكتاب(*)

١- **علوفه** Ulufe: تأتي الكلمة من كلمة علف العربية، وتُستخدم في التّركية بمعنىٰ: المعاش، أو الرّاتب، كانت في البدايةِ تُستَخدم الكلمة للعلف الذي يقدّمه عساكر السّباهية والفرسان للخيل، وبعدَ ذلك أصبحت تُطلق علىٰ رواتب العساكر وسائرِ الموظفين. انظر:

Mehmet Zeki Pakalın! OSMANLI TARİH DEYİMLERİ VE TERİMLERİ SÖZLÜĞÜ,C 3, S.544.

٢- **سكبان** Sekban: مصطلحٌ يُطلق علىٰ جماعاتٍ مختلفة، وهو مشهورٌ بين الناس باسم: (سيمان seyman)، يُطلق علىٰ أحدِ أقسام الإنْكشارية الثلاثة، والاثنان الآخران هُمَا: (آغا بلوكلرىٰ، وجماعت)، ويُشكّل عساكر السّكبان نسبة ٣٤ لكلّ ١٩٦ من

(*) هذه الكلمات من وضع المترجم.

جماعة الإنكشارية، ويُطلق عليهم اسم: (فرق السكبان). المصدر السابق، ج٣، ص١٤٥.

٣- دفتردار Defterdar: لقبٌ يُطلَق علىٰ الموظّف المسئول عن الأمور المالية في الدّولة العُثمانية، وتعني الكلمة مَن يمسكُ الدّفتر، ويُطلق علىٰ صاحب هذا المقام في دول الإسلام الشّرقية اسمُ: (مستوفي). وتقابل الكلمةُ في الوقت الحالي وزيرَ المالية. المصدر السابق، ج١، ص٤١١.

٤- مباشر Mübâşir: اسمٌ يُطلق علىٰ الموظّف الذي يقوم بتبليغِ مجموعةٍ من الناس بأوامر الحكومة، أو: الرّجل المُكلّف بتحصيل أموالٍ للمالك. ش. سامي، ص١٢٦٨.

٥- قبوجىٰ باشىٰ KapucuBaşı: رئيسُ البوّابين في القصر العثماني، وهو منصبٌ من مناصب القصر السّلطاني المهمّة. osmanlı tarih lugatı, midhat sertoglu, s.173.

٦- متسلّم Mütesselim: أُطلق علىٰ الأشخاصِ الذين وُجّهت إليهم إدارةُ السّناجق والأقضية؛ التّابعة للولاةِ والمتصرّفين قبلَ عهْد التّنظيمات. وتعني في اللّغة: الاسمَ الذي أُطلق علىٰ مَن يتسلّم وظيفةً، أو منصبًا من المناصب العالية، ويُطلق عليه اسم: (ويوده voyvoda). وعندما يتمّ عزلُ الوزير، أو أميرِ الأمراء، يتمّ إدارةُ مكانهم من طرفِ المتسلّم. استمرّت هذه الوظيفةُ حتّىٰ عصر التّنظيمات. انظر: Pakalın, C 2, S.639.

٧- **كيلار عامره** kilar-i Amire: الاسمُ الذي أُطلق علىٰ المكان الذي تُخزّن فيه الأشياءُ الخاصّة بمأكولاتِ أفراد القصر العثماني، وعلىٰ رأسِهم السّلطانُ، حتّىٰ يتمّ صرفُها وتوزيعها، وبدأت في عصر يلدرم بايزيد، ولكنِ اكْتسبت أهميةً كبيرة في عصر سليم، وسليمان القانوني. انظر: Pakalın .c 2, s. 281

٨- **ترسانه عامره/ معموره** Tersane-i Amire: الاسمُ الذي أُطلق علىٰ المكانِ الموجود فيه السّفنُ والبحّارة، وأعمال البحر وعساكر البحرية. انظر: Pakalın, C 3, S463.

٩- **الميري** miri: الضّريبةُ الرّسمية المقدّرة علىٰ أرضِ الفلاحة، وقد حدّدت الروزنامة مقدارَ المالِ الميري المقرّر علىٰ كلّ حصّةٍ، تبعًا لمساحتها وجودةِ كلِّ جزءٍ من أرص هذه الحصّة؛ حيث قُسّمت كلُّ حصّةٍ إلىٰ جودتها إلىٰ: «عال» و«وسط» و«دون»، وكان الملتزمُ يجمعُ الأموالَ الأميرية المقرّرة علىٰ حصّته، ويسدّدها إلىٰ ديوانِ الولاية علىٰ ثلاثةِ أقساطٍ مُتساوية قبلَ نهاية العام. الرّيفُ المصري في القرن الثامن عشر، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٢٧.

١٠- **آقجة** Akçe: اسمُ عملةٍ فضيّة كانت متداولةً معَ مرور الوقت، وكلمةُ: (آق)، تعني: أبيض في اللّغة التركية، وتعني الكلمةُ: عملة بيضاء، ضُربتْ لأوّل مرّةٍ عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م، في بورصة في عهد السّلطان أورخان غازي، وزنُها خمسةُ قراريط وثلاثُ حبّات؛ أي: ربعُ مثقال. Pakalinm c 1, s. 32.

١١- باشىٰ بوزوق başıbozuk: الاسمُ الذي أُطلق علىٰ الأفراد المتطوّعينَ؛ الذين يلتحقون بالجيش عندَ وقوعِ حرب، وهؤلاء المتطوّعون لا يدخلونَ مع القواتِ الأصليّة للجيش، وبسبب أنّهم يلتحقونَ بالمُشاة أو الفرسان؛ لهم تجهيزاتُ أسلحةٍ منفَصِلة، ويخضعونَ تحتَ إدارة قادةٍ مُنْفصلين عنِ الجيش الأصلي، ويتمّ استخدامُهم في صورةِ عساكر مُعاونِة، وقديمًا كانت هذه العساكرُ تأتي مِن الولايات إلىٰ إستانبول، وبسببِ عدمِ وجود مكانٍ أو وطنٍ لهم؛ أُطلق عليهم باشي بوزوق. للمزيد انظر: Pakalin. c 1, s. 164.

١٢- ساليانه Sâlyâne: كلمة فارسية تطلق علىٰ: الضريبة السنوية التي كانت تجبىٰ من بعض الإيالات في الدولة العثمانية؛ التي عرفت باسم الإيالات ذات الساليانه، كما استخدمت الكلمة للراتب الذي يُصرف سنويًا لبعض موظفي الدولة، قبل إعلان التنظيمات. صالح سعداوي صالح، مصطلحات التاريخ العثماني معجم موسوعي مصور، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، ج٢، ص٧٠٠.

١٣- كتخدا Kethüdâ: كلمة فارسية تعني: رب البيت، والأمين، أو الوكيل المعتمد لدائرة من الدوائر، فهناك وكيل الوزير، ووكيل الصدارة، ووكيل القاضي، وغيرهم. صالح سعداوي، المعجم، ج٣، ص١١٥١.

١٤- **محلول** Mahlûl: تطلق الكلمة على الوظيفة التي تصبح شاغرة، وكانت تستخدم أكثر في حق المعاشات، أو الإقطاعات التي من نوع التيمار والزعامت عندما تنحل عن أصحابها، أي: يسقط عنهم حق الانتفاع بها. صالح سعداوي، المعجم، ج٣، ص ١٢٤٧.

١٥- **چورباجي** Çorbacı: يطلق هذا اللقب على أحد ضباط البلوك، الذي يتشكل من عساكر المشاة في الجيش العثماني، الذي يتخرج من أوجاق القابوقوللى. ويُطلق عليه أيضا: بلوك باشي، أي: رئيس البلوك، وظن بعض الكتاب الأجانب أن هذه الوظيفة تعنى من يقوم بطبخ الحساء. Pakalin, c 1, s. 380.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وصحبه الطاهرين،

وبعد ...

فإن العمل على نشر العلم بين الناس هو أشرف الأعمال، وزكاة العلم نشره، لذلك قررت رفع هذا الكتاب الموسوم بـ "رؤية الوثائق العثمانية ولاية محمد علي باشا على مصر عام ١٨٠٥م" في صيغة PdF على النت بعد انتهاء العقد الموقع مع دار النشر، والكتاب الآن ليس لأحد عليه حقوق ملكية، إنما من حق المترجم فقط التعرف عليه، وخدمة للقراء الأعزاء فعلت ذلك، وأرجو من الجميع إبداء الملاحظات عن الكتاب، والدعاء لي بزيادة العلم والبركة في العمر، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الله الكريم.

كما أتقدم بالشكر إلى المهندس/ خالد العسيلي على مساعدته في رفع الكتاب وإتاحته للجميع.

سوهاج المحروسة

مصر

د. محمد عبد الفاطي محمد

٢٠٢٢/١/٧

اللهم يسر وأعن

مكتبة الدكتور محمد عبد العاطي محمد

رؤية الوثائق العثمانية

ولاية محمد علي باشا على مصر عام 1805م

يعد هذا الكتاب الذي نقدمه للقارئ العربي من الكتب المهمة التي تتناول الفترة من 1801-1805م وهي فترة صراع واضطراب بين قوات عدة تريد كل واحدة منها الاستحواذ على حكم ولاية مصر بعد أن كانت متفقة في الدفاع عنها، وإخراج الفرنسيين المحتلين منها. ويشرح لنا بالتفصيل -اعتمادًا على الوثائق والمصادر العثمانية- رؤية جديدة عن الصراع بين المماليك والعثمانيين والأرناءوط على حكم الولاية، ونجاح محمد علي باشا في السيطرة على الوضع لصالحه، وأخيرًا موقف الباب العالي من هذا الصراع وتعيين محمد علي واليًا على مصر عام 1805م.

وينقسم الكتاب إلى توطئة وببليوجرافيا ومدخل وثلاثة أقسام وخاتمة، ويمثل وجهة النظر العثمانية من محمد علي وولاية مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي. والمعلومات الواردة في الكتاب غير موجودة في كتب التاريخ التي تناولت هذه الفترة.

السعر: 6 دولار
أو ما يعادلها

9 789778 539112

www.aalamaladab.com